الأب متوديوس زهيراتي

الإسكندر الكبير

فتوحاته وريادة الفكر اليوناني في الشرق



بسم الله الرحمن الرحیم

دار طلاس

للدراسات والترجمة والنشر

دمشق - اوتستراد المزة. ص.ب: ١٦٠٣٥

هاتف : ٦٦١٨٠١٣ - ٦٦١٨٩٦١

تلفاكس : ٦٦١٨٨٢٠ - برقياً : طلاسدار

ريع الدار

لجمعية مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

الإسكندر الكبير

فُتُوحَاتهُ وَرِيَادَةُ الفِكرِ اليُوناني في الشَرق

الطبعة الأولى - ١٩٩٩

الأب تيودوسيوس زهيراتي

الإسكندر الكبير

فتوحاته وريادة الفكر اليوناني في الشرق

الإسكندر الكبير: فتوحاته وريادة الفكر اليوناني في الشرق/ متوديوس زهيراتي.ـ دمشق: دار طلاس، ١٩٩٩.ـ ٢٥٥ص؛ ٢٤سم.

١ ـ ٩٢٣,١: الإسكندر الكبير ز ٢ ـ ٩٣٨ ز هـ ي إ
٣ ـ العنوان ٤ ـ زهيراتي

مكتبة الأسد

رقم الايداع : ١٩٩٩/١/٩١ رقم الاصدار ٧٩٤

رقـم: ٤٤١١٧
تاريخ: ٦ /١٩٩٩/١

المقدمة

بقلم : نديم مرعشلي

توطئة :

قاعدة متبعة منذ القدم ، وهي أن يقدم الأساتذة الكبار نتاج طلابهم الذين يتوسَّمون بهم خيراً إلى القراء ، ... أما أن يقدم طالب قديم نتاج أستاذ له لمحبي المعرفة فشأن نادر ، وهذا بعض بعضه

تعود معرفتي بالمعلم والمربي الكبير الأب متوديوس زهيراتي إلى العام الدراسي (١٩٤٢ - ١٩٤٣) ، وكان يومها قريبَ عهد العودة من دير الشير اللبناني حيث كان يدرِّس فيه الفلسفة ، وكان ممن درس عليه هذه المادة راعي القدس مطران العرب "إيلاريون كبوجي" ليستقر نهائياً في حلب ، مديراً لمدرسة الروم الكاثوليك الكبرى ،.. تلك المدرسة التي التحقت بها لغرض أساسي هو التمكن من الفرنسية لا غير ، .. فكان الرجل خير معين لي على ذلك ، وكنت بتوجيهه أتنقَّل من صف إلى صف ، حيث تدرس تلك اللغة (من الخامس فما فوقه) ..

وكان وداعي تلك المدرسة - التي أُعفيت من قسطها السنوي - بقصيدة مطولة منها هذا البيت :

يا معهداً بشيوخه وشبابه   عيسى وطه في الهوى قد سارا

ودفعني الرجل بيد صناع وئيدة رحيمة معاً إلى الحياة العملية مدرساً للعربية في مدرسة الأرمن الكاثوليك في القامشلي ، .. وانغمرت في لجة الحياة ألتقي به الفينة بعد الفينة صديقاً وزميلاً تحت راية القلم إلى أن دفع لي هذا المؤلف الثمين : " الإسكندر الكبير (٣٥٦ - ٣٢٣) ق.م - فتوحاته وريادة الفكر اليوناني في الشرق " فكانت لي معه هذه الوقفة ، وهيهات أن تغني مقدمة مهما سمت استيعاباً وتكثيفاً عن القيام مقام الكتاب الأصلي إلا إذا أخذنا على محمل الجد والواقع تدويمات جناح شاعر مفلق مثل أبي ريشة القائل : بعض الربيع ببعض العطر يختصر

تعتبر حياة الإسكندر الكبير - كما نستفيد من الكتاب المؤلف - مرحلة جد هامة في التاريخ العالمي عسكرياً وحضارياً سواء بسواء ، ... لأنه دأب خلال عمره القصيرلنشر لواء الحضارة اليونانية الإغريقية في العالم ، عبر مشروعه الطموح الذي لم يتحقق : فتح المعمورة وتوحيدها تحت رايته في دولة عالمية كبرى .

اليونانيون وتراثهم الفكري حضارياً :

هذا ، وقد درج المؤرخون على تقسيم الحضارة اليونانية الإغريقية إلى مرحلتين اثنتين يفصل بينهما فتح الإسكندر ، أولى وتنعت بالهيلينية وتتمثل بأبرز وجوهها : بيركلس وسقراط وأفلاطون وأرسطو ، وهي يونانية صرفة ، وهيلينستية تلت ذلك الفتح ، وامتدت طويلاً طويلاً حتى العصر العباسي ، وكانت فيها الثقافة مزيجاً من تراث معارف الأمم وتجاربها ودياناتها ومعتقداتها الخاصة – وهي بدورها مزيج من العلوم والأساطير كذلك – وتجلت أكثر ما تجلت بثمرات الأقلام العربية والإسلامية ، تستقي من الهيلينية كذلك ، وما برح قطبا رحاها : أفلاطون وأرسطو اللذين سيء فهمهما أحياناً ، إذ شِيبَ نتاج الأول بالأفلاطونية الحديثة ، ورمزها أفلوطين ، وفيها مزج العلم بالدين ، وداخَلَ علمَ الفلك أو النجوم التنجيمُ ، والكيمياءَ العلمية الخيمياءُ التي يداخلها ما يداخلها .. وبالتالي المعرفة البحتة بالخرافة .. "والناس فيما يعشقون مذاهب " .

وما علينا الآن إلا متابعة رحلة ألف الميل التي قطعها المؤلف في ذلك الدرب الممهد حيناً ، الشائك طوراً ، وقد شملت أكثر من مرحلة تاريخية ، مركزين أكثر ما نركز على قطب الرحى الإسكندر الكبير الذي مر كأسرع سحابة على هذه المعمورة ، لكنها السحابة الأنف التي كم حادت بربيع تلاه ربيع ، بعد أن انتشله منجِّمه من محاولته الانتحار في إحدى محنه القاسية ، كما سيرى القارئ في بسط الأب المؤلف حياته من مختلف جوانبها .

بدايات الإسكندر :

يمكننا القول بكل راحة ضمير : إذا كان الإسكندر قد نجح إلى حدٍ ما بتوحيد شطر كبير من أرجاء العالم القديم تحت سلطان سيفه وفكره ، فمردُّ الفضل في ذلك إلى أبيه الملك فيليب المكيدوني (٣٨٢ – ٣٣٦ ق م) الذي نجح انطلاقاً من مكيدونية في صهر دويلات مدن بلاد اليونان في دولة واحدة ، فكان عن حق رجل الحنكة السياسية ، والإدارة الماهرة ، يعمل فكره قبل سيفه بضرب هذه الدويلة تلو تلك ، مداً لرواق حكمه ، فقد مكر بالجميع وتغلب عليهم طراً ، لكن لا ليخضعهم قهراً لحكم صارم مهنده ، بل ليرقى بهم في كلِّ موحدٍ اجتماعياً وسياسياً وعسكرياً وعينه على مدينة بيزنطة .

وقد يكون أفضل ما قدمه لابنه أن أظلّه برعاية المعلـم الكبـير وأبـي المنطـق العـالمي : أرسـطو ، فـدرس علـى يديـه المبـاركتين الشـعر والأدب والخطابـة والسياسـة والمنطـق والتاريخ وطرفاً من علوم الطب طيلة ثلاث سنوات (بدءاً من سنه الثالثة عشرة حتى السادسة عشرة) .

وربما كان أثر الفيلسوف في نفس تلميذه تربوياً لا يقل لديه علميـاً ، إذ استطاع أن يشذب من صعب مراسه ، وكبح عارم نزواته ، وحمله على الاعتدال بكل شيء ، حتى أيقن أن اللين أجدى من القوة حيناً ، واللطف أفضل من العنـف أحيانـاً ، وهكـذا نهـد عملاق السيف ، عملاق الفكر .

الإسكندر والقيادة العسكرية :

ومع بلوغ الإسكندر السادسة عشرة من ربيع عمره ، نودي به وليـاً للعهـد ، ونائبـاً عن والده بإدارة دفة البلاد أثناء انصراف الأخير للحرب ضد مدينـة بيزنطـة ... فـأظهر الشاب براعة في القيادة العسكرية ، إذ عرف كيف ينهد لمقارعة القبائل التي ثارت ضـد حكم والده في تراقية ، .. وبضربة سيف هنا ، وتسديد رمح هناك ، ارتدت نيران تلـك الثورة رماداً هامداً .. وليس هذا فحسب ، بل كان يمينَ والده في قيـادة الجنـاح الأيسـر في معركة خيرونة (كيرونة) التي بوأت الملك فيليـب مركـز الصـدارة فسيداً علـى بـلاد الاغريق دونما أي منازع .

الإسكندر ملكاً على مكيدونية (مقدونية) :

وإثر اغتيال الملك فيليب عام ٣٣٦ ق م ذلك الاغتيال الـذي لم تـبرأ منـه يـدا الملكـة الأم ، تسنّم الإسكندر عرش مكيدونية ولما يتخطّ عتبة العشرين من عمره .

وعجمت الأيام عوده ، فلم تزين له التربع بوقار على العرش ، بل دفعت به قدماً منذ اللحظات الأولى لتتويجـه إلى الـنزول علـى سـاحات المعـارك وحومـات الوغـى ، يعمـل حسامه يمنة ويسرة ، انتقالاً من ميدان قتال إلى معركة نزال ، يخمـد أوار الثـورات الـتي شبت مباشـرة عقـب وفـاة والـده في الديـار اليونانيـة السـاعية للتخلـص مـن الهيمنـة المكيدونية .

لكن رغم إسلاس القياد له ، واستتباب الأزمّة في يديه ، وتوطيده دعائم الحكـم ، لم يهدأ بال الرجل ، بل ظل ممسكاً مهنده بيمينه ، وعيناه شاخصتان بعيـداً بعيـداً وإن عـاد

إلى الواقع انصرف همه إلى الجيش يحسن تدريبه ويقوي من عدته ، ويزيد في عدده ، ... وليركز اهتمامه على قسم القاذفات الذي كان مقصوراً على رمي الأسوار ، فنقله سلاحاً ميدانياً يضرب به تجمعات العدو قبل الزحف لكسب الأرض والتمركز فيها .. بما طبق بعد قرون على ما يعرف اليوم بالتمهيد المدفعي ، .. كما عرف كيف يقوي سلاح الفرسان .

معارك وفتح مدن وتصفية الامبراطورية الفارسية :

خاض الإسكندر العديد من المعارك التي انطلق بها من بلاد الإغريق متوغلاً بالعمق الآسيوي شرقاً حتى بلغ حدود الهند ، يغذّ جيشه السير فيها رجالة وركباناً ، كما لو كان بتحركه السريع هذا خيول سيف الدولة التي رصد المتنبي وصفها بعد عدة قرون :

وكأن أرجلها بتربة منبج　　　يطرحن أيديها بحصن الران

وأبرز تلك المعارك أربع ، ثلاثٌ منها ضد فارس وهي الغرانيق وإيسوس وغوغامل الواقعة جميعاً ما بين ٣٣٤ - ٣٣٠ ق.م وكانت بعدها الامبراطورية الكسروية أثراً بعد عين .

وهنا نذكّر بأنه ما بين المعركتين الثانية والثالثة ، يمم الإسكندر شطر صور وغزة فأخضعهما بعد طول حصار واتجه بعد ذلك نحو مصر وذلك في العام ٣٣٢ ق م ، فاستسلم له واليها الفارسي ، ورسم فرعوناً في مدينة منفيس ، .. فقدم القرابين للآلهة المصرية ، .. وليس ببعيد أنه اعتنق هناك فكرة الملكية الألوهية ...

وأعطى الرجل أمره ، فكانت إشادة مدينة الإسكندرية حتى ما برحتْ لؤلؤةَ المتوسط ما ذرَّ شارق وخفق جناح صباح .

والذي يسترعي الانتباه أن نهاية سيد فارس لم تكن على يد الإسكندر ... إذ انهزم الرجل وهو يوغل بُعداً في أعماق فارس هرباً من ندّه ، حيث لاقى حتفه على أيدي رجاله الذين كم لهجوا باسمه تعظيماً وتبجيلاً ...!

معركة الهيداسب ، والصراع مع الهند (٣٢٦ ق.م) :

بعد أن انتهت حياة داريوس تلك النهاية المأساوية ، انقلبت ربوع فارس مراحاً للجيش المكيدوني لا يلقى فيها أية مقاومة ، ساكنة هادئة غير متذمرة ، تجوس خلالها الجيوش المكيدونية دون أن تلقى أية مقاومة ، بل فتحت دونها الأبواب على الترحاب لما يلاقيه المواطنون من حسن المعاملة والإدارة الحكيمة ، حتى انتهى الإسكندر إلى حدود الهند حيث خاض آخر معركته الكبرى ، لكن أولها ضد هذا البلد كان عند أحد روافد نهر السند ، ويدعى الهيداسب ، وفيها أبلى رجل مكيدونية بلاء جاوز حد المجازفة بحياته التي صانتها الأقدار لغاية في نفسها .

وبكل الأحوال ، فقد توجت تلك المعركة بانتصار رائع للإسكندر ، كان من ثمراته أن عامل ندَّه الهندي الملك بوروس بكل شهامة ، فأبقى على مملكته إما مروءة منه ، أو لعامل آخر هو رفض جنده التقدم خطوة واحدة بعد ذلك ، وكانت مرحلة الارتداد لكن ليس في الخواء ، وإنما ليلعب دوره الأهم الذي هو تاج تيجان الخلود ، خوض معركة الحضارة ، وإن كان أحس بالمرارة ، فلم يتوج إمبراطوراً على العالم شرقه وغربه معاً .

معركة الإسكندر الحضارية :

من المشهور عن نبي القافية العربية أبي الطيب قوله :

إن السلاح جميع الناس تحمله ... وليس كلُّ ذوات المخلب السبع

وقوله :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى إلى شرف من الإنسان

وبمعنى ، ليس كل القادة سواء ، ففيهم السبع والضبع ، .. كما أن القوة إذا لم يهذبها العقل ويصقلها الضمير كانت غاشمة ظالمة .

وقد جمع الإسكندر إلى قوة الساعد طاقة عقلية فذة ، كثيراً ما استعملها قبل أن يستل حسامه من غمده ، فحقق ما أراد ، كما لو كان المتنبي لسان حاله عند رفع صوته بقافيته بعد قرون :

ولربما طعن الفتى أقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الأقران

والأهم من هذا وذاك أن طاقته العقلية تستنير بمصباح ضميره الحي ، فلم يكن الهدف من سائر حروبه هدر الدماء واستنزاف خيرات الشعوب ، إذ شابت عبقريته الحربية النزعة الإنسانية إلى حسن الإدارة فكياسة فن السياسة ، زد على ذلك أنه أحاط نفسه

إلى جانب قادته العسكريين بكوكبةٍ من الفلاسفة والفلكيين والمهندسين بمختلف فنونهم ، فمنهم علماء مختصون بالمناجم ورسم الطرق وضبط المسافات ، وغيرهم وغيرهم ، يناقشهم ويطّلع على ثمرات تآليفهم .. بله كونه دائم الاتصال بمعلمه أرسطو ، بل يمكن القول بكل اطمئنان بأنه تجاوزه بعيداً بعيداً بنظرته الإنسانية غير البعيدة عن مفهوم الشرائع السماوية ، إذ كان المعلم – على عظمته وبعد أفقه – يؤمن بتفوق العرق الإغريقي ، وأن سائر الأمم ومختلف الشعوب لا تعدو أن تكون عبيداً له ، على حين كان التلميذ رغم إيمانه بتفوق حضارة الإغريق يؤمن كذلك بمبدأ الأخوة الإنسانية ، إذ تحلى برداء كسرى وكانت له أربع زوجات كلهن فارسيات ، وقد أقام يوماً حفل زواج جماعي بنى فيه ثمانون قائداً من قواده بفارسيات ، وليس هذا فقط بل كان عدد جنده من الفرس لا يقل عن نظرائهم اليونانيين ، ... ولهذا كانت الغضبة عليه عارمة في صفوف أبناء جلدته الذين كانوا يترفعون على أبناء غيرهم من الأمم ، ولا يحسبونهم إلا بزمرة العبيد لهم .. فبلسمَ جراحَهم النفسية بخطابٍ هامٍ له . وخيَّرهم بين البقاء في صفوف الجند ، أو العودة إلى الوطن الأم معززين مكرمين ، فبقي معه جانب منهم ، ويمم الآخرون وجوههم شطر الوطن أغنياء بعد أن خرجوا منه فقراء .

وبعد هذا الحادث لم تطل حياة الإسكندر ، فتوفي وهو دون الثالثة والثلاثين من عمره ، .. لكن رغم ما أحيط جثمانه من هالة التعظيم والتمجيد ، فقد أتى السيف على سائر أفراد أسرته : أمه وزوجاته الفارسيات جميعاً ووريث عرشه الذي لم يكن يتجاوز الرابعة ، ... واقتسم كبار قادته تلك الإمبراطورية ... وتمثلت أكثر ما تمثلت بالبطالمة والسلوقيين ..

لكن ، وقبل وداعنا القارئ ، لا مناص لنا من وقفة مع المؤلف الكريم من الإسكندر الذي اتسم بالواقعية والمثالية معاً ، وهو يبني إمبراطوريته قال : "ومما يشرّف عبقريّة الفاتح وبصيرته الواقعية إدراكُه أنه يستحيل عليه إرساء قواعد دولته التي تفوق مساحتها أكثر من خمسين مرة مساحة مكيدونية ، ويَرْبو عدد سكانها مئات المرّات على شعبه ، وتبعد آلاف الكيلومترات عن وطنه ، على أساس الاستعباد والتفاضل العرقي ، وأنه لا مناص من صهر الفوارق ومزج الأجناس ودمج القارتين المتعاديتين لإنهاء البغضاء التي طالت بينهما أكثر من قرن ونصف القرن .وقد زاد قناعته بوجوب الأخذ بهذه السياسة الرشيدة ما شاهده عند شعوب إمبراطوريته من فوارق في العرق واللغة والدين ونمط العيش وأسباب الكسب وطرق التفكير . ولما كان يكنُّ للحضارة اليونانية من إعجاب

فائق - إذ يعتبرها وحدها خليقة بسلوك البشر ، بفضل إنسانيتها الشاملة وسمّوها الفذّ ـ فقد وطّد النفس على جعلها القاسم المشترك لشعوب مملكته ، لتقليص الفوارق وتسهيل التجانس ، فاعتمَدها مع وسائل أخرى ناجعة لتحقيق المزج والتوحيد" .

وما على المطالع الآن - وخير جليس في الأنام كتاب - سوى المضيّ بمتابعة تلك الرحلة الممتعة مع صفحات هذا السفر القيّم الذي فيه الكثير من الصفحات المشرقة الزاخرة بمعرفة الهيلينية ، ورأسها علم المنطق الذي أخذت ولن تزال تأخذ به الأمم والشعوب ، على مدى السنين والقرون ، وإلى أبد الآبدين . والهيلينستية بغثها وسمينها سواء بسواء ، ﴿ وأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ ★

★ الرعد ١٧

التمهيد

ديمومة تأثير الفكر اليوناني في الشرق

يقسم المؤرخون عادة الحضارة اليونانية (أو الإغريقية) إلى قسمين جاعلين الحد الفاصل بينهما الفتح الإسكندري فينعتون بالهيلينية (Hellénique) العصور أو الحضارة التي سبقت موت الإسكندر (٣٢٣ ق . م) محتفظين بلفظة " هيلنستية " (١) (Hellénistique) للعصور التي تلت ذلك . وإذا كانت الحضارة اليونانية (الهيلينية) التي سبقت الفاتح الكبير حضارة عصر بيركلس وسقراط وأفلاطون وأرسطو ، حضارةً صافيةً إلى حد كبير ، بسبب النزعة العقلانية التي تميزت بها ، فالحضارة الهلنستية ، بعد الفتح الإسكندري كانت على عكس ذلك مزيجاً واختلاطاً إلى حد ما ، بين ما هو يوناني وبين الحضارات الفارسية والمصرية والسورية والفينيقية .

ويعتبر العصر الهلنستي من أهم حقبات تاريخ الإنسانية ، وقد كان للشرق دون أدنى ريب أخصب حقبة على الإطلاق بما أعطاه من اتجاه جديد وآثار ذلك لم تزل فينا ، منذ قرون ، في العلوم والفلسفة والتصوف .

قال أحمد أمين في كتابه " ضحى الإسلام " (الجزء ١ ، ص ٣٩٦) " كان للثقافة اليونانية منطقة نفوذ لا تكاد تزاحمها فيها ثقافة أخرى : فالعلومُ الرياضية ، من حساب وجبر وهندسة وفلك وطب وما إليه وفلسفة وما إليها ، كانت منطقةَ النفوذ اليوناني ، والمنهجُ الذي اتّبع في هذه العلوم منهجٌ يونانيٌّ ، في منطقه وطريقة تأليفه ، والمسحة الخاصة هي مسحة يونانية بحتة ، وقد ظلت حافظة لشكلها ، حتى بعد أن ألّف المسلمون فيها . " (٢)

ومن الغرابة بمكان أن الكتّاب في الشرق يهملون – إلى حد كبير – دراسة الفتح الإسكندري من زاويته الحضارية وأثر هذا الحدث المهم في العصر الهلنستي وفي الشرق على العموم ، إذا استثنينا الأبحاث القيمة التي ما فتئ الأستاذ عبد الرحمن بدوي يتحفنا بها منذ أكثر من أربعين سنة ، وبعضها مُعَرَّب عن كبار المستشرقين ، وما يظهر بين الفينة والأخرى ، من دراسات جيدة لكنها مقتضبة ، مثل " تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها " للأستاذ نجيب بلدي ، وهي نادرة ، نذكر منها الدراسة القيمة

للدكتور غسان خالد : " أفلوطين رائد الوحدانية " (٣) . إننا نرد هذه الظاهرة إلى صعوبة الإحاطة بهذا العصر من شتّى جوانبه : فدراسة العصر الهلنستي معقدة إلى درجة كبيرة إذ هو ذو جوانب كثيرة متشعبة متشابكة فيما بينها ، فيه الفلسفة وفيه الإلهيات ، فيه التفكير الرصين وفيه الخرافات الصبيانية ، فيه التصوف المتزن وفيه الشطح الجامح ، فيه العلم المتقد وفيه أشكال متنوعة من الغنوص (العرفان) (٤) ، فيه الرصد الفلكي الجيد وفيه التنجيم والفأل والطوالع ....

زد على ذلك أنه لا بد لفهم دقائقه من معرفة فلسفة كل من أفلاطون وأرسطو التي سبقته ،والإلمام بالمدارس الأخرى القديمة ، وتلك ربيبة العصر الجديد . وإننا نكتفي اليوم بلمحة نذكر فيها بعض معالم هذا العصر الفريد في تاريخ الإنسانية ، عسى أن تتطوع بعض المؤسسات برحالاتها للتعاون على دراسة شتى وجوه هذه الظاهرات الغنية والغريبة معاً .

العصر الهلنستي :

يمكننا بمنتهى التبسيط ، إرجاع قيام العصر الهلنستي إلى خمسة أعلام هم حصراً من العصر الهيليني ، أصابت الأقلام التي تناولت دراستهم حيناً ،وأخطأت أحياناً ، وذلك حسب صحيح مراجعها أو زائفها ، والعقول التي كانت وراءها رجحاناً ونقصاناً .

وهؤلاء الأعلام حسب قناعتنا هم :

– أولهم الملك فيليبس المكيدوني ، والد الإسكندر ، الذي وطد أركان دولته وزودها بأقوى جيش في عصره ، ووحد اليونان ، فمكن الإسكندر بفضل كل ذلك من القيام بفتحه الكبير .

– ثانيهم ، إيزوقراط الذي بلغ باللغة اليونانية حدّ كمال رونقها ، وكان طوال نصف قرن الداعية ، دون كلل أو ملل ، لاتحاد اليونانين لقهر الفرس ، وهو الذي لفت أنظار مواطنيه ، بعد طواف طويل ، إلى زعامة ملك مكدونية .

– ثالثهم ، افلاطون أستاذ أرسطو خلال عشرين سنة ، كانت للتلميذ النابغة ، شبه مهماز لبلورة أفكاره ، والاهتداء إلى مذهبه الأُنفُ .

– رابعهم أرسطو أستاذ الإسكندر وواضع المنطق والماورائيات ، ومؤسس المنهجية العلمية ، إحدى أكبر الدعائم للتألق العلمي في أول قرنَيْ العصر الهيلنستي .

وأخيراً : الإسكندر ، مَنْ حقق فتحاً عسكرياً وحضارياً فريداً ، فحمل تمدن الإغريق حتى مشارف الهند ،وأنشأ المدن ، وشرع أبواب التعارف بين الشعوب ، وشجع التمازج الحضاري على مدى لم يُعرف في تاريخ الإنسانية له مثيل .

هؤلاء كلهم لم يكونوا البادئين في مساهماتهم ، بل كانوا حصيلة سابقيهم ، ونهاية تطور سالف طويل ، ومدخلاً للعالم الإسكندراني الجديد .

حدود العصر الهيلنستي :

يختلف المؤرخون في تعيين الامتداد الزمني للعصر الهيلنستي باختلاف الزاوية التي ينظرون منها إليه . فمن الوجهة السياسية العامة ، ينتهي هذا العصر بتسلط الرومان نهائياً على مصر (سنة ٣٠ ق . م) . أما من وجهة الفلسفة الوثنية ، فالعصر يمتد إلى سنة ٥٣٩ ب . م ، أي عندما أصدر الإمبراطور جوستنيان (JUSTINIEN) أمره بإغلاق المدارس الفلسفية في أثينا .وهل من حاجة إلى التذكير بأن التعليم في هذه المعاهد قد أصبح في مجمله ، لاسيما في حقباته الأخيرة ، أشبه " بشبح للفلسفة العقلانية " فكان أساتذتها يصرفون قصارى جهودهم للإبقاء على تلك التعاليم الضبابية المتعلقة بتقاليد السحر الشرقي القديم ، من " الإيحاءات الكلدانية " إلى " الأسرار المصرية " (٥) إلى شروح مجموعة " هرمس المثلث العظمة " (٦) مع ما يدور حول ذلك ، من تنجيم وخيمياء واستحضار أرواح الأموات والبعيدين لمحادثتهم ، والإتيان بالخوارق مثل إحداث المطر ، أو صنع التمائم ضد الهزات الأرضية ...... إلخ ..

ولا يغَربنَّ عن بالنا ، أن مدارس الفلسفة في الإسكندرية لم تُغْلق لاعتدالها ومثابرتها على الأبحاث الرصينة ، وكان فيها يوحنا فيلوبون (+ ٥٦٦) ، المعروف بيحيى النحوي عند العرب ، صاحب الكتاب الشهير في قدم العالم ، وهو ردٌّ على بروقلس ، وقد استعان ببراهينه الكنديُّ وغيره من فلاسفة العرب فيما بعدُ ، وكان ليحيى هذا ولتلاميذه ولمن أتى بعدهم من أساتذة مدرسة الإسكندرية ، بفضل مؤلفاتهم وتفاسيرهم لأفلاطون وأرسطو وغيرهما التي سينقل أكثرها إلى السريانية ، ومنها إلى العربية ، كما كان لهجرة مدرسة الإسكندرية إلى بغداد ، التأثير الكبير على فلسفة العصور العباسية.... وإننا ، إذا أخذنا بعين الاعتبار ضخامة حركة النقل التي ظهرت عند العرب في تلك العصور ، على يد من عُرفوا بالسريان ، وهم من عدة طوائف نصرانية

وصابئة وغيرهم ، وإذا تفحصنا نوع إنتاجهم ومنحى تفكيرهم ، رأينا في فلسفة الأحقاب العباسية ، امتداداً سوياً وطبيعياً لفلسفة العصر الهلنستي .

نضيف إلى كل ما تقدم ، أن منطقة شمالي العراق وسوريا ، ومنطقة بلخ (في أفغانستان اليوم) ، كانتا من أهم المراكز التي ساهمت بإخصاب الحركة الفكرية في بغداد : الأولى بما أعطته من عدد لجب من النقلة ، والثانية بعلمائها ، وبما قدمه البرامكة البلخيون ، من عون وتشجيع لهذا النقل الذي أغدق عليه الخلفاء العباسيون المال دون حساب . ولنلاحظ أن هاتين المنطقتين كانتا الأكثر " تأغرقاً " من كل البقع الآسيوية الداخلية التي فتحها الإسكندر ، هكذا ، بما شاد من مدن في بكترية ، ومحطات مراقبة مكيدونية – احتياطاً لكل طارئ – وبما سيحققه السلوقيون من بناء مدن في شمال العراق وسورية تشبهاً بالفاتح .(٧)

وفاق الملك سلوقس الأول ، كل خلفاء الإسكندر حمية في نشر الحضارة اليونانية في دولته . نعم لقد تقلصت على العموم رقعة مملكته بعده باستمرار ، على أن منطقة شمالي سورية الطبيعية بقيت مركز الثقل ، وموضع اهتمام الدولة السلوقية ، فأقام فيها سلوقس الأول وحده قرابة ستين مدينة : منها ١٦ إنطاكية على اسم أبيه ، و٩ سلوقيات على اسمه ، وبضع لاذقيات على اسم أمه ، وأفامية واحدة (قلعة المضيق اليوم) على اسم زوجته الفارسية .

وهل من حاجة إلى الإشارة ، أن بلاد الشرق عامة ، وسورية الطبيعية خاصة ، بقيت ردحاً طويلاً تحت تأثير الحضارة اليونانية : في زمن الدولة السلوقية ، ومدة حكم روما ، ثم بيزنطية ، حتى الفتح العربي أي قرابة ألف سنة ....

ومعلوم أن الدولة السلوقية والدويلات اليونانية ـ البكترية ، واليونانية ـ الهندية ، بقيت إلى قبيل ظهور النصرانية (٨) .

ومن مفاخر العصور الهيلنستية – بشكل عام – أن الكتاب والمفكرين من الأديان الموحدة ، من يهود ومسيحيين ومسلمين ، قد اغترفوا من حضارتها الألفاظ والمفاهيم وأطر التفكير للتعبير عن معتقداتهم وتعاليمهم ونظرتهم في الأخلاق والمصير .

الحواشي :

١ – استعملت هذه اللفظة في أول الأمر (قديماً) للدلالة على الخاصيات السامية التي تسربت من اللغة العبرية إلى اللغة اليونانية عند نقل كتب العهد القديم ، من الكتاب المقدس ، في الترجمة المعروفة بالسبعينية (SEPTANTE) والتي تمت في

الإسكندرية في زمن بطليموس الثـاني (٢٨٥ ــ ٢٧٤ ق.م) علـى الأرجـح . وأشـاع درويزون (١٨٠٨ ـ ١٨٨٤) استعمالها في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

٢ – ضحى الإسلام من أشهر مؤلفات المفكر العربي الكبير والموضوعي أحمـد أمـين يقع في ثلاثة مجلدات وقد رصـده للعصـر العباسـي بدراسـة معمقـة سياسية واجتماعيـة وثقافية وحضارية عامة .. مبيناً فيـه تلاقـح الحضـارات وتمـازج الشـعوب وأثـر بعضهـا ببعضها الآخر .

٣ – منشورات عويدات (بيروت ـ باريس) الطبعة الأولى ١٩٨٣ .

٤ – من أفضل ما كتـب في معالجـة مسـألة الغنـوص – العرفـان الشـائكة ، المؤلـف هانس جوناس فقـد مهـد لدراسته بتعقـب مراحـل التهيـؤ في الغـرب ، ووصـف واقـع الشرق ، قبل حدوث الاختلاط ، ثم بيّن تفوق الهيلينية قبل أن يتنـاول نهضـة الشـرق ، وما جاء بعد هـذا مـن جديـد ، ذاكـراً خلفيـة هـذا التلفيـق ، ومظـاهر احتيـاح الفكـر الشرقي ، بعد الفتح الإسكندري ، ومفصلاً التأثير المتبادل بين الشرق والغرب ، في قيام أهم خاصيات العصر الهلنستي ، وخاتماً دراسـته القيمـة ، بوصـف الوحـدة الخلفيـة وراء تلك الظاهرات : فكان أن أخذ العقل الشرقي بالإفصاح عن نفسه ، مسـتعيناً بالأفكـار والمقولات وأساليب التعبير اليونانية .

Hans Jonas: La Religion Gnostique(Flammarion) Passim (Trad . Fr 1978)

٥ – يسهل اليوم الرجـوع إلى نصـوص الإيحـاءات الكلدانيـة Oracles Chaldai.. ques) وأسـرار مصـر (Les Mystères d'Egypte) المهمـة جـداً لفهـم العصـر الهلنستي ، وذلك بفضـل صـدور النصـين المُقَمَّشَيْن علميـاً مـع ترجمـة فرنسـية متقنـة ، ومقدمة وشروح نفيسة ، قام بها الأب دي بلاس (des Places) الاختصاصي الكبـير باللغة والآداب اليونانية ، ونشرت في مجموعة الجامعات الفرنسية المعروفة بمجموعة بوده (B U D É) الشـهيرة . ومعلـوم أن الكتـاب الثـاني للملفـق الشـهير يَمْليخـوس (jambliquc) .

٦ – من حسن حظ المهتمين بالدراسات الهرمسية أن أصبح اليوم بـين أيديهـم نـص علمي متقن مـع ترجمـة فرنسـية دقيقـة قـام بهـا عالمـان كبـيران همـا نـوك وفستوجيير (NOCK , FESTUGIÈRE) ثم تفرد بعد ذلك فستوجيير – وهو من أشهر العلمـاء – بوضع مؤلف ضخم تناول فيـه شـتى مظـاهر الهرمسـية وتطوراتهـا ، طبـع سـنة ١٩٤٩

بأربعة مجلدات ، وأعيد طبعه سنة ١٩٨١ بثلاثة مجلدات كبيرة ، ويعتبر هذا المؤلف ، بلا مراء وإلى اليوم ، أفضل ما نُشر عن مجمل الهرمسية .

Arnold Toynbee:L'Histoire,éd,Encyclop.Elsevier1975P.406 seq – ٧
Cartes p 473 et 475

٨ – تألقت الحضارة الهلنستية طوال قرابة قرنين ، مباشرة بعد الفتح الإسكندري . أما عن تعليل تهافت أكثر هذه المستويات الحضارية قبل تسلط روما على مصر (سنة ٣٠ ق . م) فنُحيل القارئ الكريم إلى ملخص مكثف جديد ، تناول فيه المؤلف مختلف النظريات في شرحٍ مختصر مفيد ، في آخر كتابه .

M • De Durand : Précis d' histoire grecque P . 241 - 247 éd Cerf . 1991

ولا بد من اضافة الكتاب القيم المؤلف من جزأين للمؤرخة الباحثة :

Claire Prèawx : le monde Hellèmistique P . U . F 1978

الباب الأول

الإسكندر الكبير من المهد إلى اللحد

فصوله :

الفصل الأول : والدا الإسكندر

الفصل الثاني : أرسطو تلميذ أفلاطون وأستاذ الإسكندر الكبير

الفصل الثالث : الإسكندر القائد

الفصل الرابع : فكرة السيطرة على العالم ومدى حظه في تحقيقها

الفصل الخامس : نشر الحضارة اليونانية في دولة عالمية

الفصل السادس : المزج في الإدارة والنقد وتأسيس المدن

الفصل السابع : الاقتصاد العالمي وتمشرق الجيش

الفصل الثامن : تحرير وارتباك وامتعاض الجيش

الفصل التاسع : المزج العرقي . . مقاومة ونجاح وموت مبكر

الفصل الأول

والدا الإسكندر، الملك فيليبس والأميرة أولمبياس

تركة فيليبس :

قَلّ أن وُجِدَ في التاريخ ، شخصيتان كبيرتان ، حدَثَ لهما ما وقع للملك فيليبس المكيدوني وابنه إسكندر الكبير . كان فيليبس شخصيةً فذَّة ، أما ابنه الإسكندر ، فمن العباقرة الذين قلَّ أن يجود الزمنُ بواحد مثله في حفنة من القرون .

قدّم الوالد لابنه آلةَ عظمته ، ومعوان شهرته ، ومهد له السبيل لبناء صرح مجده ، فغيّر الإسكندر وجْهَ التاريخ ، وبهرَ الفاتحُ الكبير العالَمَ بمنجزاتِهِ ، فطمس إلى حدٍ بعيدٍ صيتَ والده ، حتى كاد الناس ينسون عظمة الوالد وحميمَ فضلهِ على ابنه الإسكندر .

ليس علينا الآن أن نُفصِّل أعمال الملك فيليبس ، تكفينا شهادة مؤرخهِ ثيوبومب (حوالي + ٣٨٠ ق . م) الذي قال عنه : " لم تعرف أوربا قط إلى اليوم (أي قبل الإسكندر) رجلاً مثل فيليبس بن أمينتاس " .

لقد كان فيليبس أحد الرجالات النادرين وأمهر من قاد الجيوش في العصور القديمة ، قبل نبوغ ابنه الإسكندر ، ويُجمعُ دارسو حياته على أنه كان إلى جانب ذلك موهوباً في السياسة والإدارة والإصلاح الاجتماعي . فهو الذي عمل أكثر من كل ملوك مكيدونية ، على تحضير شعبه ، فوطّن القبائل ، وأنشأ المدن ، ووطّدَ مملكته في دائرة الحضارة اليونانية . وإذ كان لا بدَّ من المال لكل إصلاح في الأوطان ، فقد وضع يده على مناجم الفضة في ديزورون (Dysoron) وعلى مناجم الذهب في بانجة (Pangée) ، وحسَّنَ استخراج معادنها ، وصكّ ديناراً مكيدونياً ، جيّد العيار ، زاحم به دينارَي الفرس وأثينة .

أمّا في السياسة [١]، فكان طموحاً إلى حدّ مقارعة المستحيل وصفَهُ ديموستين بالرجل الدائم التطلّع والطموح للاستيلاء على بلاد جيرانه ، على أنه امتاز بحنكةٍ ودراية فائقتين . كان بعيد الرؤية ، ثاقبَ النظر في معرفة مواطن ضعف أعدائه ، صبوراً على تحقيق مآربه ، لا يثنيه عنها إخفاق أو فشل ، يمهد للانتصار على منافسيه بتؤدة وطول أناة ، بارعاً في زرع بذور التفرقة بين أعدائه ، يضرب الواحد بالآخر لتخلو له

الساحة ، يتلعب بخصومه كما يتلعب بالدمى ، ويوطئ للضربة القاضية بزعزعة دعائم خصمهِ ، حتى إذا انتصر عليه ، عامل عدوَّ الأمس باعتدال ، متحاشياً كل تطرّفٍ وانحراف لكسب ودّه ، ضنّاً منه بأهدافه المستقبلية .

أما الخُلُقية في سياسته (٢)، فقد كانت بعيدة عنه . كان سيداً لا يجارى في المراوغة وبذل الوعود الملتبَسة ، يُسوِّف ، ثم يعد ، ثم يُسوف ، وكان ماهراً في إشعال نار الحرب والتظاهر بحبه للسلم ، ومسراعاً في عقد الصلح إذا تساوق الأمر مع أهدافه ، حتى إذا رأى أنَّ مصلحته تتطلب نكس العهود ، فلا يُحجم ولا يتردد ، كما انه لم يكن يتعفف عن الإغراء والرشوة . أقامَ طوابير خامسة له في أكثر عواصم اليونان ، واشترى بالمال خطيبَين كبيرين من خطباء أثينة : إشين وديناركُ ، للترويج للسياسة المكيدونية ، ولمقاومة ديموستين ، خطيب أثينة المفوَّه . أليس هو القائل ، انه لم يرَ قطّ حصناً – مهما كانت مناعته – إلاّ وتمكن حمار ـ حُمِّلَ ذهباً ـ من اختراقه ....

وكانت النعومة والممالأة من أساليب الخداع (٣) عنده : عرف كيف يصور نفسه تجاه إيزوقراط (+ ٣٣٨ ق . م) كبير أساتذة الخطابة في أثينة ، الذي كان كثير التأثير في الرأي العام في كل بلاد اليونان .

كان هذا المفتون بأمجاد أثينة وعظمتها ، يدعو ، منذ أكثر من ربع قرن ، إلى توحيد قوى اليونان ، وعقد الخناصر للقيام بمحاربة الفرس ، العدوّ الدائم المتربص لليونان . وفَهِمَ فيليبس سريعاً إمكانية جعل إيزوقراط داعية طوعية له ، فصانعه وناغمه في تطلعاته ، فظن الخطيب الساذج أنه وجد في الملك فيليبس ضالته ، وأنه سُعِد بالقائد الأمثل للسير بجحافل اليونان ، باسم أثينة ، في حربها الثأرية ضد الفرس ، فأخذ يُقنع مواطنيه بطيب نيّات العاهل المكيدوني ، وفاته ما كان يبيت هذا المراوغ ، من خطط للسيطرة وفرض زعامته على بلاد الإغريق .

و لم تكن حياة فيليبس الخاصة أكثر أخلاقيةً من سياسته ، فقد عُرف بإدمانه على شرب الخمور حتى السكر والعربدة ، كما اشتهر لهوه بالعبث والتهتك والمجون المشين ....

أما عنوان مجده وموضوع كبير اهتمامه ، وما كان ديدنَه فوق كل انشغالاته ، فهو الجيش (٤) ، وقد تيقن أنه لن يستطيع أن يحقق فتيلاً دونه : عمد أولاً إلى خطب ود الأشراف الإقطاعيين في وطنه ، وتوثيق ولائهم للعرش ، فخلع عليهم لقب " رفقة الملك " وعينهم أعضاء في مجلسه الخاص ، وقواداً وضباطاً في الجيش . وكان فيليبس

أول من أنشأ منهم فرقة خيالة ، تصحبه في السلم ، وتشد إزره في الحرب . وأفرز كوكبة منهم ليكونوا على رأس الكتائب المكيدونية التي أعاد النظر في تنظيمها وتحسين سلاحها ، وأمعن في تمرين فرقها ، فغدت قطب قوته وأداة توسعاته . وان الحروب الطويلة التي قادها ، ضد جيوش اليونان المتمرسة ، طوال ثماني عشرة سنة ، عجمت عودها وأكسبتها صلابة ودراية فنية ، حتى أصبحت سيدة ساحات القتال قرابة قرنين ، فلم تخسر معركة واحدة ، إلى أن غلبتها فرق الرومان في موقعة بيدنا (سنة ١٦٨ ق.م) وإنما جرى ذلك ، لأن الكتائب المكيدونية لم تكن على درجة من المرونة التي امتازت بها فيالق الرومان عندما تكون ساحات القتال وعرة ، كما حدث لها في تلك المعركة .

وكان على رأس هذا الجيش الفريد ، الذي خلّفه فيليبس لابنه ، رهط من القواد المدربين المظفّرين ، نكتفي بذكر الأكثر شهرة بينهم ، مِنَ الذين برّزوا فيما بعد في شتى الميادين زمن الفتح وبعده ، مثل بارْمينيون (parménion) أشهر قواد الإسكندر ، وبرديكاس وانتيباتر (Perdicas , Antipater) اللذين سوف توكل إليهما تباعاً الوصاية على العرش بعد موت الإسكندر ، وأنتيغون (Antigone) مَنْ سيحاول عبثاً ارجاع توحيد الامبراطورية بعد اختفاء الفاتح ، ونيارك (Néarque) أمير البحر ، الذي سيصل مصب الاندوس بمصبات الدجلة والفرات ، وأومين (Eumène) وهو اليوناني الفذ بين هؤلاء المكيدونيين ، والذي ظل فيما بعد وحده أميناً للشرعية والعرش بعد وفاة الفاتح ، وبطليموس وسلوقس ، اللذين سيملكان ، بعد تقسيم الإمبراطورية ، وسوف تدومُ سلالةُ كلٍ منهما ، الأولى في مصر والثانية في سورية حتى الاحتلال الروماني .

إذاً يمكننا القول ، دون مغالاة : إنه لولا هذه التَركة الغنية التي وفرها فيليبس لابنه الإسكندر لصَعُبَ بل لاستحال على الفاتح الكبير أن ينجز ما قام به في الفترة القصيرة التي عاشها للفتح ، وهي أقل من ثلاث عشرة سنة .

هذا قول حق ، ولكنه لا يُعبر إلا عن شِقٍ واحد من الحقيقة . أما الشِقُ الثاني ، وهو الأهم في نظرنا ، فهو جَزْمنا أنه ما كان من الممكن ، مع وجود ذلك الجيش الفريد ، أن تجري الأمور كما عهدناها ، لولا عبقرية الفاتح المتعددة الجوانب ، الحربية والحضارية والإنسانية . كما سنبين في الفصول التالية .

هذا ما ورثه الإسكندر عن أبيه فيليبس ، خَلقاً وخُلقاً ، على أنه لا بد لنا ، لإكمال حصيلة الفاتح الوراثية ، من وصف طبائع أمه أولمبياس ، ومعرفة الجو الذي عاش فيه ، أثناء حداثته في كنفها ، لِفَهْم الأثر الحاسم عليه منها .

أولمبياس والدة الإسكندر :

للمؤرخ الكبير رينه غروسه ، في والدة الإسكندر ،كلمةٌ رائعة حيث قال : " إن المؤرخين الأقدمين كتبوا حياة هذه المرأة بأحرف من نار " ، وليحكم القارئ :

كانت أولمبياس (٥) من أسرة المولوس (Molosses) من مقاطعة إيبير(Epire) ، وهي جزء من ألبانيا اليوم ، ترجع سلالتها إلى أخيل بطل إلياذة هوميروس ، وبها صُعُداً ، حسب التقليد الوثني ، إلى زَفْس ، سيد الآلهة ، وهي ابنة الملك نيوبتوليم (Néoptolème) وشقيقة الإسكندر ، ملك إيبير آنذاك.

أسهب المؤرخون القدماء في ذكر تعلق نساء تلك المقاطعة بالطقوس (٦) الوثنية السرية ، ووصف الشعائر التي كانت تقام إكراماً لأورفه (Orphée) وتعظيماً لديونيسيوس ، إله الخمر والعربدة ، وزعيم أكلة اللحوم النيئة .

كانت عابدات (٧) تلك الجمعيات يتنادين في الأعياد ، وعند حلول المواسم ، لإقامة أغرب ما عُرف في التاريخ القديم من حفلات مشبوهة مريبة ، وكان الهدف من تلك الطقوس الوصول إلى الغيبوبة والشطح بمضغ اللُّبابِ والأعشاب المسكرة والرقص القائم على خلجات الجسم وترجيف الأطراف ، وهز الأعطاف ، في جوٍ عابق بالموسيقى الصاخبة ، المصحوبة بنقرات الطبلة الرتيبة الملحة ، وأنات المزمار المماسة ★ ، مع ما يتخلل ذلك من صرخات وزعقات مُدوية ، وتشنجات لا واعية ، حتى إذا بلغت الهستريا بالجماعة أشدَّها ، نفرت تلك النساء تائهات ، شارداتٍ خابطات في دياميس الظلام ، يناجين ديونيسيوس والأرواح ، إلى أن يصادفن حيواناً ، فيعملن فيه الأظافر تمزيقاً وتقطيعاً بوحشيةٍ وشراسة ، ويرشفن ، وهُنَّ مسعورات ، من دمه ، ويأكلن باهتياج من لحمه ، ثم يهْمُدن منهوكات إلى الصباح .

وكانت أولمبياس ، والدة الإسكندر ، عضواً مرموقاً في تلك الفرق ، وقد اشتهرت ، علاوة على ذلك ، بمداعبة الحيات والأفاعي ، فكانت تلفها حول خصرها ، وتُدخلها بين ضفائر شعرها للإثارة والتهويل ، وأغرب من كل ذلك أنها كانت تصطحبها لترقدَ معها في فراشها .

أما في حياتها الخاصة فقد كانت ، شرسة (٨) ، عارمة النزوات ، عميقة الحقد ، مفرطةً في القساوة ، تجد لذة في تعذيب مَنْ لا يستكين لعجرفتها وطموحها ، أو من تُسول له نفسه مقاومة رغائبها . عُمِّدتْ ، بعد اغتيال الملك فيليبس الذي كان

★ : كناية عن المباضعة

هجرها ، فاحتجزت كليوباتره ، الملكة الجديدة التي خلّفتها ، مع ابنتها الصغيرة أوروبا ، وبعد التعذيب والتشويه وقتل الطفلة ، على مـرأى مـن والدتهـا ، أمـرت أولمبيـاس الأمّ المسكينة أن تشنق نفسها ، ففعلت تخلصاً من العذابات التي كانت تنتظرها .

فمما لا شك فيه إذاً ، أن بعض التقلقل ، الذي لوحظ في مزاج الإسكندر ، وأعمال القسوة التي سجلها عليه التاريخ ، وقد بدت واضحـة في السنين الأخيرة مـن حياتـه ، ترجع إلى تلك التَركة المثقلة من طباع والدته الشاذة ، وكان من حسن حـظ الفـاتح أن فكّر والده ، الملك فيليبس ، بدعوة أرسطو لتعديل طباع ابنه ، وتخفيـف حمـل وراثتـه ، وتثقيفه ثقافة عالية ، وكان ذلك من سنة ٣٤٣ إلى ٣٤٠ ق.م .

- الحواشي :

١ - Laurand et Lauras : Manuel des études grecques et latines vol .1 Grece 14 ième éd . 1970 (Picard) P . 40 Seq .

- Dictionnaire de la Civilisation grecque : S.V. PhIlippe II éd . Hazan 1966

٢ - راجع كيف استغل الحجج الدينية لتحقيق مطامعه التوسعية ، المراجع نفسها مـع الخرائط .

id . Laurand et Lauras P. 42 - 44

٣ - P . Levêque : l' aventure grecque (Colin) P . 332seq . 1964 .

٤ - M. de Durand : Précis de l' Histoire grecque (cerf)

٥ - P . 198 seq . 1991

- P . Levêque المرجع نفسه صفحة ٣٣٩

٦ - W.K.C. Guthrie : les Grecs et leurs dieux (Payot 1956) P . 169 note 2

- W • K • C . Guthrie : Orphée et la religion grecque

خاصة صفحة ١٦٩ وما بعدها (Payot 1956) Passim .

٧ - لا شيء يضاهي ما أتى به أوريبيد في مأساته الشهيرة من وصف دقيـق لعـابدات باخوس وطقوسها المريبة راجع : Euripides : Les Bacchantes .

٨ - لقد بلغت شراسة أولمبياس ، والدة الإسكندر - حداً عرّضها لتهمـة الضلـوع في اغتيال زوجها الذي كان قد هجرها وتزوج بعدها ، كما ورد في المتن .

cf . P. Levêque idem P . 333

أرسطو (+٣٢٢)

تلميذ أفلاطون (+٣٤٧) وأستاذ الإسكندر الكبير (+٣٢٣)

وُلد أرسطو سنة ٣٨٤ ق.م في ستاجير (ستافرو اليوم) ، وهي مستعمرة يونانية تقع شمالي جبل اتوس ، شمالي بحر إيجه . كان أبوه نيكوماخ طبيباً شهيراً ، وضع كتباً طبيّة وكتاباً في الطبيعيات (١) وذاع صيته لدواء من تركيبه ، سوف يذكره جالينوس (١٣١ - ٢٠٠ ب.م) ويمدح نجاحه ، بعد خمسة قرون . وكان علاوة على ذلك ، طبيب البلاط المكيدوني ، أقلّه على زمن الملك امينتاس الثاني (٣٩٨ ق.م.) .

ويخبرنا ديوجين لايرس(٢) أن جدّ أرسطو كان طبيباً أيضاً وان سلالته تمتُّ إلى اسقولاب ، إله الطب عند اليونان ، وهو زعم قالت به بعض الأسر التي عُرفت بالتطبيب ، تيمّناً ، ومدعاة للشهرة . ومهما يكن من هذا الادعاء فقد كان الطب ، اكثر من غيره من بقية المهن ، محصوراً ومتوارثاً ، كابراً عن كابر ، بين أعضاءٍ بعض الأسر في تلك العصور .

والسؤال المهم الذي يتبادر ، عفوياً ، إلى ذهننا هو مدى تأثير الوالد الطبيب في ابنه الفيلسوف .

هل كان أرسطو طبيباً ؟

لقد اختلف المؤرخون في تقدير هذا التأثير ، ولسوف يبقون غير متفقين في الرأي (٣) أمام عجزهم عن تعيين سنة وفاة والد أرسطو .

إن الأمر عندنا يربو في أهميته على تأثير طبيب ، خلال مهنته ، في ابنه ، لأننا نعتقد أن تعلّم أرسطو الطب ، عن أبيه أو عن غيره ، من أهم مقومات مذهبه العتيد المعارض مذهب أفلاطون ، والسبب الحاسم لصوغ منهجيته وأسلوب تعليمه ونمط تأليفه . وإننا نحاول ، قدر المستطاع ، إلقاء بعض الأضواء على هذا الموضوع معتمدين الثوابت التالية :

١- يُجمع الأقدمون على القول أن نيكوماخ ، والد أرسطو ، كان عضواً في جمعية أسقولاب الطبية ، وهو أمر أكيد قطعاً ، لتوافق الشواهد الكثيرة عليه ، ولما ألمحنا إليه من ادعاء ، عن سلالة والد الستاجيري وعن مؤلفاته وشهرته .

٢- إن محتويات نص قَسَمَ الاسقولابيين لم يُستغل إلى اليوم ، على ما نعلم ، استغلالاً كافياً ، ففيه عناصر تكشف النقاب ، ولو جزئياً ، عن سني يفاعة أرسطو قبل هبوطه الأول إلى أثينة .

إن القَسمَ الطبي الذي ننوّه عنه (٤) أطول بكثير من اليمين التي لا يزال الأطباء المتخرجون ، إلى اليوم ، يقسمون بها ، فقد كان يحوي عدداً من الواجبات تهافت أكثرها مع مرور الزمن . زد على ذلك أنه كان محاطاً بمهابة دينية ، وسرية تلقينية ، وحرمة بلغت حدّ التقديس .

يبدأ المريد القَسَم بابتهال إلى أبولون الطبيب ، واسقولاب ، وبقية الآلهة والالهات ويتخذهم شهوداً على اليمين التي خطها بيده ، وينتهي باستنزال اللعنة ، إذا ما حنث بالقَسَم . وإننا نكتفي من النص بذكر أهم الواجبات التي تمتُّ إلى موضوعنا بصلة : يتعهد المريد أن يجعل معلمه بمقام والده ، متقاسماً معه مقتنياته ومعيلاً إياه عند حاجته ، وأن يعتبر أبناء معلمه بمنزلة إخوة له ، كما يلزم نفسه بأن يورث صناعة الطب أبناءه وأبناء معلمه ، دون جُعالة أو شرط ، وان يحبس تعليم الطب على أعضاء الجمعية الذين اقسموا اليمين ، حسب شريعة الطب ، وألا يكشفه لأحد غيرهم .

٣ - ذكر ديوجين لايرس لأرسطو ، في لائحة مؤلفاته ، كتاباً " في الطب " بجزأين (٥) لم يصل إلينا .

٤ - يقول فلوتارخ في حياة الإسكندر " إني اعتقد أن حب الإسكندر الطب مردُّه إلى أرسطو اكثر من غيره . ولم تكن معرفة الفاتح الطب مقتصرة على المبادئ ، بل كان يداوي أصدقاءه في مرضهم ويرشدهم إلى طرائق المعالجة والحمية كما هو واضح في رسائله " (٦) . ومعروف أن الإسكندر بعد تتلمذه لأرسطو ، أُخذ بشؤون الإدارة وأمور الحرب ثم الفتح ، ولم يتفرّغ للدراسة ، بعد أرسطو ، على يد أحد غيره .

فبناء على ما تقدم ، يمكننا القول إن أرسطو ترعرع في جو أسرة زاولت الطب منذ أمد بعيد ، وألفَ منذ نعومة أظفاره تركيب الأدوية ، إذ كان من المعتمد في تلك العصور ، أن الطبيب المداوي يعالج المريض ويزوّده ، أكثر الأحيان ، بدواء من تركيبه ، يوازن فيه مزج عناصره . إذاً لا يُستبعد البتة أن أرسطو كان أيضاً من جمعية

الاسقولابيين الطبية ، تعلّمَ ، أية كانت سنة وفاة أبيه ، صنعةَ الطب ، ولم يمارسها ، على ما نعلم ، وألّف فيها ، وعلّمها ، على الأقل الإسكندر تلميذه .

إننا نكتفي بذكر اثنين من المؤرخين الكُثُر الذين اعتمدناهم في تأكيدنا أن أرسطو علّم ، فيما علّم ، الإسكندر الطب : الأول فلوتارخ وقد مرّ ذكره والثاني راده . ويعتبر هذا الأخير واحداً من أحسن المتعمقين في حياة الفاتح الكبير ، فقد مهّد لكتابه ، حياة الإسكندر ، بأبحاث علمية مستفيضة شملت المعضلات المتعلقة بموضوعه . على انه جاء عند سرتون ، أحد كبار مؤرخي العلم المعاصرين ، القول على عكس ذلك ، مستنداً ، على ما يبدو ، إلى مادُس على أرسطو من مؤلفات طبية ثبت تزويرها . أو إلى ما وجد عند الستاجيري من أخطاء تشريحية وفيزيولوجية تتعلق بجسم الإنسان .

إننا لا نعتقد أن هذه المآخذ تبطل ما ذهبنا إليه ، إذ العادة ألا ينحل كاتب مؤلفاً إلا إذا أمكن أن يكون صاحبه . ثم هل لنا أن نلفت النظر إلى أن الطب القديم كان سريرياً " clinique " ، كما نقول اليوم ، وكانت فيه معلومات الفسلجة والتشريح على درجة كبيرة من البساطة والسذاجة ، حتى عدت هذه الظاهرة اكبر نقطة ضعف فيه ، غير مستثنين مدرستَي كنيد وكوس الأكثر شهرة ؟

إن أطباء تلك العصور صرفوا جلّ اهتمامهم إلى الأمراض والجروح والبثور وتجبير الكسور ، لا سلاح لهم سوى بعض الأدوات البسيطة مع حواسهم من نظر وسمع وحس وشم وذوق . إن طب عصر أرسطو طب تلقيني عملي قبل كل شيء ، يقوم على الملاحظة والتمرس ، تُجَوِّده الحذاقة ويُغنيه الحدس ، لا تسبقه دروس تشريحية أو فيزيولوجية (٧) ، كما ألفنا اليوم . وسنرى كم كان لمدرسة الإسكندرية من فضل على نهضة الطب الباهرة ، في العصر الهلنستي ، لما أحدثته من تغيير في أساليب تدريسه اعتمدته ممارسةً من أساليب التشريح .

ورغماً عن كل ذلك ، لا يمكننا أن نُغفل ما كان للمدرسة الابقراطية من تأثير في مذهب أرسطو العتيد ، ولسنا بحاجة إلى تفصيل ما بلغه الطب على يد أبقراط (٤٦٠ ، ٣٧٧) من اعتماد الملاحظة في تشخيص المرض وتتبع مراحله بدأب المراقبة ، أو أن نَصِفَ ما تبع تأسيسَ أبي الطب معهده الشهير (٨) ، في وطنه كوس ، ما بين ٤٢٥ و ٤٢٠ ، من ذيوع منهجه ، واتباع أسلوبه في مختلف المدارس الابقراطية ، وقد انتشرت في كلٍّ من تراقيا ومكيدونية وتساليا ، أي في تلك المناطق بالذات التي لم يفارقها أرسطو ، قبل اقترابه من الثامنة عشرة من عمره ، عند توجهه إلى أثينة .

إن أرسطو مدين في مذهبه ، عدا ما حمله في تراثه ، وما حذا به حذو الفلاسفة الطبيعيين الأولين ، لتلك النزعة الأبقراطية الطبية ، من وجوب الأخذ بالواقع ، والخضوع لمعطيات الحس .ولنا أكبر تأكيد فيما لاحظه بعض العلماء الذين أنعموا النظر طويلاً في مؤلفات الستاجيري ، من كثرة الأمثلة عنده ، التي تنطلق من الطب ، وشؤون الصحة ، والاعتدال ، والتوازن (بين أخلاط البدن ، حسب الطب القديم) ، حتى يمكننا أن ننعت ميله هذا بما نسميه اليوم " بالانحراف المهني " إذ تخطى نمطه هذا كتبه في العلوم الطبيعية إلى غيرها من مؤلفاته ، فقد لاحظ اوبونه (Aubonnet) (٩) أن أسلوب أرسطو ، في كتاب السياسة ، يحوي ما نشير إليه ، فهو يبدأ كتابه بقوله :" إننا نرى " ويطبق ، عند وصفه نمو المدينة ، ما يسمى اليوم " بالطريقة الوراثية " المعروفة في علم الطب .

أرسطو فيلسوف الواقع والمحسوس :

وهبط أرسطو إلى أثينة وقد اشرف على الثامنة عشرة من عمره ، وقيل أنه تردد بعض الوقت على إيزوقراط ، معلم الخطابة الأشهر آنذاك ، قبل التحاقه بمدرسة أفلاطون وبقائه على اتصال بها طوال عشرين عاماً بين تَلْمذة وتعليم . والأرجح انه علم في الأكاديمية الخطابة ، ولربما المنطق والعلوم الطبيعية .

يقول روس (Ross) : " كانت مدارس الفلسفة في العصر القديم هيئات تضم فئة يجمعهم فكر مشترك ، طبق نظرات أساسية واحدة ، وكان باستطاعة كل واحد أن يزاول أبحاثه الخاصة باستقلال نسبي " (١٠) . وكانت الأكاديمية قائمة منذ عشرين سنة عندما دخلها أرسطو (٣٦٧) وهي في أوج مجدها وازدهارها .

كانت الأكاديمية معهد دراسات وأبحاث اكثر منها مدرسة تعليم ، لها نظامها وقاعاتها ومكتبتها وغرف لسكنى الطلاب . واشتهرت بتركيز تعليمها على الرياضيات ، قبل كل شيء ، والفلسفة المُثلية والسياسية ، مع تطلع كبير إلى شؤون الحكم ، والسعي إلى تزويد طلابها بكل ما من شأنه أن يساعدهم ، مستقبلاً ، على حسن إدارة أمور الدولة .

وكان أفلاطون قد تجاوز الستين من عمره عندما لقي أرسطو ، ونكاد لا نعرف سوى النذر القليل من التقاء جبّارَيْ الفلسفة اليونانية .

وأُعجب أفلاطون بتلميذه ، وأكبرَ فيه حدة ذكائه وسرعة خاطره واتساع معلوماته وحبه المفرط لكل علم ومعرفة ، ولكثرة انكبابه على المطالعة وجمع المعلومات لقّبه " بالقرّاء وبالعقل " .

ويحسن بنا أن نذكر هنا أن أفلاطون كان قد بدأ إنتاجه الفكري بكتابة الشعر ، ويقال أنه أحرق قصائده وتمثيلياته (١١) عندما تعرف على سقراط (سنة ٤٠٧) ، غير أنه بقي محتفظاً بنزعته الشعرية ، بعد أن أوقف نفسه على الفلسفة ، يستعين بالاستعارات والتشابيه والرموز الميثولوجية للإفصاح عن مكنونات تعليمه .

وإذا كان استعماله لها من لواحق شاعريته في محاوراته عامة ، إلا أنه غالى فيها في آخر حياته ، كما هو ظاهر في حوار " طيماوس " (١٢) .

و لم يكن إعجاب أرسطو بمعلمه أقل من تقدير هذا له . وطبيعي ألا يكون الاثنان قد وعيا بعدُ الهوةَ السحيقة التي تفصل بينهما ، على مستوى المزاج الفكري .

واندفع أرسطو الشاب في الأخذ عن أفلاطون نظرياته في المُثُل وتطبيقاتها الرياضية لمعرفة المحسوسات وشرحها . وكان ولا شك نزاع طويل امتد عدة سنوات ، في أعماق نفس سليل التطبيب ، تجاه مثالية الأكاديمية ، على أن أرسطو تمكن ، خلال هذه الفترة ، من كبت ميوله ، فحاكى معلمه ، أكثر من مرة ، في المواضيع التي نشرها في شبابه و لم تصلنا ، فحذا حذوه في العناوين ، وكثيراً ما تبنّى أسلوب الحوار الأفلاطوني .

وكان لا بد ، في آخر المخاض ، من أن يطفو التباين الجذري بين الفكرين . وكانت أول بوادر الخلاف في كتاب الستاجيري " الحض على الفلسفة " عند ذكر مقومات الحياة المثلى ؛ فبينما كان أفلاطون قد جعلها تتوخى الجمع بين النظر والسياسة ، اعتبر أرسطو أن الحياة التأملية وحدها هي اللائقة بالإنسان .

ومن أواخر ما نشر أرسطو ، قبل ترك الأكاديمية ، رسالتان " في الخير " و " في المُثُل " حيث انتقد صراحة نظرية المُثُل الأفلاطونية . وقيل أن أفلاطون عندما بلغه الأمر قال : " ما بال أرسطو يركلني ، كما يفعل المهر بأُمه ؟ " .

كان محور جوهر الخلاف بين أفلاطون وأرسطو يدور حول سبل التوصل إلى المعرفة والعلم . وكأنَّ الفكرَ البشري ، في هذا الموضوع الجلل ، بدا معلقاً ، وعلى مفترق الطريق بين العملاقين : فإما أن يعتمد المُثُل ، فتُفسر الموجودات تفسيراً هندسياً ، وإما أن ينطلق من المحسوسات فيكفل للمستقبل أُسساً ثابتة أكيدة . وإذا كنا نرى أفلاطون

في حوار " طيماوس " ، وهو آخر كتاب استطاع أن يتمّه قبل موته ، يتحايل في رد العناصر إلى أشكال هندسية ، من هرمية ، وهرمية مزدوجة ، ومكعبة ، وذات الثمانية أو العشرين وجهاً ، حتى أن برونشويك (Brunschvicg) وصف الكتاب بأنه " رواية في الطبيعيات " ، فقد اتجه أرسطو ، بشجبه المثل الأفلاطونية ، إلى ثوابت الواقع ومعطيات الحواس ، مشيحاً بوجهه عن الوهم والخيال ...

وكان ذلك من حسن حظ العصر الهلنستي ومستقبل العلم ....

كان أرسطو يتبرّم من مغالاة الأكاديمية في تعليم الرياضيات ، عند دراسة الفلسفة ، حتى قال " لكأنّ الرياضيات أصبحت كل الفلسفة " على حين كان لا يرى فيها سوى وسيلة للتحقيق في العلوم ، فيقول : " إذا كان لا بد من تعليم الرياضيات فلخدمة بقية فروع المعرفة " .

أما أفلاطون فكان يعتبر الرياضيات وكأنها مقفز للوصول إلى المُثُل ، موضوع العلم الوحيد عنده ، دون الركون إلى المحسوس المتغير ؛ ومن هنا كانت المثل تُشرح بالرياضيات وتعتبر العمود الفقري لكل مذهبه ، بينما كانت نزعة أرسطو التحديق بظاهرات الطبيعة ، من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، للكشف عما تخبئه من ثوابت في مقومات تكوينها ، وخصائص سلوكها ، وأساليب تغيراتها ، يحصيها ويصنّفها ويستخلص منها القوانين التي تتحكّم فيها . والمعرفة عنده تعتمد التجريد الذي يقوم به الفكر للبلوغ ، عبر الظاهرات والمفاهيم ، إلى الصورة ، إذ أن الإحساس ، بنظر الستاجيري ، ليس سوى " امتصاص الصوَر من المادة " ؛ ولا بد من الانطلاق من المحسوسات للوصول إلى العلم وكما يقول : " كل إنسان يستطيع أن يفكر عندما يشاء ، ولكن الإحساس لا يتعلق به ، إذ لا بد لحصوله من وجود المحسوس " ، وكل أسلوب غيره لا يوصل إلا إلى الأوهام ، ويضيف " نحن مع الحقيقة عندما نجمع ما هو مجموع في الواقع ، ونحن مخطئون ، في عكس ذلك " .

وسوف يتعرّض أرسطو ، عبر مؤلفاته ، أكثر من مرة ، لنظرية المُثُل ، فيكون طوراً قاسياً في انتقاد معلمه : " إن القول إن المثل نماذج ، وإن كل ما تَبَقى ينتمي إليها ، قول لا يعني شيئاً ، وهو كناية عن استعارة شعرية " ، ويكون تارة رقيقاً ناعماً ومتحفظاً ، كما يبدو من مقطع شهير ورد في مستهلّ " أخلاق نيكوماخ " ، عند بحثه عن الخير ، إذ يقول " من الصعب البحث في مثلِ هذا الموضوع ، لأن الذين أقحموا فيه مذهب المُثُل أصدقاء لنا ، ولكن من المسلم به ، وهو ما نعتبره محتماً علينا ، ولا سيما عند

الفلاسفة ، أن نضحي ، حتى بعواطفنا الشخصية ، إذا ما أردنا الحفاظ على الحقيقة : إن كلاً من الحقيقة والصداقة عزيز علينا ، ولكن من واجبنا المقدس أن نفضل الحقيقة " .

وفي السنين التي بقي خلالها أرسطو على اتصال بالأكاديمية ، قامت أواصر الصداقة بينه وبين اكبر تلامذة أفلاطون في ذلك العهد ، نكتفي بذكر ثلاثة منهم :

أودكس من كنيد (٤٠٩ ـ ٣٥٦) من كبار فلكيي عصره ؛ كان يقول بمركزية الأرض وقد اعتمد أرسطو نظريته في مؤلفاته .

هيراقليط البنطي (٣٩٠ ـ ٣١٠) ونظريته في علم الفلك ، عكس ما قاله زميله اودكس ، لذا يعتبر من رواد آراء كوبرنيك في العلم القديم . أنشأ مدرسة في وطنه ، نالت شهرة عظيمة ، دون أن يستطيع أن يغير التيار السائد آنذاك في علم الفلك .

كسينوقراط الخلكيدوني (٣٩٦ ـ ٣١٥) وهوالثاني في رئاسة الأكاديمية بعد أفلاطون . بقي في إدارتها ردحاً من الزمن أقلّه ربع قرن . فوجهها اتجاهاً فيثاغورياً متزايداً .

وقبيل وفاة أفلاطون (٣٤٧) ترك أرسطو الأكاديمية مع صديقه كسينوقراط المذكور ، وذهب إلى أسوس حيث أقام ثلاث سنوات (٣٤٨ ـ ٣٤٥) ثم انتقل إلى ميتيلين واستقرّ فيها سنتين (٣٤٥ ـ ٣٤٤) . ولسنا نغالي إذا قلنا : إن هذه السنوات الخمس كانت حاسمة التأثير في تفكير أرسطو ، إذ تمت فيها اللحمة بين تفكيره وأعماق نزعات وراثته ، فأكملت الانقلاب الذي ظهرت بوادره ، في آخر سني مكوثه في الأكاديمية . وفي هاتين المدينتين أنشأ مدرستين ظهرتا وكأنهما فرعان للأكاديمية ، بينما كانتا ، في واقع الحال ، منبراً عبّر بواسطته عن التغير الجذري الذي تمخض به طويلاً .

وفي أسوس ، وخاصة في ميتيلين ، وقد ابتعد عن جو الأكاديمية العابق بنظريات المُثُل المفارقة ، دأب يحتك بالواقع ويلمس مظاهر الحياة الطبيعية على حقيقتها وماديتها . وكان ممن أخذ يتردد على دروسه هرمياس ، حاكم أطارنة ، وهو عبد في الأصل ، نال حظوة سيده الحاكم فأعتقه ، وبفضل ذكائه ومرونته وحسن إدارته ، خلف سيده ، فبزّه ، ومنحه الفرس لقب أمير ، فبسط في رقعة ممتلكاته ، ووسع أعماله باستغلال أعم للمناجم ، وأنشأ صناعات جديدة ، فأثرى أيما إثراء . وأبى طموحه إلا أن يصبح ذلك الحاكم المستنير بآراء الفلاسفة ليبلغ بإمارته حدود الكمال . واتصل بالأكاديمية (١٣)

فبعث له أفلاطون رسالة [١٤] كانت شبه دستور ، فصّل فيها ، وعيّن رئيسُ الأكاديمية دورَ كلٍّ من الحاكم والفيلسوف .

وعقدت صداقة متينة بين أرسطو وهرمياس .وإذا كان الحاكم قد استفاد من أفكار الفيلسوف ، فقد حصل الفيلسوف ، بالمقابل ، على ما فاته في مدرسة أفلاطون من نظرة واقعية واطّلاع على التطبيقات العملية فيما يتعلق بالملكية والعبودية والاستثمار والاتجار والصناعات وإدارة المال والأساليب المعتمدة في العلاقات الخارجية مع غير اليونان .

وفي ميتيلين ، أقام أرسطو عند تيوفراست ، رفيقه في الأكاديمية ، وهو عالم موسوعي امتاز بميله إلى العلوم الطبيعية ، لا سيما في علم النبات ، عدا إبداعه في الأخلاقيات ، وسيكون ، كما هو معلوم أول من سيخلف أرسطو في إدارة الليقون (Lycée) وكان شغل أرسطو الشاغل ، في تلك الحقبة ، إرساء دعائم أبحاثه في علم الأحياء ، من نبات وحيوان ، وجمع العينات وتكريس الملاحظات لمؤلفاته الأخرى . واستعان الستاجيري كعادته بتلامذته [١٥] على جمع نماذج للنباتات والحيوانات لإكمال دراساته . وكان يقضي الساعات الطوال في تشريح ما يُجمع ، أمام طلابه ، قبل القيام بوصفها ، وتعيين أنواعها وفصائلها .وقد لاحظ أصحاب الاختصاص في هذه العلوم أن عدداً كبيراً من الحيوانات والنباتات التي ورد ذكرها وتفصيلها في مؤلفاته توجد في منطقة طروادة وجزيرة لزبوس والبحار القريبة منها . وفي هذه الفترة بدأ الستاجيري ، على ما يظهر ، بتدوين بعض أقسام كتابه " في نشوء الحيوان " .

أستاذ الإسكندر :

واستدعى فيلبس الثاني ، ملك مكيدونية ، أرسطو لا كمال تحصيل ابنه الإسكندر .

كان على أرسطو أن يجابه صبياً هو ما بين الثالثة والرابعة عشر من عمره ، شديد الذكاء ، ناضجاً قبل أوانه ، فخوراً بمحتِده ، طموحاً في تصوراته ، شغوفاً بالمجد حتى الهوس ، صعباً في مراسه ، لا يتحمل الإكراه على أمر ، ومولعاً بممارسة كل رياضة عنيفة ، وقد لاقى في تربيته الأولى قدراً من الاخشيشان ، على يد لاونيداس [١٦] قريب أولمبياس ، والدة الإسكندر .

وهذه التربية الأولى المتزمتة كان لها التأثير الكبير في حياة الإسكندر ، أقله في أول سني ملكه . ففي أوائل الفتح ، أرادت أدا (Ada) ، ملكة كاريا ، التي أرجع

الإسكندر إليها عرش آبائها ، أن تظهر لـه امتنانهـا ، فأرسـلت إليـه مـآكل فـاخرة مـع احسن طباخيها ، فأبلغها الإسكندر أنه لا يحتـاج إلى مثـل تلـك النوافـل ، لأن مربّيـه ، لاونيداس ، عوّده على وجبتين من الطعام البسيط في كل يوم .

كانت رغبة الملك فيلبس ولا شك ، أن يجعل تحصيل ولي العهد كاملاً على يد أستاذ أكثر انفتاحاً وأوسع شمولاً في معارفه ، خبيرٍ في الأخلاقيات والأحكـام ؛ علـى أنـه لا يُستبعد أبداً أن فيلبس كان يهدف ، علاوة على ذلك ، أن يبعد ابنه عن تسلط أولمبياس وتحكمهـا في تنشئة الإسـكندر علـى ممارسـاتها الدينيـة القائمـة علـى غرائـب الطقـوس المهوسة .

ويخبرنا ديموستين ، خصم مكيدونية اللدود ، وقد قاد أكثر من مرة وفود أثينة الرسمية إلى عاصمة مكيدونية ، ومكث فيها فترات بعضها طويل ، أن الإسـكندر كـان يقضـي أوقاته بين الدراسة وتفحص أحشاء الأضاحي . إنه ، مع وجوب التحفـظ تجـاه شـهادة صادرة عن عدو ، مـع الإشـارة إلى دأب ديموسـتين في تحقـير الإسـكندر (وقـد وصفـه بالبلاهة) لا يمكننا أن نطرح كلياً شهادة الخطيب الكبير ، مهما حوت من مغالاة ، بل نعتبرها دليلاً للتأثير المريب الذي كان لوالدته عليه .

ولئلا تعيق جلَبة القصر ولغط البلاط سكينة الدراسة ، اختار فيلبـس بقعـة " ميـازه " (Mièza) الغنّاء ، وهي منعزلة وغير بعيدة عن العاصمة ، وضـم إلى ابنـه بعـض أولاد أشراف مكدونية (١٧) ليتبعوا ، مع الإسكندر ، دروس أرسطو .

كانت إذاً مهمة أرسطو شاقة عسيرة ، غير أنه اهتدى إلى منفذ بلغ به قلب تلميـذه ، مما رآه عنده من انفتاح ، حتى النهم ، لكل علم ومعرفة ، فاستغل هذه الناحية استغلالاً حسناً . وسرعان ما خلب الأستاذ لبّ الأمـير ، لِسـعة علمـه ودقـة ملاحظاتـه وطرافـة تعليمه ، ولا سيما عندما بدأ المعلم يُطلـع تلميـذه علـى مكـامن روائـع الإليـاذة (١٨) . وكيف لا يفتن الإسـكندر بالإليـاذة وهـي ملحمـة أخيـل ، جـد والدتـه ، علـى اعتقـاد سلالته ؟

وشمل تحصيل الإسـكندر ، علـى يـد أرسـطو ، الشـعر والآداب والخطابـة والسياسـة والتاريخ والجغرافيا ومعلومات عن الطب والتطبيـب . واسـتغرق التعليـم الجـدي ثـلاث سنوات متوالية تبعتها فترات متقطعة بقي أرسطو خلالهـا – مـع تـردده إلى " سـتاجير " وطنه – إلى جانب تلميذه .

وإذ تمّ ولي العهد السادسة عشرة من عمره ، اختاره والده للنيابة عنه في الحكم ، أثناء غيابه في حربه ضد بيزنطية ، وسلّمه الأختام . وبينما كان الملك منشغلاً على ضفاف البوسفور ، ثارت بعض القبائل في تراقيا ، فأسرع الإسكندر وأخضعها .

وارتاح فيليبس الملك إلى تمرّس ابنه الإسكندر ، وقد رآه مجدياً ، في الحكم والقتال ، فعهد إليه قيادة الجناح الأيسر في موقعة خيرونه الفاصلة الشهيرة (آب ٣٣٨) فلمع فيها نجمه أيّ لمعان ، وكان قد أتم الثامنة عشرة من عمره . وبعد سنتين ، عقب اغتيال الوالد (٣٣٦) ، اعتلى الإسكندر العرش ، وإذ اقترب وقت توجه الفاتح إلى الشرق (ربيع ٣٣٤) يمّم أرسطو شطر أثينة ، حيث أنشأ مدرسة الليقيون ، وكان قد ناهز الخمسين من عمره .

هل نجح أرسطو في تربية الإسكندر ؟

وقبل أن نتفرغ لأمور الليقيون ، لا بد لنا من الجواب على سؤال يخطر على البال : هل نجح أرسطو في تربية الإسكندر ؟ وإلى أي مدى كان تأثيره فيه ؟

أراد أرسطو أن يشذّب طباع الإسكندر الصعبة ما أمكنه ، فسعى قبل كل شيء إلى تمرينه على كبح نزواته العارمة وعلى إخضاع أعماله للعقل وجعل الاعتدال رائده في كل شيء . وبوسعنا أن نؤكد أن تأثير المعلم في تلميذه كان عميقاً في حقلَيْ الأخلاق والثقافة ، والأدلة كثيرة على ذلك ، وكلها تشير إلى عرفان كبير وتقدير عميق ، أعلنهما الإسكندر مراراً ، ورافقاه طوال حياته .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، لا مناص من القول إن هذا التأثير ، فيما يتعلق بضبط النفس والاعتدال ، خفّ ثم تقلص مع مرور الزمن لأسباب عديدة منها الإرهاق نتيجة الجهود الجبارة والمتواصلة ، خلال السنوات العشر ، التي بذلها الإسكندر في الإدارة والحروب . فمؤرّخو الفاتح كلهم متفقون على أن الإسكندر كان يجمع بين يديه الإدارة والقيادة ، وقد أشادوا بمقدرته الخارقة على العمل دون كلل أو ملل ؛ ولولا شبابه النضر وصحته المتينة وحيويته المتدفقة وحماسته المنقطعة النظير ، وتطلعه إلى مُثُل عليا كانت عنده أقوى من العقيدة ، لما استطاع الصمود ، طوال تلك السنين المضنية ، إذ دأب على الدوام أن يحتفظ لنفسه بأصعب المهام وأخطر المراكز . زد على ذلك تململ الجيش والمؤامرات (١٩) التي تعرّض لها والندم العميق الذي استحوذ عليه بعد ارتكابه أعمال عنف مقيتة ؛ كل ذلك أدمى قلبه ووتر أعصابه وجعله يسرف ، بعد

اعتدال ، في شرب الخمر ، ولا سيما في السنوات الخمس الأخيرة من حياته . على أنه ،كما يؤكد لنا فلوتارخ ، وهو على بيّنة من حياة أعاظم الرجال " لم يكن بمقدور الخمر أو النوم أو اللهو أو الحب ، إعاقته عما كان متوجباً عليه من أعباء الدولة ، كما قد حصل للكثيرين الذين ركبوا مركبه " (٢٠) .

أما إعجاب الإسكندر بالحضارة اليونانية ، وتمسكه بثقافتها وعلومها ، وسعيه لنشرها في كل البلاد المفتوحة ، فبقيت من ثوابت أهدافه . وإن حبه للعلم ، الذي نهله من معينه الصافي ، جعله يحيط نفسه بالفلاسفة والعلماء والمؤرخين والشعراء والخبراء في شتى المعارف البشرية . وإذا كان الفتح قد اتخذ ، في بعض مظاهره ، صفات البعثة العلمية ، فالفضل راجع إلى أرسطو الذي وسّع أُفق تفكير تلميذه .

فهو الذي طلب من الفاتح ، عند دخوله مصر ، أن يجرّد حملة لمعرفة سبب فيضان النيل السنوي . وثابر الإسكندر على هذا النحو ، فانتدب أسطولاً للبحث عن منافذ لبحر قزوين ، وحقق استكشاف الساحل الممتد من دلتا الهندوس إلى مصبات دجلة والفرات . وقبيل وفاته ، أراد إكمال ما بدأ به ، حول سواحل شبه جزيرة العرب ، لربط العراق بمصر ، وكان موته عشية اليوم الذي كان على الأسطول البدء برحلته .

وبقي الإسكندر ، رغم مشاغله ، يتفرّغ للمطالعة كلما سنحت له الفرصة . وكانت نسخة الإلياذة ، التي ضبطها وعلّق عليها أرسطو ، لا تفارقه .وعندما كان على مشارف السند ، بعث الفاتح إلى هربال ، وكيل المالية في بابل ، يطلب إليه تزويده بمسرحيات إيشيل وسوفوكلس وأوروبيد وغيرها من الكتب .

فهل غريب ، بعد كل ما ذُكر ، أن يخدم الإسكندر العلم في شخص أستاذه المفضل ، فيخصص له ٨٠٠ وزنة ، اقتطعت من غنائم الشرق ، على ما يخبرنا بلين (٢١) ، لمساعدته في بحوثه العلمية ، ويجرد له رجالاً لجمع النماذج الحيوانية والنباتية والمعدنية في البلاد المفتوحة ، أو أن يرسل إليه كاليستين ، نسيبه ، حصيلة رصد ١٢٠٠ سنة ، كانت عند الفلكيين البابليين ؟

ودامت المراسلة متواصلة مابين الإسكندر وأرسطو ، قرابة عشر سنوات ، قبل تلبّد سماء المودة بينهما بالغيوم ، على أن الأمر لم يصل البتة إلى القطيعة بينهما أو الإساءة .

قائد لليونان وسيّد على البرابرة :

إن كل ظواهر الأحداث توحي أن كاليستين ـ ابن أخت أرسطو ـ كان سبب فتور المودة بين الستاجيري والفاتح ، على أن القضية تتجاوز في مكنوناتها العلاقات الشخصية بين ملك وأحد أفراد حاشيته ، إذ تتناول أسس الحكم الذي أراده الإسكندر ، والنهج الذي صمم السير بموجبه ؛ فلا بد لنا ، والحال هذه ، أن نكشف بعض جوانب الاختلاف المتعلقة بتعليم أرسطو ، تاركين البقية إلى فصل مقبل عن الإسكندر .

من الأمور المسلّم بها والتي لا يمكن أن يرقى إليها الشك أو أن توضع موضع جدل ، اعتقاد اليونانيين بامتياز عنصرهم عن البرابرة ، أي غير اليونانيين ، من فرس وغيرهم : فأروبيد (+ ٤٠٦ ق.م.) يقول : " إن البرابرة كلهم عبيد ، ما عدا واحداً منهم (أي من يرأسهم) " (٢٢) ؛ وأفلاطون (+٣٤٨ ق.م.) يشيد بقرابة اليونان فيما بينهم ويؤكد الاختلاف في الجنس والدم مع البرابرة ، مضيفاً أن اليوناني والبربري عدوّان بالطبيعة ؛ واستمر إيزوقراط (+ ٣٣٨ ق.م.) ، قرابة نصف قرن ، يردد بلا ملل دعوته (٢٣) إلى تحقيق الاتفاق بين اليونان وشن الحرب على البرابرة أي الفرس ؛ وديموستين (٣٢٢ +) كان يضفي على هذه الحرب صفة قدسية ؛ أما أرسطو فقد تناول الموضوع بالتفصيل في كتابه " السياسة " ، وأراد ، كعادته ، أن يسند رأيه إلى مبادئ يبرر على أساسها استنتاجاته :

قسّمَ الستاجيري البلاد ، آخذاً عن برمنيد (+ ٤٥٠ ق.م.) ، إلى باردة وحارة ومعتدلة .فأهل البلاد الباردة قليلو الذكاء ، عديمو الصناعة ، وهم على فوضى وقلة انضباط ؛ وأهل البلاد الحارة أكثر شجاعة وقابلية للصناعات ، على أنهم ، بسبب نقصان شجاعتهم ، خُلقوا للعبودية ؛ أما بلاد اليونان ، وهي معتدلة ، فأهلها أصحاب صناعة وذكاء وشجاعة ، ولذا نجد عندهم قابلية للحكم . ويتابع : " من البديهي إذاً أن يوجد أُناس بعضهم أحرار بالفطرة وآخرون عبيد بالفطرة " ؛ ويضيف : " والإنسان الذي بفضل عقله ينعم بالبصيرة ، يصبح رئيساً وسيداً بحكم الطبيعة ، وللسيد وللعبد منفعة في ذلك " ؛ ويستخلص من كل ما سبق : " ينتج من ذلك أن فن الحرب في أحد معانيه نوع طبيعي من الكسب ، والصيد جزء منه ، ويجب ممارسته سواء ضد الحيوانات المتوحشة أو ضد البشر الذين يأبون الخضوع ، وقد ولدوا له ؛ وهذه الحرب تتلاءم ، بطبيعتها ، مع الحق " (كذا) (٢٤) .

أما في شأن تطبيق هذه المبادئ على الفتح الفارسي ، فقد كان إيزوقراط ينصح الملك فيليبس " أن يكون محسناً إلى اليونان ، ملكاً على المكيدونيين ، وسيداً على البرابرة " . وما علّمه أرسطو تلميذه الإسكندر لم يخرجْ عن هذه الأطر ؛ فقد قال له : " عليه أن يكون قائداً لليونان وسيداً على البرابرة " .

وكان كاليستين ، نسيب أرسطو وتلميذه والمؤرخ الرسمي لحملة الإسكندر ، يمثل هذا التعليم الأرسطي ،ويجسد هذه العقلية التقليدية على أكمل وجه .

أما الإسكندر ، وإن كنا لا نعرف بالضبط الزمن الذي تبلورت لديه فيه فكرة تحقيق دولة عالمية شاملة (٢٥) ، فإننا نراه يطرح سريعاً تعليم أرسطو ، بما يخص تفوّق اليونان العرقي ، واعتبار كل من سواهم برابرة . وكان ، كما لاحظ كبار مؤرّخيه ، يمعن في " تمشرقه " كلما ابتعد عن اليونان وتوغّل في فتوحاته .

ففي مصر قَبلَ أن يصبح فرعوناً ،وفي بابل تسلّم يد مردوك ، وثبّت مرزبانَيْ بابل وشوشن في وظيفتهما ، وبعد اغتيال دارا على يد أتباعه ، بدأ يظهر بمظاهر الملك الأكبر ، فيتّشح بالثوب الفارسي (دون السروال) ويتزوج بالأميرة روكسان الفارسية ، متّبعاً الطقوس الإيرانية (٢٦) . ومهما يكن من تعليل هذا السلوك ، فهو ، بنظر المكيدونيين واليونان ، (تبربر) من قِبله وإهانة لتقاليدهم .

وجمم الإسكندر الكيل في بلخ (ربيع سنة ٣٢٧) عندما عزم على إخضاع كل رعاياه ، من فرس ومكيدونيين ويونان ، لقواعد تشريفات واحدة ، أي السجدة (٢٧) على عادة الفرس ، عند المثول أمام الملك . وكان كاليستين أشدّ المعارضين ، فأنكر الأمر على الفاتح بإباء وغطرسة ، وشدّ أزره الميكدونيون بترفّع رافضين أن يماثل بين الإغريق والبرابرة ، ويساوي بين الغالب والمغلوب .وعندما اكتُشفت ، بعد حين ، مؤامرة هرمولاوس ، أُقحم كاليستين ، على ما قيل ، بين المذنبين ، بحجة أنه كان أستاذاً للمتآمرين يلقي عليهم بعض الدروس ، فقُبض عليه وتوفي على الأرجح في الهند (٢٨) .

وكان وقع الكارثة شديداً على نسيبه ، أرسطو ، وعلى بقية أعضاء مدرسته ، فوصف تيوفراست الإسكندر بالطاغية ، وكاليستين بشهيد الحرية . وتوارث أعضاء الليقيون الحقد على الإسكندر فشوهوا سمعته ، وخاصة المؤرخين فندر ذكره ، ابتداءً من القرن الثاني ق.م. ، ودام خبو نجمه حتى القرن الثاني ب.م. .ولفلوتارخ (+١٢٥

ب.م.) ثم لأريان (+ ١٧٢ ب.م.) الفضل في بدء إرجاع الفاتح الكبير إلى مكانة تليق بعبقريته .

أرسطو مؤسس الليقيون :

والآن ، حان لنا الرجوع إلى شؤون المدرسة التي أسسها أرسطو (الليقيون) بعد توديع الإسكندر وتركه مكيدونية وشخوصه إلى أثينة (سنة ٣٣٥) . إنّ الستاجيري سعى أن تكون مدرسته أفضل من أكاديمية أفلاطون في تجهيزاتها العلمية ، فزوّدها بمكتبة فريدة (٢٩) هي الأولى من نوعها في العصور الكلاسيكية ، ضم إليها آلاف المصنفات العلمية والفلسفية والتاريخية والوثائق التي أمكنه العثور عليها ، وأغناها بمتحف للنباتات والحيوانات والمعادن ، واستمر يضيف إليها ما تصل إليه يده أو ما يبعثه إليه أصحابه وتلامذته وأصحاب العلم الذين رافقوا الإسكندر .

وقامت صداقة متينة بين أرسطو وأنتيباتر ، الوصي على مكيدونية أثناء غياب الإسكندر وممثله في بلاد اليونان ،ووفر فيها هذا الأخير لمربي الإسكندر الراحة والطمأنينة ، و لم يعكر صفو عيشه سوى فاجعة كاليستين ، وخروج الإسكندر على تعليمه في شؤون البرابرة .

وبقي أرسطو في إدارة الليقيون ، وفي التعليم ثلاث عشرة سنة كانت ، ولا شك ، اكمل سني نشاطه ونضوجه ، فيها حقق ، على مدى واسع ، ما بدأ به في أسوس وميتيلين ومكيدونية ، وقطع أشواطاً (٣٠) في مؤلفاته الكبرى من علم الأحياء والفيزياء والأخلاقيات والماورائيات . وكان من عادته أن يوزع المواضيع على طلابه ، معيِّناً لهم بدقة حقول التنقيب ، ويشرف على دراساتهم ، قبل أن يجمع نتائجها ويصلحها ويتمّمها ، وقد يضم بعضها إلى أقسام مؤلفاته .

وخلال هذه السنوات ، تألقت مواهب تيوفراست ، صديق الستاجيري وتلميذه المفضل وخليفته العتيد في رئاسة الليقيون ، وقد استعان به المعلم الأول لجمع مواد مؤلفه الكبير " الدساتير " التي بلغ عددها ١٥٨ (ومنها دستور صور ، على ما قيل) اتبع فيها أرسطو الترتيب الأبجدي ، ووطّأ لكل دستور بدراسة تاريخية وقانونية ملائمة . أجمع المؤرخون على أن أرسطو كان يلقي الدروس مرتين في النهار ، قبل الظهر وبعده :

فتعليم الصباح كان موجهاً للتلاميذ المتقدمين ، فيه اختصاص وأسلوب علمي محض ، وهو ما عرف بالتعليم الخاص ؛ والكتب المنسوبة إليه تدعى أيضاً السمعية .وكان

يُلقي ، بعد الظهر ، محاضرات عامة ، جاعلاً تعليمه في متناول الجميع ، بأسلوب يعالج فيه مواضيع مبسطة ، لفهم الفلسفة والأخلاق والسياسة ، وهو ما عُرف بالتعليم العام أو الخارجي .

موت العلَمين :

وبينما كان أرسطو مثابراً في الليقيون على تدوين مؤلّفاته وإعادة النظر فيها ، كان الإسكندر يسير من نصر إلى نصر ، حتى إذا بلغ مشارف الهند ، رفض جنده التوغل في عالم مجهول ، فاضطر إلى التوقف ، وهبط نهر الهندوس ، قبل الرجوع إلى بابل ، واخذ يخطط لحملات جديدة . وحدث ما لم يكن بالحسبان ، فمرض بحمى ملاريا حادة لم تفارقه حتى أضحى ، في اليوم الثامن ، لا يقوى على الكلام ؛ وفي العاشر فارق الحياة (١٣ حزيران ٣٢٣) .ومعروف أن ملكه دام اقل من ١٣ سنة ، ولم يكن ، عند وفاته ، أكمل الثالثة والثلاثين من عمره (٣١) .

ووصل النبأ إلى أثينة ، في أوائل شهر تموز ، فكان له وقع النار في الهشيم ، فثارت المدينة ، بتحريض ديموستين ، وأعلنت الحرب على مكيدونية ، وطردت حامياتها المرابطة على أرضها . وأصبح بقاء أرسطو في الليقيون خطراً عليه وعلى مؤسسته ، بعد بدء التحرش به ، بحجة إلحاده ، فترك أثينة خلسة ، بعد أن عهد بإدارة الليقيون إلى تيوفراست ، وقصد مدينة خلكيس (في جزيرة أوبه) مسقط رأس والدته . وهناك في عزلة تصعب على من اعتاد التعليم والتفاف التلاميذ حوله ، أخذ يتم ما أمكنه من مؤلفاته ، إلى أن توفي بعد أكثر من سنة بقليل (شهر آب ٣٢٣) بداء مزمن في معدته ، وكان قد أتم الثانية والستين من عمره .

يصفه لنا ديوجين لايرس أنه كان أصلع ، نحيل الساقين ، صغير العينين ، متأنقاً في لباسه ، حليق الذقن مع حبسة في لسانه . وإذا حاولنا سبرغوره خلال وصيته (٣١) ، نراه محباً رؤوماً بعائلته ، عارفاً لكل جميل ، حافظاً ذكر الأموات مع استعراض الأحياء من ذويه ، متخذاً الإجراءات الكفيلة بتحرير عبيده وطالباً أن تُضم جثته إلى رفات امرأته الأولى المتوفاة .

تزوج أرسطو مرّتين في حياته . ففي سنة ٣٤٠ تزوج بيتياس ، شقيقة هرمياس ، عاهل أطارنة ، الذي غدر به الفرس ، وكان عمره آنذاك ٤٤ سنة ؛ ولما ماتت زوجته ، تاركة له ابنة صغيرة (بيتياس ، على اسم أُمها) ، بنى بثانية هي هرفيليس فولدت له

نيكوماخ (باسم جده) وهو الذي ،على الأرجح ، اعتنى مع تيوفراست بنشر كتاب الأخلاق الذي عُرف باسمه .

وعيّن أرسطو صديقه انتيباتر مشرفاً على تنفيذ وصيته .

ومن الغريب في وصية أرسطو المذكورة أنه لم يرد فيها ذكر مصير مؤلفاته وكتبه ؛ والأرجح أنه ترك كل ذلك لتيوفراست ، عند هربه من أثينة . ولقد ورد في وصية هذا الأخير أنه يهب مكتبته كلها لتلميذه نيلوس (٣٣) ، ولنا تفصيل تابع عن مؤلفات أرسطو .

الحواشي :

١ – هذا ما ورد في الفهرس المعروف باسم سويداس .

٢ – DIOGENE LAËRCE : Vie...I , Garnier - Flammarion , Paris , P . 229

٣ – يجزم أميل برييه ، كعادته ، أن أرسطو كان حدثاً جداً عند وفاة والده ، لذا لم يتأثر الابن بأبيه . ويقول أندريه بار إن أرسطو كان قد بلغ الخامسة عشرة من عمره عندما توفي والده . أما أوبونه فيبقى متأرجحاً ، بينما ذكر بار (Bar) المؤرخ مع غيره ، أن والده علمه التشريح : راجع BREHIER : Histoire de la philosophie I , 1 , P. 168.

- ANDRE BAR : Aristote , éd . Méricant , p. 10.

- JEAN AUBONNET : Aristote : Polit ., Intro , éd Budé , P. IX et note 4.

٤ – PIERRE THEIL : Les batisseurs du monde (de Thales à Hippocarate) , Seghers , P. 237 .

٥ – DIOGENE LAËRCE : op . cit ., P. 237

٦ – PLUTARQUE : Vie.... : Alexandre , 8 et 41 et P. 226 notes complémentaires

٧ – Idem , P. 38 Cf . aussi : G . RADET : Alexandre le Grand , Artisan du livre 8 éd ., P. 24.

راجع كذلك : جورج سارتون : تاريخ العلم ، الجزء ٣ ، دار المعـارف ، القـاهرة ، ص ٣٠٣ . أما بخصوص علم الطب في العصور الكلاسيكية فيمكن مراجعة :

TATON : Histoire générale des sciences , t . I, P.u.f. P. 294.

MARROU : Histoire de L' éducation dans L' Antiquité , Seuil , 1948 , P. 266

٨ - P. BACCOU : Hippocrate , Seghers , PP. 51ss .

٩ - JEAN AUBONNET : op . cit ., P. 110

١٠ - B . FARRINGTON : La science dans I' Antiquite , payot , P. 117

١١ - DIOGENE LAËRCE , op . cit ., P. 164

١٢ - PIERRE LACHIEZE - REY : Les Idées morales , sociales et politiques de Platon , Vrin , P. 13

١٣ - كان اتصال هرمياس بالأكاديمية على يد أرستوس وكوريسكوس تلميذَي أفلاطون ، وكان هذان قد أجريا إصلاحات سياسية في مدينة سكيبسيس ، ولقد ترك لهما هرمياس مرفأ اسوس عرفاناً لجميلهما . راجع : WILKEN : Alexandre le Grand , Payot , P. 29

١٤ - هي الرسالة السادسة من مجموعة رسائل أفلاطون .

١٥ - من تلاميذ أرسطو في حقبة اسوس ـ ميتلين هرمياس ، حاكم مدينة اطارنـة ، الذي ذكرناه ، وارستوس وكوريسكوس وكاليستين (نسيب أرسطو الذي ما برح يرافق الإسكندر بصفة المؤرخ الرسمي للحملة) ونيلوس (ابن كوريسكوس) الذي آلت اليه مؤلفات أرسطو مع مكتبة تيوفراست ، بناء على وصية هذا الأخير كما جاء في DIOGENE LAËRCE : op . cit ., P. 247

١٦ - PLUTARQUE : op. cit , §3

١٧ - نذكر من هؤلاء : هيفستيون (Héphestion) الذي غدا خدين الإسكندر المفضل ؛ ونيكانور (Nicanor) وهو ابن برمينيون (Parménion) كبير قواد الدولة ، الذي اشتهر في أوائل الفتح الإسكندري باحتلال مرفأ ميله ، وليونات (Léonat) الذي خاطر بنفسه في حصن الماليان لإنقاذ حياة الإسكندر ، ولعب دوراً كبيراً في حروب السند .

١٨ – من المرجح أن كتاب أرسطو " المسائل الهوميرية " يرجع إلى هذا العهد ، وهو بستة أجزاء لم يصل إلينا منها سوى النذر اليسير . ويعتقد الباحثون أن الفصل ٢٥ من كتاب أرسطو " في الشعر " يضم شذرات من الكتاب المفقود .

١٩ – مؤامرة فيلوتاوس ومحاكمته واغتيال برمينيون (خريف ٣٣٠) ؛ اغتيال كليتوس (خريف ٣٢٨) ؛ مؤامرة هرمولاوس ورفقته ؛ قضية السجدة والقبض على كاليستين ، نسيب أرسطو ، (ربيع - صيف ٣٢٧) .

٢٠ – PLUTARQUE : op . cit ., P. 23 .

٢١ – PLINE : Histoire naturelle , VIII , Budé , PP. 16 , 17.
WILKEN : op . cit , P. 66

٢٢ – EURIPIDE : Hélène , V , P. 276 .

٢٣ – G . MATHIEU : Les ideés politiques d' Isocrate , Budé , P. 42 .

٢٤ – ARISTOTE : Politique , I , 5 , 11, 2 ,2.8 ,12 ; PP. 13 - 26 .

٢٥ – راجع تفصيل الفرضيات المتعددة في L . HOMO: Alexandre le Grand , Fayard , P. 127

٢٦ – P . CLOCHÉ : Alexandre le Grand , P. 135 , WILKEN , OP . CIT ., P. 169 .

٢٧ – لقد عمدنا إلى فصل قضية السجدة عن قضية تأليه الإسكندر ،وقد كانتا فعلاً منفصلتين عند كاليستين (راجع ولكن ص ١٧٦) مفضلين التوسع في هذا الموضوع المتشعب كما سنفعل عند كلامنا عن الإسكندر .

٢٨ – يؤكد بطليموس القائد ، وملك مصر العتيد ، وقد أخذ عنه المؤرخ أريان (Arrien) ، أن كاليستين كان ضالعاً في المؤامرة ، وأن الإسكندر أمر بقتله في الهند (ويلكن ص ١٧٧) . وينتقد بوليب بعنف ما كتبه طيماوس المؤرخ (+ ٢٦٠) المدعي ان كاليستين أفسد أخلاق الإسكندر بتملقه : بوليب ــ الكتاب ١٢ ، المقطع ١٢ ب (طبعة بوده ، ص ١٨) .

ويذكر ديوجين أن أرسطو كان قد حذّر كاليستين مما قد يصيبه ، جراءَ صراحته الزائدة مع الملوك (الجزء الاول ص ٢٣٠) ويقول فلوتارخ : إنه مات في الهند ، بسبب بدانته المتناهية وإصابته بداء القمل (السير ، الإسكندر ، مقطع ٥٥ ، بوده) .

٢٩ - أشهر من أنشأ مكتبة شخصية له قبل أرسطو ، أوريبيد ، على أنها كانت دون مكتبة الليقيون بكثير .

٣٠ - مع التحفظات طبعاً ، كما سنفصله عن حالة مؤلفاته التي وصلت الينا في الفصل الثاني من الباب الثاني.

٣١ - راجع اليوميات الملكية في

RADET : Alexandre le Grand , P . 403 , PLUTARQUE , op . cit ., S 77 .

٣٢ - راجع نص الوصية في عيون الأنباء لابن أبي أُصيبعة ، ص ٩٤ (منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥) . والنص مشحون بكثير من الأخطاء ، وقد بُتر في أوله وآخره .

٣٣ - DIOGENE LAËRCE : op . cit , pp ; 234 , 247 .

الفصل الثالث

الإسكندر القائد

يُعتبر الإسكندر أوّلَ قائد كبير عرفه التاريخ بوثوق وتفصيل بين القواد العباقرة العالميين (١) . كان الإسكندر ـ أكثرَ من أبيه ـ يحلم منذ يفاعته بالفتوحات البعيدة . ذكر لنا فلوتارخ أنه ، عندما بلغه مرةً انتصارُ والده في احدى المعارك ، قال حزيناً لصحبه : " لن يترك لي والدي من عظيمٍ أنجزه معكم " . لذلك لم يكد يستوي على العرش حتى أكمل تحسينات والده في قطاعات الجيش ، فعزز الطابع الهجومي فيه بما يتوافق وَحِدّة طبعه وأسلوبه القتالي ، وزاد قسم القاذفات ، فكان أوّل من استعملها لضرب تجمعات العدو قبل الهجوم ، وكانت قبلَه لا تُستخدم في غير حصار المدن وضرب القلاع ، لذا يمكن اعتباره المستنبط لما يُعرف ويُمارس اليوم ويُسمّى بتمهيدات المدفعية ، قبل الزحف لكسب الأرض والتمركز فيها . واعتنى بنوع أخص بفِرَق الفرسان التي كان لها الانجازات الحاسمة في معاركه المقبلة .

التعبئة والتخطيط :

يركّز أصحاب الاختصاص (٢) الذين عالجوا تحليل العبقرية العسكرية التي تجلّى بها كبار القادة في التاريخ ، على أهمية صفتين أساسيّتين عند القوادِ النابغين :التعبئة ـ التكتيك (TACTIQUE) والتخطيط ـ الاستراتيجية (Stratègie) . ويمكننا بصورة مُبَسَّطة توضيح مدلول هاتين اللفظتين .

يُفهم بالتعبئة العمل على التوفيق بين الصدام والحركة إبّان القتال ، وكسر العدو باعتماد التقنيات والمناورات المتنوعة التي تلجأ اليها قطاعات الجيش . ويُفهم بالتخطيط (العام) استعمال كل الفاعليّات لتحقيق الأهداف السياسية المرجوّة . وبتعبير آخر اكثر ايجازاً :التعبئة تتناول مجمل الجهود لإحراز النصر على صعيد التفاصيل في المعركة ، بينما التخطيط يرمي إلى تحقيق الغاية المنشودة على الصُعُد الأخرى ومنها السياسة بنوع خاص .وممّا لا شكّ فيه أن الإسكندر جمع في عبقريته العسكرية هاتين الصفتين على درجة فائقة .

ففي حقل التعبئة ، وقد ألمحنا إلى بعض التحسينات التي أدخلها الإسكندر على الجيش غِبَّ تسنّمه العرش ، بقي الفاتح يحسّن في التسليح والتنظيم والحركة طوال مدة قيادته .

وإذا كانت مقدرته في هذا المضمار قد تجلّت في معاركه الثلاث الأولى ، كما سنبيّن ، إلا أنها تبدَّت برونق وروعة بالغين لمّا جُوبه ـ في المقاطعات الشرقية من ايران ـ بأساليب جديدة في القتال ، اعتمدتها القوات الفارسية المتجمعة في بَقْطريا وصغديا ، بعد أن تأكدت أنّه لا حول لها بمقاومة الفاتح في معركة منتظمة ، فأخذت تتحاشى النزال بأعداد كثيفة ، ولجأت إلى التسلل والكبس المباغت ، فكانت تنقضّ على المكيدونيين ، تضرب ضربتها وتتوارى بسرعة مدهشة ، وقد أعانها على ذلك امتداد البوادي ومهارتها الفائقة في تصويب السهام مِن علىظهر جيادها الأصيلة .

عالج الإسكندر الواقع الجديد بإدخاله تعديلات كبيرة في تعبئة قطاعات جيشه ، فقسم الوحدات المكيدونية المتراصة شراذم صغيرة أكسبتها سرعة ومرونة ، وأفرز فريقاً من الخيّالة وسلّحها تسليحاً خفيفاً واعتمد عليها في المطاردة ، وأنشأ وحدات من النبّالة بين المشاة والفرسان ، فتوصّل إلى التطابق التام إزاءَ كلِ هذه المستجدّات . وكما حارب الإسكندر العدو بتبنّي بعضِ أساليبه وأسلحتِه ، جنّد عدداً وافرا من البقطريان والصغد وجعلهم فوجا رديفاً لجيشه ، فتمّ له اخضاع المقاطعات الثائرة ، وقد استغرق منه ذلك ثلاث سنوات .

وكما تناولت التعديلات عدّة جيش الإسكندر ، شملت كذلك عدَدَه . وإذا كان الفاتح قد خرج من مكيدونية بقرابة أربعين ألفاً ، فقد دخل الهند بمئة وعشرين ألفاً ، ثم هبط هذا العدد ، بعد احتيازه صحراء غودريسيا والكرمان ، والتسريح الكبير الذي قام به في مدينة أوبيس (سنة ٣٢٤) فأصبح جيشه ، عند موته ، يناهز الثمانين ألفا .

أما التخطيط العام فقد بلغ به الإسكندر الذروة وحقق ما عجز عنه أعظم القوّاد قبله وبعده ، فاستطاع أن يكسر من البرّ الأسطول الفارسي الذي كان يفوق قوّاته البحرية عدداً ودرايةً قتالية ، لأن ما كان يُدعى بالأسطول الفارسي لم يكن في الواقع سوى أسطول فينيقي وقبرصي يعمل لحساب الفرس ، وكان بحّارة هذين البلدين لا يُحارَوْن في اليمّ . وإنّ نظرة واحدة إلى تلك الطريق الكثيرة التعرّج التي تَبِعها الإسكندر في آسيا الصغرى تظهر لنا بوضوح أن أوّل ما سعى اليه

الفاتح كان احتلال المرافئ لعزل (٣) الأسطول الفارسي عن مراكز الإرساء للتزود والتصليح .

وبعد معركة إيسوس التي نازل فيها الإسكندر لأول مرة دارا ملك الفرس ، في ساحة القتال ، واضطّره إلى الفرار ، وُجد الفاتح أمام أكبر إغراء في حياته للانحراف عن تخطيطه : هل يطارد ملك الملوك الفارسي ، وقد أصبح أعزل وفي متناول يده ، حتى إذا تمكن منه انهى الحرب سريعا ؟ أم يتركه يصل إلى عواصم ملكه ومراكز قوّته ، وفيها ذخر هائل من الرجال والعتاد والمال ، فيستعيد قوّته ويحشد جحافله على صورة اكمل ، فيصبح ما ربحه في معركتي الغرانيق وإيسوس رهن تقلّبات الحظ ؟ ثم ماذا عساه أن يحصل له إذا خذلته الآلهة في معركة مقبلة ؟ ...

لم تزعزع كل هذه الاعتبارات يقين الإسكندر بصحة تخطيطه ، إذ رأى بحدسه أنه ، إذا انزلق إلى نزوات طبعه ووحي تسرعه ، أبقى على الأسطول الفارسي فترحّب به موانئ قبرص وفينيقيا وعلى رأسها مدينة صور الجبارة المنيعة العنيدة ومكّن فلول الجيش الفارسي التي اتجهت عَبْر ممرات الجبال ، إلى الشمال ، بعد انكسارها في إيسوس ، من ان تلمّ شعثها وتنضم إلى بقايا جيش الغرانيق المتجمعة في البنطس وكبادوكيا ، وأتاح للأسطول الفارسي نقل جيوش اسبارطة (٤) التي لم تنضم إلى حلف كورنتية وما زالت متربصة به ، فتساندها جيوش مصر التي لم تزل بيد الفرس ، فتتعرّض بالتالي خطوط اتصالاته بمكيدونية ومراكزُ تموينه ومدده للخطر ، فيصبح شبه محاصَر ويضطر إلى القتال على أكثر من جبهة .

ولقد أكبر أعظمُ قوّاد التاريخ هذا التفوقَ في التخطيط الحربي ، مِنْ هنيبعل القرطاجي إلى يوليوس قيصر الروماني ونابليون الفرنسي . ومعروف أنّ هؤلاء الثلاثة أصبحوا من كبار المعجبين بالإسكندر بعد ان عكفوا على دراسة حملته ؛ وأنّ تخطيطات حروبهم وتعبئة جيوشهم ، كما يؤكّد اصحاب الاختصاص ، مدينة بالكثير للفاتح الكبير .

هذه نبذة وجيزة عن بعض جوانب تفوّق الإسكندر العسكري ، ولعلنا ننفذ إلى قدر أكبر من عبقريته إذا استعرضنا أهم معاركه بشيء من التفصيل .

ملاحظات على معارك الإسكندر :

تخلل الفتحَ الإسكندري أربع معارك كبيرة : الغرانيق (أيار ٣٣٤) وإيسوس (ت٢ /٣٣٣) وغوغامل (ت ١/ ٣٣١) والهِيْداسب (تموز ٣٢٦) . وقبل الدخول في التفصيل لا بدّ لنا من ابداء بعض الملاحظات :

أوّلاً ، لم يختر الإسكندر قط في هذه المعارك ساحة القتال ، بل كان ينازل العدو عندما يلتقيه ، في المكان الذي يكون الخصم قد اختاره وتمركز فيه . وفي ثلاث من هذه المعارك (الغرانيق وإيسوس والهيداسب) اشتبك مع العدو عند وصوله إليه . على أنّ نظرة الفاتح الثاقبة والملمّة فوراً بكل معطيات ساحة القتال ، وقوّة إبداعه في التعبئة وترتيب قطاعات جيشه ، كانت تجعله يُنسّق فرقه على طريقة تتماشى وطبيعة الارض ، فيحوّل ما كان يُفرض عليه لصالحه وانتصاره .

ثانياً ، كان على القائد ، في تلك العصور ، أن يخوض المعركة على رأس جنوده ، لا أن يوجّهها من بعيد ، كما يُمارس اليوم . ولربما ينطبق هذا القول على الإسكندر أكثر من غيره ، إذ احتفظ لنفسه ، في معاركه الثلاث الأولى ، الميمنة المهاجمة ، تاركاً لأشهر قوّاده ، برمينيون ، الميسرة التي لم يكن عليها سوى الصمود ومقاومة تقدم صفوف العدو . وكان اختياره هذا يلائم طبعه الهجومي ، وهو الذي عرف عنه الاندفاع الشديد في الهجوم ، حتى قال أحد مؤرّخيه " إنه يكاد أن ينسى نفسه عند سماع صوت البوق المعلن بدءَ القتال " .

ثالثاً ، اتّبع الإسكندر ، في معاركه الثلاث الأولى المذكورة ، أسلوب الجبهة المنحرفة ، وهي التي ضمنت له النصر في هذه المواقع .وجوهر الخطة ،كما مارسها الفاتح ، وقد أخذها عن أبيه (٥) ، تقوم على أن تسعى خيّالة الميمنة ، بزخم هجومي شديد ، إلى زحزحة ميسرة العدو عن مواقعها ودحرها إلى الوراء ، بينما يبقى الجناح المكيدوني الآخر ، كما قلنا ، صامداً ، فيتسنّى له إذ ذاك التوغل من الجانب في صفوف العدو والطعن في خاصرته المكشوفة .

أخيراً ، هل يسعنا أن نُغفل مظهراً مهمًّا من مظاهر عبقرية الفاتح في التنظيم ، وهو ما يمتّ إلى التعبئة والتخطيط معاً بأكثر من صلة ، فيما أقامه ، بإتقان أمثل ، من محطّاتٍ ومراكز تموين في البلاد المفتوحة ، ليبقى على اتصال أمين وسريع بمراكز مدده ؟

إننا ، إذا أخذنا بتقديرات المؤرّخين أنّ نهر الهِيْفاس آخر سواعد نهر السند إلى الشرق ، وهو أقصى ما وصل إليه الإسكندر ، يبعد ، دون التعرّجات ، قرابة ثمانية عشر

الف كيلومتر عن بلاّ عاصمة مكيدونية ، وإذا تذكّرنا أنّ على هذه الطريق أن تجتاز عدة سلاسل جبلية يبلغ ارتفاع بعض ممرّاتها أكثر من ٣٥٠٠ متر ، وأن تَعْبر البوادي والصحارى والمفاوز والأنهار ، أكبرنا إذ ذاك ، ولا شك ، أنّ الجنود والمتطوعة والخيولَ والمؤن والبريد كانت تُنفِّذ ـ ذهاباً وإياباً وبدقة في الزمان والمكان ـ أوامرَ الإسكندر . ويُخبرنا المؤرّخ المعاصر ويلكن (٦) أن عدداً من ضباط الجيش الألماني أعربوا له ، عقب محاضرة ألقاها فيهم عن الفاتح إعجابَهم البالغ لسيطرة الإسكندر ، بوسائل عصره ،على الأبعاد ، والمحافظة على خطوط اتصالاته ، رغم تلك المسافات الشاسعة الصعبة .

معارك الإسكندر الكبرى :

عدَّدنا للإسكندر أربع معارك كبرى : أولاها الغرانيق ، قرب الدردنيل ، وقد وطّأت للفاتح الاستيلاء على آسيا الصغرى ، والثانية إيسوس ، قرب الإسكندرون اليوم ، عند ممّرات طوروس البحرية التي سهّلت له السيطرة على سواحل سورية وفينيقية وفلسطين ومكّنته من فتح مصر ، والثالثة معركة غوغامل ـ أربيل ، شمالي العراق ، قرب الموصل وجعلت ايران في متناول يده ، وأخيراً معركة الهيداسب ، ثاني سواعد نهر السند من الغرب ، التي مهدت له طريق الهند ، لولا إحجام جيشه عن ولوج " ذلك العالم المجهول " آنذاك ، فاضطر أن يتجه جنوباً ، هابطاً نهر السند على أسطول أنشأه هنالك ، وعبرَ صحراء غُوذْرِيْسِيا متجهاً نحو بابل حيث وافته المنية إثر نوبات حادة من الملاريا ، وكان – كما يقول أحد مؤرّخيه – : بإمكان بضع حبات من الكينا ، لو عرفها ، أن تنقذ حياته .

معركة الغرانيق (أيار ٣٣٤ ق.م.) :

لقد كانت معركة الغرانيق ، من الوجهة الحربية ، معركة شبه مرتجلَة ، ويمكن اعتبارها بمثابة متنفّس للنزق والتسرّع اللذين كانا يغليان في نفس الفاتح ، ولتحرّقه إلى مجابهة الفرس في معركة حاسمة وكسرهم .

وصل الإسكندر بجيشه في ساعات الظهر إلى الضفة الغربية من نهر الغرانيق ، وكان الجيش الفارسي قد اصطف للقتال متمركزاً على الضفة المقابلة ومعه المرتزقة اليونانيون ،

بقيادة القائد اللامع مِمْنُوْن الروديسي ، فركزَّ صفوفه على مرتفع شمالي جيش الفرس وقليلاً إلى الوراء .

ولا حظ الإسكندر بوميض عبقريته أن العدو قد ارتكب خطأً فادحا إذ جعل الخيّالة في الصفوف الأمامية قرب ضفة النهر ، مّما يفقدها زخم الصدام في الهجوم ، فوطّد النفس على استغلال هذا الخطأ في التعبئة وعلى بدء المعركة دون إبطاء ، خاصة وقد أخذت الشمس تميل إلى ما وراء ظهره ، مّما يعيق رؤية العدو إبّان المعركة .

ورغم كل المحاذير التي عدّدها برمينيون ، كبير قوّاده ، لافتاً نظر الفاتح إلى عمق مجرى النهر ، وارتفاع الجرف المتربّص عليه العدو ، والخوف من تشرذم الكتائب المكيدونية عند اجتيازها النهر تحت وابل السهام ، وصعوبة ارتقائها المنحدر مبلولة قبل الوصول إلى الخصم ، أعطى الإسكندر أمره ببدء القتال ، موعزاً إلى فرسانه بتسديد الضربات ، ما أمكنهم ، إلى وجوه المرازبة وقوّاد الفرس الأشراف الشديدي الحرص على جمال طلعتهم وحفظها من التشويه .

وتعترينا قشعريرة عميقة عند قراءة نصَّيْ المؤرّخَيْن فلوتارخ وأريان ، كيف تعرّض الإسكندر للموت المحتّم في حومة المعركة ، عندما أطبق عليه القائدان الفارسيان الكبيران سِيْتْرِيْدَات ورِيْزاس (٧) : تحاشى الفاتح الخصم الأول وسدّد رمحه إلى صدر الثاني فانكسر على الدرع ، فاستلّ اذ ذاك الإسكندر سيفه يقارع خصمه ، فما كان من سيبتريدات إلا أن اقترب من خلف الإسكندر المنشغل بخصمه ، وعلاه بضربة حسام خرقت الخوذة وانتهت إلى شعره ، ثم رفع ذراعه وكاد ان ينهال عليه بالضربة القاضية لو لم يعالجه كليتوس المكيدوني بضربة سيف بترت ساعده .

كانت حياة الإسكندر ومستقبلُ الفتح والعصر الهلنستي بكل منجزاته رهنَ ضربة كليتوس ، وكانت حقاً ثوانيَ معدودة حدّدت للتاريخ مجراه . ولو تأخرَ كليتوس لحظة واحدة لقُضي على كل شيء ...

وإذا كان لا بد من وقفة تقدير تجاه بصيرة برمينيون وحنكته ، فلأمرين اثنين : الأوّل أنه كان نصح الملك الشاب ، قبل مغادرة مكيدونية بالزواج ، ليضمن وريثاً للعرش اتّقاء لعاديات الأيام ، والثاني أنه حذّر الفاتح الشاب المسارع إلى القتال من مغبّات المخاطرة .وإذا كان السعد المُفلق قد خدم الإسكندر فسلمت حياته ، فقد قدّر

لإمبراطوريته العتيدة أن تتفسخ وتبقى تئن بعدَه قرابةَ أربعين سنة ، لأن الفاتح لم يأخذ بنصيحة قائده الحكيم و لم يترك وريثا مكيدونياً بأمّه وأبيه .

معركة إيسوس (ت ٢ / ٣٣٣ ق.م.) :

وإذا كانت معركة الغرانيق قد تميّزت بالمجازفة ، فإنّ الفاتح كان أكثر تحفظاً وتؤدة في إيسوس (إياس اليوم) : فقد حشد دارا جيشاً لجباً أربى على مئتي ألف مقاتل ، وقاده بنفسه متجهاً إلى سورية الشمالية ، وعسكر في سوش ، بين حلب وأول مرتفعات جبال الأمانوس ، وقد رأى في ذلك السهل الواسع مكانا صالحا لانتشار جيشه وخيالته ، فضلاً عن أنّه غير بعيد عن بيلان ، الممر العادي للولوج في تلك المنطقة .اما الإسكندر فقد تأخّر في كيليكيا لمرض أصابه إثر استحمامه ، وهو متعرّق ، بمياه نهر الكيْدْنُوس الشديدة البرودة والهابطة من أعالي جبال طوروس . واستبطأ دارا الإسكندر وعزا الأمر إلى تهيّب المكيدوني من منازلة جيشه اللجب ، فاتجه لملاقاته عبر الممرات الجبلية الشرقية في كيليكيا .

أما الإسكندر ، فبعد أن أبَلَّ من مرضه وأنهى كل ما يجعله مطمئناً لَمّا يتركه وراءه ، فقد اتّجه إلى الجنوب سالكا الممرات الغربية القائمة على كتف البحر ، ماراً بإيسوس حيث أبقى المرضى والجرحى من الجيش [٨] ، وتابع سيره إلى أن بلغ ميراندوس (الإسكندرونة اليوم) . وانتبه الملكان في آخر الأمر ، بفضل السعاة والرواد ، إلى أنّه حدث تقاطع بين الجيشين عبر الممرات الجبلية دون أن يرى أحدهما الآخر ، فارتدا على اعقابهما ، الأول جنوباً والثاني شمالاً ، مُصمميْن على القتال .

وبلغ أخيراً الإسكندرَ أنّ دارا وصل إلى إيسوس ، فأدرك أنه المكان الأفضل للمعركة ، فيه يرتاح جيشه الذي لم يكن يتجاوز كثيراً الثلاثين ألفاً ، فيمَا يعيق ضيق [٩] السهل انتشار الجيش الفارسي الكبير وخيّالته ، فحثّ القوّاد والجنود على المضيّ بأقصى سرعة فوصل عند حلول الظلام إلى الممر الذي يؤدّي إلى حيث عسكر الفرس ، فاحتازه بعد أن أمن مرتفعاته ، ثم أراح جنوده على المنحدرات [١٠] حتى الفجر .

و لم يكن عسيراً على الفاتح ، أثناء هبوطه إلى السهل ، الإحاطة بتفاصيل تمركز فرق العدو . ولاحظ بعينه الوقّادة أنّ الفرس عمدوا إلى تكثيف خيالتهم على ميمنتهم ، فأدرك أنهم قد يعدّون العدّة للقيام بحركة التفاف حول الميسرة المكيدونية ، فأكمل

تعبئة صفوفه ثم أمر الخيّالة التسالية أن تتسلل من الميمنة إلى الميسرة من وراء صفوف جيشه بحيثُ لا تُرى [11] ، لتكون مباغتة انقضاضها اقوى عند إحباط الخطة الفارسية إذا حدثت .

وكان الأسلوب الذي اتبعه الإسكندر في إيسوس لا يختلف في جوهره عمّا اختاره في الغرانيق ، إلاّ أنّ جهده لم يكن هذه المرّة منصبّاً على خرق ميسرة الفرس والضرب في خاصرة الجيش فحسب ، بل جعل هدفه الوصول إلى وسط جبهة العدو حيث كان دارا يتابع ، مِن على مركبته الفخمة ، مجرى القتال . ولما رأى عاهل فارس أنّ الفاتح أصبح على قاب قوسين منه ، تصحبه " كتيبة الأشراف " يدحر بنجاح كل مقاومة ، قاصداً إياه بالذات ، لوى عنان مركبته وهرب لا يسأل على شيء . وكان ذلك إيذاناً بتبعثر الجيش كله . وكان انتصار الإسكندر رائعاً حاسماً ، إلا أنّه لم يحقق مبتغاه في القبض على خصمه أو قتله ، رغم طول مطاردته .

معركة غوغامل (١ت١ ٣٣١ ق.م.) :

وحازت موقعة غوغامل كامل اهتمام الإسكندر ، إذ عرف من تجسس طلائعه وبعض اسرى الفرس أنّ حشود دارا فاقت ثلاثة مئة ألف ، ما عدا أربعين ألفاً من الخيالة ، ومئتي مركبة زوّدت عجلاتها بالمناجل الحادة ، وخمسة عشر فيلا ، وأنّ ملك الفرس وطّد النفس ، هذه المرة ، على القتال في سهل غوغامل الفسيح حيث تجد فيالقه وخيّالته متّسعاً للانتشار وقت القتال .

لم يكن مع الفاتح المكيدوني سوى خمسين ألفاً ، ولئن كان قد اعتاد مقارعة خصم يفوقه عددا ، إلا أن الفارق كان كبيراً جداً هذه المرة .

وكانت عبقرية الإسكندر الحربية تجد دوماً مخرجاً لكل مأزق ، لذا عمد إلى خطة في التعبئة لم يسبقه اليها احد ، وهي أن يقيم جبهة ثانية تكون على استعداد لتعكس وجهتها القتالية عند اللزوم . وعزز ميمنته وميسرته لتكونا على مقدرة ، عند الانكفاء ، من الانتشار لوصل الجبهتين ، بحيث يؤلّف الكلّ مربّعا يقاتل من مختلف [12] جهاته ، إذا ما نجح الجيش الفارسي ، بسبب كثافة عدده ، في القيام بعملية التفاف . وطلب من فرق النبّالة أن يصوّبوا سهامهم إلى سوق الفيلة وإلى المركبات الفارسية ، كما أمر المشاة الذين اعتادوا تنفيذ التعليمات بسرعة وإحكام ، أن يفسحوا في صفوفهم لمرور المركبات ، إحباطاً لمحاولة العدو بَعْثرة صفوف الجيش بواسطة العربات .

وعملاً بنصيحة برمينيون ، أراح جنوده في تلك الليلة ، بينما بقي جيش الفرس ساهرا يتحرّق خوفاً من كبسة في الظلام (١٣) وتسلل الإسكندر في عتمة الليل مع بعض خاصّته ، مقتربا قدر المستطاع من مراكز العدو ، للتأكّد من خلو ساحة القتال من الفخاخ ، بعد أن نُمي إليه أنها نُصبت لجيشه .

وفي صباح غرة ت١ سنة ٣٣١ ، كان على برمينيون أن يوقظ الفاتح من سبات عميق ليحقق نصرا حاسما . وهذا النصر ، للمرة الثالثة ، كان مدينا لعبقرية الإسكندر في التعبئة وتحرّكه في ساحة القتال .ويمكن تلخيص ذلك بكلمتين : الخدعة والمجازفة . فالخدعة التي اصطنعها الإسكندر كانت أنه – خلافاً لعادته ولما كان ينتظر منه الفرس واحتاطوا له – بدأ المعركة متّجها بزخم هجومه إلى اليمين ، وأوغل بهذا الاتجاه فانزلقت معه ، مضطرة ، صفوف الفرس لمقاومته ، ممّا أحدث امتداداً غير متوقّع في الجبهة وحصول ثغرة في قلب خطوط الفرس الأمامية .وعندما تيقّن الفاتح من وقوع ما كان يسعى إليه ، انعطف بسرعة البرق ، مع صفوة خيالته ، إلى اليسار ، باتجاه الثغرة ، وغاص فيها حتى قلب الجيش حيث كان دارا معتلياً مركبته وسط حرسه . وكان لا بدّ أن يُحدث هذان التحوّلان المفاجئان ذهولاً وارتباكاً في قيادة الفرس إذ أصبحت لا تعرف إلى أين توجه كراديسها .

اما دارا ، فعندما رأى الإسكندر شاخصاً اليه ، وصفوف الجند التي تفصله عنه تتبعثر وتتشتّت تحت ضرباته ، فطن إلى الخدعة بعد فوات الأوان وتيقّن أن خصمه واصل إليه لا محالة ، فانهدّت عزيمته ولاذ بالفرار ، شأنه في المرة السابقة .وطارده الفاتح قرابة خمسين كيلومترا حتى أربيل ، فلم يستطع اللحاق به ، إلا أنه استولى هنالك على خزانة المال ومؤونة الجيش ، ثم كرّ راجعاً إلى ساحة القتال وكانت المعركة قد أشرفت على نهايتها .

أما المجازفة فكانت حقاً خطيرة ، لأنه كان من المحتم ، نتيجة لنزوع الإسكندر إلى اليمين في هجومه ، أن يحصل في جيشه ما حصل عند العدو من امتداد وتصدّع . وهنا لابدّ لنا من الإشارة إلى أنّ حدوث ذلك في كتائب الإسكندر يُعَدُّ أشدّ خطراً في نتائجه مما حصل في جيش الفرس ،وذلك لسببين مهمّين : الأوّل هو أنّ الكتائب المكيدونية ، بطريقة تكوينها (١٤) ، يرتكز تفوّقها في القتال أوّلاً وأخيراً على التحام صفوفها . ويستحيل عليها بالتالي أن تقوم ، بدون هذا التلاحم المحكم ، بأيّ عمل حاسم في ساحة القتال . والثاني هو أنّ حدوث ثغرة في صفوف الكتائب المكيدونية يعرّضها ، في هذه

المعركة بالذات ، لأشدّ المخاطر ، نظراً لقلّة عدد جيش الإسكندر أمام حشود الفرس الهائلة ، كما ذكرنا . ولقد حصل التصدّع عند المكيدونيين نتيجة ميامنة الإسكندر في هجومه ، وأتاح لقيادة الفرس ، لو وعت وانتهزت الفرصة ، أن تلقي بسرعة في الثغرة المكيدونية بخيّالتها ومشاتها بأعداد كبيرة ، وقد كان بمقدورها أن تفعل ذلك بسهولة نظراً لعددها اللجب ، وقد فعلت ؛ ولكن بدلاً من أن تعمد إلى توسيع الخرق وتفكيك تمفصل وحدات الكتائب ، قصدت مخيّم المكيدونيين لسرقة الأمتعة (١٥) ، فكان ذلك سبب هلاكها . وإذاكان الإسكندر قد اختار المجازفة ، فلوثوقه بماسوف تُحدث مباغتته من بلبلة في قيادة الفرس وصفوفهم ،ولاعتماده السرعة في تنفيذ ماوطّد النفس عليه ، ولركونه إلى مقدرة قواده وتفوّقهم ، ولا طمئنانه إلى شجاعة جنوده وطواعيتهم . وإنّ الفرس ، علاوة على كل ذلك ، قد سهّلوا انتصار المكيدونيين بجهلهم وغباوتهم . كل ذلك جعل الفاتح يراهن ويكسب الرهان لأن مجازفته كانت كالمعتاد مخططة ومدروسة .

وكان من نتائج هرب دارا الثاني أمام خصمه أنْ سئم مَن بقي معه مِن قواده سوءَ طالعه فتآمروا عليه ، وبعد عشرة اشهر من انكساره اغتالوه قرب قرية شبرود (تموز سنة ٣٣٠ ق.م.) الواقعة جنوبي شرقي بحر قزوين .وكان الإسكندر آنذاك جاداً في طلبه ، إلا أنه لما وصل إليه كان ملك ملوك فارس ملقى في عربته جثة هامدة ومضرّجا بدمائه ، فوقف الفاتح خاشعا يتأمله ، ثم خلع رداءَه وغطّاه به ، وأمر أن يُجهّز ويُسلّم إلى والدته ، ليدفن في مدافن برسيبولس الملكية على الطريقة الفارسية وبالأبّهة اللائقة بعاهل الفرس .

معركة الهيداسب (تموز ٣٢٦ ق.م.) :

على هذا الساعد من نهر السند أظهر الإسكندر فنونا في التحرك وحيَلا في القتال اكثر من كل معاركه ، كان على الفاتح أن يقطع نهراً فائضاً من غزارة الأمطار ، ليصل إلى بوروس ملك تلك المقاطعة المعسكِر على الضفة المقابلة . تظاهر الإسكندر بأنّه عازم على احتياز النهر واصطنع الأمر أكثر من مرة بجدية واهتمام ، وكان بوروس كل مرة ينشر جنوده استعداداً للقتال . وكررالإسكندر الخدعة حتى برم الملك الهندي الذي ما عاد يأبه للأمر ، معتقداً أنّ الفاتح لن يحاول الوصول إليه .وكان الإسكندر قد ارتاد عالية النهر واختار على مسافة بضعةكيلومترات المكان الملائم ، وأعدّ العدة لاجتيازه ،

وتسلل في الليلة المعيّنة إلى المكان المنشود ، تاركـاً قـائده اللامـع كراتـير مـع صـف مـن الجنود مقابل جيش بـوروس ، إمعانـاً في التمويـه ، وعـبر النهـر مـع صفـوة مـن الخيّالـة والمشاة ، وبلغ بعد جهد جهيـد الضفـة الثانيـة .ولكـي يتحاشـى منازلـة بمجمـوع جيـش بوروس الكثيف ، استدرج العدو إلى الاشتباك مـع خيالتـه التسـالية المتفوّقـة ، حتـى إذا وصله المدد مشى إلى المعركة الـتي دامـت ثمـاني سـاعات وكـانت أقسـى معـارك الفتـح وأكثرها ضراوة وعددا في الضحايا .ولكنّ الإسكندر اسـتطاع أن ينـتزع النصـر بفضـل إبلاء خيّالته وصمود الكتائب المكيدونية الرائع ، بالرغم من جَلَد الملك بوروس وبسـالته في القتال ، ومن وجود عدد كبير مـن الفيلـة الـتي لم يكـن جيـش الإسـكندر قـد أجـاد أساليب مقارعتها بعد . وعندما تقابل الملكان ، المنتصر والمنكسر ، بعـد القتـال ، سـأل الإسكندر بوروسَ : " ماذا تريد أن أصنع بك " ؟ فأجابه بوروس بإبـاء : " أن تعـاملني كملك " . فرد عليه الإسكندر ، وقد اعجبته عزّة نفسه : " أردتَ أن تُعـامل كملـك ، فلتبق لك مملكتك " .

القائد العبقري :

بوسعنا الآن ، بعد كل ما تقدّم ، أن نقـول : إنّ الإسـكندر كـان عبقريـاً في التعبئـة وعبقرياً في التخطيط . ويطول بنا الأمر إذا أردنا استعراض ما قيل في الفاتح . لذا رأينـا أن نكتفي بشهادتين وردتا علـى لسـان نـابغتين عسـكريّين ، الأوّل مـن العصـر القديـم والثاني من العصر الحديث :

يخبرنا فلوتارخ [١٦] أن هنيبعل (+ ١٨٣ ق.م.) التقـى في مدينـة أفسـس خصمـه الروماني كيبيون المعروف بالإفريقي (+١٨٣ ق.م.) ودار الحديث طبعاً عن الحـروب والقوّاد وعندما سأل القائدُ الروماني هنيبعلَ مَن أعظـم القـوّاد في التـاريخ ؟ أجابـه هـذا علىالفور : الإسكندر ، وبعدَهُ بـيروس ملـك إِبِّيـيْر ، وجعـل نفسـه في المرتبـة الثالثـة . فداعبه كيبيون قائلاً :

" وماذا لو لم أكن قد غلبتك في معركـة زامـا ؟ " (سـنة ٢٠٢ ق.م.) ، فاسـتدرك هنيبعل قائلاً : " إذاً لكنتُ في المرتبة الأولى " .

أما نابليون الذي كان من عادته ان ينصح قوّادَه بدراسـة معـارك الإسـكندر والتـأمّل بأساليب تعبئـة جيوشـه وبتخطيطـه الحربـي ، فلـه قـول مـأثور [١٧] أدلى بـه ، عقـبَ تتويجه ، لدِيْكْريْس عندما هنّأه هذا ومدحه مشبّها اياه بالإسكندر : " لطالما تمّنيتُ طوال

حياتي أن أكونَ الإسكندر " . ثم توقف قليلاً وأضاف : " ما من عمل عظيم يُمكن أن يقوم به إنسان بعد الإسكندر " ...

الحواشي :

١ – GROUSSET (R.) .. Figures de proue P. 17 seq .

٢ – Encycl • .Universalis , vol . XI , pp . 21 sq : VANTY (EMILE , L' art de la guerre , I, p.p.22 sq et Paul Faure : vie quotidienne des armées d' Alexandre p. 186seq (Hachette 1982) .

٣ – ARRIANO , Storia ..., I , 20 , I.

٤ – كان قوّاد الفرس والبحرية يتباحثون مع إجيس ملك إسبارطة عن شروط التحالف ووضع الخطط ، بغية سحق الإسكندر ، عندما بلغهم خبر انتصاره الكبير في معركة إيسوس . راجع :

WILKEN , Alexandre le grand , p. 112

٥ – قضى فيليبس ثلاث سنوات ، بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة من عمره ، رهينة في مدينة ثيبة ،على زمن القائد الكبير والمخطط الشهير ايبامينونداس (+ ٣٦٢ ق.م.) ، مستنبط خطة الجهة المنحرفة ، فأخذها فيليبس عنه وأدخل عليها ، بعد أن خبرها في معاركه ، بعض التعديلات ليجعلها تتساوق ومعطيات الجيش المكيدوني .

٦ – WILKEN , op . cit ., p. 245 + n . I.

٧ – تختلف التفاصيل لدى كل من المؤرخين فلوتارخ (السير ، الإسكندر ، المقطع ١٦) وأريان (تاريخ الإسكندر ، ١ : ١٦) وديودور (المكتبة ، ١٧ : ٢٠) ، لكنها تتوافق في جوهر الحدث الهام

٨ – هؤلاء المرضى والجرحى قد عذبهم دارا وقتلهم عند مروره بهم . راجع :

ARRIANO , Storia , II , 7 , I .

٩ – Idem , II, 6,6 .

١٠ – Idem , II , 8,2 .

١١ – Idem , II, 9 , I .

١٢ – WILKEN , op . cit ., 141

١٣ – ARRIANO , Storia , III , I I .

١٤ – لم يبلغ تمفصل صفوف الجنود في جيش ، في العصر القديم ، ما بلغته الكتائب المكيدونية ، إذ كانت رماح الصفوف الخلفية ، البالغة سبعة أمتـار طـولاً ،والـتي تقصـر تباعاً ، مركّزة على أكتاف الصفوف الأمامية . فكانت الكتيبة المكيدونية تبدو ، بـبروز أسنّة رماحها ، اشبه بقنفذة حبّارة تتقدّم كتلـة واحـدة وبالتحـام تـام ، تدحـر كـل مـا يعترضها وتطؤه.

١٥ – وعندما أرسل بَرْمينيون قائد الجناح الايسر ، إبّان القتال ، يخبر الإسـكندر أن الفرس ينهبون المخيـم ، ردّ عليـه الفـاتح : " دع هـذا ، لأننـا إمـا أن ننتصـر فنسـترجع أمتعتنا ، وإما أن ننكسر فنخسر كل شيء " .

١٦ – PLUTARQUE , Vies ... Titus FLAMINIUS, IV , 21 , p. 48 .

١٧ – VANTY (EMILE) , op. cit ., I, p. 29 .

الفصل الرابع

الإسكندر الكبير (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م.)
فكرة السيطرة على العالم ومدى حظّه في تحقيقها

هل فكّر الإسكندر في السيطرة على العالم ؟ وبعبارة أخرى ، ما هي الأهداف التي كان الإسكندر يسعى إليها ، يوم ٢٢ آذار سنة ٣٣٤ ق.م. ، عندما ترك مكيدونية متجهاً إلى آسيا ؟ هذا سؤال يصعب الجواب عليه لأن أغلب كبار المؤرخين ما برحوا حتى اليوم على اختلاف في الإجابة عليه (١).

ليس بين أيدينا نصوص أكيدة تفيدنا بصدد تطلعات المكيدوني ، في بدء فتحه ، ولربما كان هو نفسه غير متأكّد من تفاصيل برنامجه ، على أنه يمكننا القول : إن أمله كان على قدر طموحه ، وطموحه لا حد له . ولعلنا ، إذا استعرضنا تتابع الأحداث ، وخاصة ، إذا أنعمنا النظر في المراسلة التي جرت بين ملك الفرس والإسكندر ، نصل إلى الجواب الأقرب إلى الحقيقة .

الفأل الأول :

بعد معركة الغرانيق (آخر ربيع سنة ٣٣٤ ق.م.) ، اتجه الفاتح إلى ساحل بحر إيجة الشرقي ، فاحتله مع قسم من جنوبي ـ غربي آسيا الصغرى ، ثم توغّل في قلب الأناضول وتوقّف عند مدينة غورديون مع جيشه للإشتاء (٣٣٤ ، ٣٣٣ ق.م.) .

وكانت تُحفظ في هيكل زَفْس ، في قلعة المدينة ، كارة قديمة تُنسب إلى الملك غورديوس (٢) . وأغرب ما في هذه الكارة انه كان يَشُدُّ النير إلى عريشها حبلٌ ضخم من اللحاء ، خُفي أوله وآخره ، بتشابكات يتعذّر تمييزها . وكانت قد شاعت نبوءة عن عقدة الكارة ، أنّ الآلهة وعدت مَن يستطيع فكّ الرباط بالسيطرة على آسيا كلها . ووقف الإسكندر أمام هذه العقدة الغريبة وتأمّلها ، وبعد أكثر من محاولة ، استلّ فجأة سيفه وقطعها بضربةٍ واحدة ...

وكانت بروق ، وكانت رعود في تلك الليلة الصافيـة الأديـم ، ممّا جعـل العرّافين ، ومعهم الفاتح والجيش ، يتيقّنون أن الآلهة قد وافقت على ما حصل ، وأن النبوءة سوف تتحقق لصالح الإسكندر .

وفاقت معركة إيسوس (١٢ ت ٢ ٣٣٣ ق.م.) سـابقتها ، بضخامتهـا وأهميتهـا ، إذ لقي فيها الإسكندر دارا ، ملكَ الفرس ، لأول مرة في ساحة القتال وألجأه إلى الفـرار تاركاً وراءه سرادقه الضخم ، وفيه والدته وامرأته مع ابنتَيه وولده الصغير .

توضيح الفكرة :

وبعد هذه المعركة بقليـل بـدأت المراسـلة بـين الملكـين ، فوصلـت السـفارة الفارسـية الأولى إلى مدينة عَمْريت ، على ساحل المتوسط ، تجـاه جزيـرة أرواد ، في خريـف سـنة ٣٣٣ ق.م. حيث كان الإسكندر .

عرض ملك الفرس على الفاتح في رسالته فديةً سخيّةً مقابل إطـلاق سـراح أسـرته ، وعَقْدِ معاهدة تحالف وصداقة بين الدولتين . ويلاحَـظ أنـه لم يـرد في هـذه الرسـالة آيـة إشارة إلى المقاطعات التي احتلّها الإسكندر ، لتركها في حوزة الفاتح أو للجـلاء عنهـا . وكان جواب الفاتح متعالياً حاسماً ، أوضح فيه الإسكندر ، بصراحة المنتصر ، مـا كـان يعتلج في خاطره : ذكّر الفاتحُ دارا بالحروب التي شنّها الفرس على اليونان ومكيذونية ، واتّهم مراسلَه بقتل والده الملك فيليبس ،وأنه مازال يراسل الخونة بين اليونان ويبذل لهـم الأموال لإشعال الثورة ضدّه .

ثمّ قال له في تضاعيف ردّه " إن الحُظوة التي نلتُها عنـد الآلهـة جعلتـي سـيّد مملكتـك ... وإني أصبحت سيّد آسيا ... فهلمّ إلى سيّد آسيا ،واطلبْ مني ما تشاء ...ولا تنـسَ أن تخاطبني بهذا اللقب ... وإذا كنتَ ماتزال تدّعي أنك الملك ، فلا تهرب مـن القتـال لأني سأُوافيك حيثمًا تكنْ " (٣) . وتابع الإسكندر سيره على ساحل فينيقيا ، فاستولى على مدينة صور المنيعة ، بعد حصار دام سبعة أشهر (من شـباط إلى آب ٣٣٢ ق.م.) . وفي ذلك الوقت أرسل دارا سفارةً ثانية (صيف ٣٣٢ ق.م.) إلى الإسـكندر عـرض فيها على الفاتح ، عدا الفدية التي ذُكـرت ، الـزواج مـن ابنتـه سـتاتيرا ، وتَـرْك القسـم الغربي من آسيا الصغرى كبائنة لزواجه بها . فأجابه الإسكندر " إن كل ما تظـن أنـك تعطينيه واقع الآن بيدي ، وإني لست براضٍ بقسـمٍ مـن مُلكـك ، وإذا كنـت تريـد أن تختبر كرَمي فتعالَ إليَّ "

واستولى الفاتح ، بعد صور ، على مدينة غزة (تشرين الثاني ٣٣٢ ق.م.) التي قاومت مدة شهرين ، فدمّرها ، ثم هبط إلى مصر حيث استُقبل استقبالَ المحرّرين ، ونُوديَ به فرعوناً على البلاد ، وخطط لبناء مدينة الإسكندرية ، وقام بحجّته الشهيرة إلى هيكل واحة سيوه (٤) .

وانطلقت السفارة الثالثة من بابل والتقت بالإسكندر قرب نهر دجلة (٥) . وكان ما عرَضَه دارا هذه المرة في منتهى الضخامة ، إذ قدّم للفاتح – مع الفدية التي بلغت عشرين ألف وزنة ، على قول ديودور المؤرّخ – كلَ أراضي مملكته الواقعة غربي الفرات ، واقترح عليه المصاهرة بابنته البكر (غير التي بيد الإسكندر) والمشاركة في الحكم ، والاحتفاظ بولده رهينة عنده ، ضمانة لصدق نواياه .

ولما أبدى برومينيون ، كبيرُ قوّاد الفاتح ، إكباره للعرض قائلاً " لو كنتُ الإسكندر لقبلت " ، ردّ عليه الفاتح بإباء : " وأنا لو كنتُ برمينيون لرضيت " . ثم بعث بجوابه إلى دارا قائلاً " كما أنّ شمساً واحدة تنير الأرض كلها ، كذلك وجب أن تخضع آسيا لملك واحد " (٦) .

وضوح الهدف :

يتضح من كل ما تقدّم أنه لا يُستبعد أن تكونَ فكرة السيطرة على آسيا (في قسمها المعروف آنذاك) ، قد راودت الإسكندر منذ أوائل الفتح ؛ وإذا أخذنا بعين الاعتبار طموحَ شبابه الجامح ، ومجرى الأحداث المتتابعة ، وانتصاراتِه المتتالية تيقّنّا أن كل ذلك قد يكون بلور ما كان مبهماً في ذهنه ، فجسّم تطلعاته ورسّخ أمنياته .

ويمكننا أن نعتبر رد الإسكندر على رسالة دارا الأولى في عمريت ، نقطةَ تحول ، إذ كشف فيها الفاتح بجلاء عن أهدافه ، ولم تستطع تنازلات ملكِ الفرس ، في رسالته الثانية ، أن تثنيه عن قصده ، كما أن العروض المغرية ، في الرسالة الثالثة ، زادته يقيناً من بلوغ مأربه .

وإذا أضفنا إلى ما تقدّم ضآلةَ المعلومات الجغرافية في عصره ، وما كان قد حفظه عن أرسطو من وقوع المحيط الشرقي (أي الأوقيانوس الهادي) بعد صحراء قائمة وراء نهر السند (٧) ، وما ذكره ديودور المؤرخ عمّا خلّفه الإسكندر من مُخطّطات مستقبلية وعن الاستعدادات الضخمة التي بدأ بها ، وما عُزي إليه من تصميم على الدوران حول ليبيا (أي أفريقيا) التي بقي امتدادها المفرط إلى الجنوب مجهولاً حتى اكتشافات دياز

(+ ١٥٠٠ ب.م.) وفسكو دي غاما (+١٥٢٤ ب.م.) ، في القرن السادس عشر ، وما قيل عن تصميمه على الولوج إلى المتوسط من الغرب عبرَ مضيق هرقول (أي جبل طارق) ، وما حشد من بحارة فينيقيين وقبارصة ومصريين لهذا الأمر ، وما أنشأ من أساطيل ومرافئ ، قبل وفاته ، للبدء بتنفيذ مخططاته ، اعتقدنا أنه قصد السيطرة على الغرب ، بعد الشرق ، لجعل ملكه يشمل المسكونة كلها ، وفقاً لأطرها المعروفة آنذاك .

فإلى أي مدى ساعد الحظ الإسكندر على ذلك ؟

الحظ :

الحظ ، ذلك المجهول الذي نعزو إليه كل ما لا نعرفُ سبباً ظاهراً له ، وإليه نَنْسب الأمور التي يصعب علينا شرحها .وكثيراً ما تكون أحكامُنا فيه صادرة تبعاً لفرضيات مبهمة ، لا واعية ، كامنة في أعماقنا ، تُفسد علينا استنتاجاتنا ، فيبقى الحظُ لغزاً دون أي تفسير .

إن اعتقاد المرء أن السعد يواكبه ، يُقوّي ولا شك من عزيمته ، ويؤثّر في توجيه اختياراته ، ويمدّه بنشاط حثيث ، ويُضاعف جَلَده أمامَ الصعاب ، لا سيّمَا إذا تتابعت حوادثُ مؤاتية لم تكن في الحسبان ، تُدهِشُهُ في توافُقِها وتُذهله في مزامنتها .

هذا ما حصل للإسكندر في حياته وبنوع خاص أيام الفتح .

حظ الإسكندر :

راجت لدى عدد كبير من مؤرّخي العصر الهلنستي ، الذين كتبوا عن الإسكندر ، " نظرية طالعه " ، وكرّس فلوتارخ (+ ١٢٠ ب.م.) ، بعد ذلك ، لهذا الموضوع كتاباً خاصاً تحت عنوان " سَعْدُ الإسكندر أو شكيمته " . وكان قصد فئة من هؤلاء الإقلال من عظمة الفاتح وعزو انتصاراته إلى سعده .

إننا مع تسليمنا بأن الحظّ حالف الإسكندر ، أكثر من مرة ، وفي ظروف دقيقة من حياته ، كما سنبيّن ، لا يسعنا إلاّ أن نؤكّد أن الفاتح قارع المستحيل مراراً نشداناً للنصر ، ويكفينا ذكر حصار مدينة صور ، فمن المعروف أنّ هذه الجزيرة المنيعة استطاعت ، في القديم ، أن تصمد خمس سنوات ، أيام شلمنصّر ، ملك اشور ، وثلاث عشرة سنة تجاه نبوخذ نصّر البابلي . أما الإسكندر فبعد أن ذاق الأهوال في هذا

الحصار ، نظراً لصمود المدافعين ومهارتهم وشجاعتهم ، تمكّن من وَصْل الجزيرة بالساحل ، وحاصر المدينة براً وبحراً ، وفتحها عنوة بعد نضال دام قرابة سبعة أشهر . وإن من يطالع تفاصيل مجريات الحصار ، لا يسعه إلاّ أن يؤكّد مقتنعاً أنه لو كان غيرُ الإسكندر عانى عُشْرَ ما عاناه الفاتح ، لضَعف ويئس وفشل . وفي مناطق إيران الشرقية ، ردّ الإسكندر بمهارة نادرة على التحديات الخطيرة التي جابهها ، ولم ينقذه منها سوى جَلَده وثباته وارتجاله الخلاّق . ولا ننسَ أن أكبر انتصارين أحرزهما الإسكندر في حياته ، في معركتَي غوغامل وعلى ضفة نهر الهيداسب ، قد انتزع فيهمَا النصر انتزاعاً ، بفضل جرأته وصبره وتنويع أساليبه القتالية . وفلوتارخ نفسه ، مع إشادته بسعد الإسكندر يقول : " كان من الصعب حمل الإسكندر على ترك أمرٍ ، أياً كان ، سبق وعقد العزم على تنفيذه ، لأن الحظ كان يرضخ لجهوده كما كان يثبته في تطلعاته ... ولم يكن يُخضع أعداءَه بالقوة فحسب ، بل كان يُسخّر الأمكنة والأزمنة لغاياته " . ويُضيف في موضع آخر : " كان الإسكندر يعتقد أنه يُخضع الحظ بجرأته ، والقوةَ ببسالته ، وأن الشجاع يحقق ما هو ممتنع على الرعديد (٨) " .

إذاً سعدٌ من جهة ، وعبقرية وجهود وجراءة من جهة أخرى :

ألم يكن من بوادر حُسنِ طالعه ، يومَ تسلّم العرش ، أن يجد بين يديه جيشاً جاهزاً ، كان الأولَ في زمنه ، قيادةً وبأساً ونظاماً ، فيتحقق ذلك التطابقُ العجيب بين عبقريته العسكرية ومفتاح انتصاراته ؟

وكان اعتقادُ الإسكندر بنجمه يوازي اعتقادَه بآلهته ، وكان يقينُه أن السماء تُسانده وتَحميه ، وأنها أوكلت إليه مهمةً لا بدّ له من تحقيقها . وأنّى له أن يرتابَ من حمايةِ الآلهة له وقد أنقذته من الموتِ المحتّم ، في أولِ معركة له مع الفرس ، يومَ الغرانيق ، فبترت ذلك الساعد القاتل في اللحظةِ التي كاد أن يقضي فيها عليه ؟

أخطاء أعدائه :

وإذا كان تتابُعُ انتصاراتِ الفاتح قد ضاعف إيمانه في حظه ، فإنّ أخطاء أعدائه المتكررة تدهش حتى اليوم مؤرّخيه وتحيرهم .

فكيف يُبَرر مثلاً ، تقاعسُ قادة الفرس عن عرقلة احتياز الفاتح الدردنيل ومقاومة هبوطه أرض آسيا بجنودِه وخيله وعتادِه ، وأسطولُ الفرس كان أكثر من ضعفي أسطول الإسكندر ، وعليه الفينيقيون والقبارصة ، أمهرُ بحّارةِ العصر القديم ؟ (٩) .

ألمع منافسي الإسكندر مِمنون (MEMNON) :

وكيف نشرح ما خدم به الحظ الإسكندر ، فيمّا جرى لـه مـن مِمْنـون ؟ كـان هـذا القائد الرودسي الكبير في خدمة الفرس ، وهو ، دون ريـب ، أعظـمُ رجـل حـرب بـين كل الذين قاوموا الإسكندر ، إذ تمـرّس بفنـون القتـال وسـجّل تفوقـاً كبـيراً في معـارك كثيرة ، واشتهر بما عُرف عنه من جرأة في التخطيط وبراعة في تعبئة الجيوش . وكان إلى جانب ذلك شهماً ، يرى في الحرب سباقَ شرف وبطولة ومنافسةَ علـمٍ وتقنيـة . ذُكـر عنه أنه عندما كان على بعض أسوار مدينة هاليكرناس محاصَراً ، يتفقّد أعمال المقاومة ، كان الإسكندر على أحد المعاقل يوجّه شـؤون قـذفِ المدينـة . وحـدث أن أحـد جنـود ممنون أخذ يومئ إلى الإسكندر ، من أعلى أحد المتاريس ، موجّهاً إليه السباب والكـلام الشنيع ، فما كان من ممنون إلاّ أن توجّه إلى الجنـدي وصفعـه قـائلاً لـه : إنـي أعطيـك جُعالتَك لا لتشتم الإسكندر بل لتقاتله .

وفي اجتماع أركان الفرس في زيليا ، الذي سبق معركة الغرانيق ، اقترح ممنـون علـى مرازبة الفرس وقوّادهم أن يتحاشوا مجابهة الفاتح في معركـة كبـيرة ، وأن يتبّنـوا تجاهـه خطة الأرض المحروقة [١٠] فرُفِـضَ اقتراحُـه ، ولـو اعتُمـد أسـلوبه لكـان عرقـل توغّـلَ الإسكندر ، ولربما قضى على الحملةِ كلِها ، لأننا نعرف ، مما ذكره لنا فلوتارخ [١١] ، أن الإسكندر عندما ترك مكيدونية ، لم يكن لديه مـن المؤونـة سوى مـا يكفيـه لشـهر واحد ، إذ كان يأمل أنه ، خلال هذه الفترة ، يكون قد تمكّن مـن أرض العـدو ، حيـثُ يجد الجيش ما يقوم بأوده .

وبعد هزيمة الفرس في الغرانيق ، أطلق دارا يد ممنون في شؤون الجبهة الشرقية [١٢] ، فصمّم هذا القائد المتفوّق على نزع المبادرة من يد الإسكندر ، ونقلِ القتال من آسيا إلى أوروبا ، وأخذَ يُعدّ العدّة لذلك ، مدعوماً بمال الفرس الكثير ، وبأسطولهم الكبير الـذي لا يـزال مسـيطراً علـى بحـر إيجـه ، وبمسـاندة جيـوش إسـبارطة في الـبر ، مُعتمـداً علـى ديموستين ، عدوّ المكيدونيين اللدود ، ليحرّض اليونان ، مستغلاً امتعـاضهم مـن سـيطرة المكيدونيين ، داعياً إياهم إلى ثورة عامة شاملة ، أما الإسكندر فقد اضطـر إلى البقـاء في مدينة غورديون ، منتظراً ما سوف تـؤول إليـه الأحـداث ، لا يريـد الابتعـاد أكـثر عـن مكيدونية ، إذ قد تضطره الأحداث ، إذا ساءت ، إلى الدفاع عن مملكته . وبينما كـان الفاتح قلقاً يتحرّق على نار الغضا ، وصل إليه ساعٍ على عَجَل يُخبره أن ممنون قد مات بمرضٍ مباغت أَلَمَّ به وهو قائم على حصار مدينة ميتيلين .

وإذا كانت وفاة ممنون خسارة يستحيل على الفرس تعويضهـا ، فإنّ الحظ قد حبا الإسكندر بما كان لا يتصوّرُ العقلُ وقوعَه ، بعدما أوشك أن يرى تبددَ أحلامه والقضاء على عريض آماله في أول سنة فتوحاته .

تقاعس مذهل :

وكيف نُعلّل تقاعس دارا عن استغلال شعاب جبال كيليكيا الصعبة ؟

كانت هذه الممرات ، وهي المعبر الأوحد آنذاك ، أشبهَ بالسراديب في بعضِ أقسامها ، قائمةً على جسور وعوارض من خشب لا تتسَعُ لمرور أكثر من أربعة أشخاص معاً ، وكان يكفي قيام بضع عشرات من الجنود يقطعها أو دحرجة الصخور من أعاليها لصدّ أي جيش يحاول اجتيازها . ويخبرنا المؤرخ " كوانت كورس " (١٤) أن الإسكندر ، بعد تأمّل الشعاب التي اجتازها " عجب من سعده أكثرَ من أي يوم مضى ، واعترف بأنه كان بإمكان بضعةِ صخور ، لو هبط بها ، أن تسحقه " .

وآتى الحظ أيضاً الإسكندر في عدم استغلال الفرس العائقَيْن الكبيرين اللذين وفّرتهما لهم الطبيعة ، فَقَطَعَ نهرَيْ الفرات والدجلة على جسور أقامهـا على مراكبَ صغيرة ، دونما عائق يُذكر .

المجازفة الكبرى :

وأخيراً تعرّض الإسكندر مُجدداً للموت المؤكد ، في مخاطرة اضطر لها وبَلَغَتْ به حدّ الهوَس . وكان ذلك عند الماليين ، إبّان اقتحام عاصمتهم الواقعة بين نهر السند وأحد روافده :

كان الفاتح ،على رأس فرقته الخاصة ، أولَ من ولج باب المدينة بعد تحطيمه ، وكان عليه احتلالُ الحصن الذي لجأ العدو إليه ، فأمر بنصب السلالم ، وإذ تأخر الجنود بإحضارها ، انتزع الإسكندر واحداً من يدي أحدهم وثبّته وصعد عليه . وما كاد يعلو السور ، مع اثنين فقط من ضباط حرسه الخاص ، حتى انطوى السلّم وانكسر ، لكثرة المكيدونيين الذين أرادوا اللحاق بقائدهم .

ولما رأى الإسكندر أنه أصبح ـ في أعلى السور ـ هدفاً منشوداً لوابل النبال من كل صوب، قفز إلى الأرض بين الأعداء ، واستلّ سيفه يصارع وحدَه الأنداد الذين أحاطوا به من كل جانب ... وما كان على الضابطين الحارسَيْن إلاّ أن يقفزا مثلَه لحمايته .

وسدّد أحد الماليين القريبين من الإسكندر سهماً إلى صدره ، اخترق الدرع عند الثدي ، وكان من حسن حظّه أنه ارتطم بإحدى أضلاعه فاستقرّ فيها . وبقي الإسكندر ، رغمَ جرحه البالغ ، يقاوم إلى أن أُغميَ عليه لكثرة ما نزف من دمه ، ولو لم يغطّه بوسوتاس ، أحد الضابطَيْن اللذين لحقاه ، بترس يحميه ، لقضي على الفاتح قبلَ وصول المكيدونيين لنجدة مليكهم ، فحُمل فاقدَ الوعي إلى خيمته .

في غمرة كل هذه الأحداث ، وغيرها ، خدم الحظ الإسكندر ، وكل تعليق عليها يُعتبر من النوافل ، وأقلّ ما يمكن القول عن بعضها ما لاحظه مونتسكيو حين قال " لو خان الحظ الإسكندر مرةً واحدة لخانه إلى الأبد " .

غنائم وكَرَم :

هذا الحظ حمل قائداً ، ملكاً لدولة صغيرة في أوروبا على أجنحته ، فأعانه على قهر ملكِ ملوك فارس ، واحتلال بلاد تكبر دولته عشرات المرات ، وأجلسه على عرش الأكاسرة ، ووضعَ عند أقدامه قناطير من الفضة والذهب ، ما عدا الجواهر الغالية والتحف الثمينة التي كُدّست في عواصم مدن فارس وكبرياتها ، وإذا أهملنا ما غنمه الفاتح ، في كل من سَرْد ، وإيسوس ودمشق وممفيس وأربيل وبابل وأقبطنة ،واكتفينا بإحصاء كنوز العواصم ، لرأينا أنّ ما حصل عليه في شوشن بلغ أربعين ألف وزنة من سبائك الفضة وتسعة آلاف من الذهب ،وفي بازرغاد ستة آلاف وزنة ، وفي برسيبوليس بلغ رقماً لا يكاد يُصدّق ، أي مائة وعشرين ألف وزنة .

وكان الكرم من طبع الإسكندر ، فكيف بسخائه أمام هذه الغنائم ؟ لقد أغدق الفاتحُ على قوّادِه وأصدقائِه وجنودِه الأموال حتى الإغراق ،حتى بلغ البذخ عند بعضِ القوّاد حدَّ الأساطير . يذكر لنا فلوتارخ أن القائد هاغنون جعل مساميرَ أحذيته من الفضة الخالصة ، ونقل ليوناتوس (Léonatos) من مصر أحمَالاً من الرمل الناعم لتمارينه الرياضية ، ونصب فيلوتاس (بجبل برمينيون) شباكَ صيدٍ برية غطّت عدّة كيلومترات . ووصلت أخبار هذا الإسراف إلى مكيدونية ، فكتبت أولمبياس والدةُ الإسكندر إلى ابنها تقول له : " لقد جعلتَ منهم ملوكاً فاعتدلْ " . أما الفاتح فقد بقي على سجيّته ، قريباً من القناعة والترفّع ، وكان يصف البزخ بأنه نوع من العبودية . وعندما رأى ، قبل توجّهه إلى السند ، أن أحمَالَ غنائم أفرادِ عساكره فاقت حدَّ المحتمل ، أمر ، عند تجمّع الجيوش ، أن تُحرق أمتعتُه الخاصة أولاً ومقتنياتُ قواده

وصحبه ، ثم طلب من الجنود أن يفعلوا كما فعل ، فاستكانَ الجيش ونَفَّذَ الأمر بحماسة ، لأن الفاتحَ ساواهم بنفسه .

وكما أُعجب معاصرو الإسكندر بطالعه في حياته وبانتصاراته في حروبه ، شُدهوا عندما خذله الحظّ ، قبل أن يُتم الثالثة والثلاثين من عمره ، إلاّ أنّ بعضَ المؤرخين اللاحقين غبطوا الفاتح ، لأن الحظَ لم يجعلْ نهايتَه على غِرار ما حصل لهنيبعل ويوليوس قيصر ونابليون ، بل أسعدَهُ ، فأماته في أوجِ عزّه ولم يُغلَب في معركة ولم يقتل في مؤامرة ، بل غادر الحياة مأسوفاً عليه ، موشحاً بأرجوانه ، متّوجاً بإكليل النصر والمجد ....

هذا الحظ الذي يرفع ويُذلّ ، يُسعد ويُميت ، دون معيار أو ضابط ، سوف يخلط الأوراق مجدداً بعد موتِ الفاتح ، ممارساً لعبتَه ، لاهياً عابثاً ، مزدرياً كعادته ، وسوف يتخاصم قوّادُ الإسكندر فيمَا بينهم ، وتُقَسَّم مملكته ، ويقاتل الواحدُ منهم الآخر حتى الموتِ ، قرابةَ أربعينَ سنة ، ويأمل بعضُهم توحيدَ الإمبراطورية مجدداً ، وقد فاتَهم أن الحظّ لا يُعيد مسرحيتَه وأن دولةَ الإسكندر ذهبت بذَهاب عبقريتهِ . ...

عبادة الحظّ :

إنّ الاعتقاد بالحظ قديم قِدَمَ محاولة الإنسان فهم تَقلبات الزمن ، إلاّ أنّ معاصري الفاتح ومشاهدي الأحداث التي تسارعت على زمن خلفائه ، زاد إيمانهم به لِما رأوا من كثرة الطوارئ وتقلّبات السعد ، فهل من عجب إذا أصبح الحظ موضوعَ هلعهم وبغية تشوقهم في آن واحد ، يخافونه ويتزلّفون إليه ، فيَعْظُمُ أمره في العصر الهلنستي ويُغالى في عبادته ، فتُنْحَت له التماثيل وتُشاد له الهياكل وتُنظّم له الأعياد والطقوس والشعائر ؟ ولقد أصبح تعظيم الحظ من أهم مظاهر العصر الهلنستي والعصر الروماني بعده .

رجل الحضارة والتآخي :

والآن ماذا بقي من فتوحات الإسكندر ؟ بقيت الحضارة التي نشرها في حملته . أما الممالك فبادت ، والدول التي تبعتها زالت ، وتغيّرت الحدود بتعاقب السلالات والملوك .

حقاً إن أعظمَ ما خدم به الإسكندر البشرية لا يرجع إلى عبقريتِهِ الحربية ، بل إلى نزعته الإنسانية وما توّج به فتحَه ، من جهتَي الحضارة والتقارب بين البشر .

فمن الوجهة الحضارية جعل حملته العسكرية وسيلة لنشر الحضارة اليونانية ، لأنه فهم أن أهمية الفتوحات لا تُقاس بمدى اكتسابِ الأراضي ، بل بما يُحمل إليها من بذورِ حضارةٍ وتمدّن ...

أما الظاهرة الإنسانية فتبدت بأروع صورةٍ لها عندما أقدم الإسكندر على تلك القفزة الجبارة في المجهول ، مُعْرِضاً عن قناعاتِ أستاذه أرسطو ومفكّري عصره أنَّ كل مَنْ ليس يونانياً عُدَّ بربرياً ووجب استعبادُه ، فأضحى بعمله هذا في طليعة من نادى بالتآخي والتعاون بين أجناس البشر ، وهذا ما سنُلمُّ به في الفصول التالية .

الحواشي :

١ – يقول ولْكن " إن ضعف التقليد الذي وصل إلينا لا يجيز لنا الاعتقاد أن أهداف الإسكندر كانت ، عندما وطئ أرض العدو تشمل آسيا كلها " .

(V . WILKEN , ALEXANDRE LE GRAND , PAYOT , p. 90) .

أما رَادِه فيظن أن الإسكندر " كان منذ الساعة الأولى ، وإن لم يفُضِ إلى صحبه أو إلى مندوبي حلف كورنتية بمكنونات صدره ، ينوي أن يقيم عرشه بدل عرش ملك الفرس " . ويضيف : أما أن نسلّم بأن طموحه زاد تدريجياً مدفوعاً بانتصاراته ، فأمر لا يتوافق مع كبريائه المطلقة ولا مع زخم طبعه ولا مع ما نعرف من تاريخه " .

(G . RADET , Alexamdre Le grand , Artisan du livre , p. 27) .

ويقول ليون هومو : " إن الأمر الأكثر احتمالاً هو أن الإسكندر نفسه لم يكن يستطيع أن يعيّن بدقة ، عند بدء الفتح ، برنامجه ، وإذا اعتمدنا مجريات الأحداث قلنا انه لم يطل به الأمر حتى أصبح بعيد الهمّة والمدى " .

(L . HOMO , Alexandre le grand , Fayard ,p. 127) .

ويساندنا في هذا الرأي الأخير كلوشه إذ يقول : " إن الإسكندر الذي لم يكن يفكر في ربيع ٣٣٤ إلاّ بإبعاد جيوش الملك الأكبر (الفرس) عن تراقيا والمضايق ، يعلن عزمه بصراحة ، في آخر سنة ٣٣٣ ، انه يحتفظ بالمقاطعات التي اكتسحها وانه يملك آسيا كلها مكان دارا الذي كسره مرتين " .

(P. CLOCHÉ , Alexandre le grand , Neuchâtel , p. 52) .

٢ – PLUTARQUE , Vies .. Alex ., § 18 Budé , p. 51 .

ARRIANO , Storia di Alessandro , II , 3 Tr Bellani . p . 115 .

٣ - ARRIANO , ibid ., II , 15 .

٤ - نحتفظ ببعض التفاصيل المتعلقة بحجة الإسكندر إلى معبد سيوه حتى كلامنا عن قضية تأليه الإسكندر .

PLUTARQUE , ibid .,. 28, 5 avec les notes de la p. 65 de l'édition Budé .

٥ - هناك بعض الفوارق بين المؤرّخين فلوتارخ وآريان وديودور وغيرهم حول زمن السفارتين الثانية والثالثة ومكانهما ، والعروض المقدمة . إننا نتبع آريان على العموم ، أما فلوتارخ فلم يذكر سوى سفارة واحدة ، وقد أكّد (راده) السفارات الثلاثة في كتابه عن الإسكندر الذي ذكر سابقاً ، ص . ٧٣ - ٩١ ونحن على رأيه .

٦ - DIODORE , Bibliothèque historique , X VII , 54 .

٧ - مما حفظه الإسكندر ، عن أستاذه أرسطو ، أنه يمكن رؤية البحر الشرقي الكبير (المحيط الهادي) من جبال الهندوكوش ، إذ كان يُعتقد أن أراضي البنجاب تنتهي بصحراء حتى ذلك البحر .ولما علم الفاتح من فيغيلاس ، أحد ملوك منطقة السند بوجود نهر كبير وراء الصحراء ، يدعى الغانج ، أراد الوصول إليه ، إلاّ أنّ الجيش المكيدوني رفض مواصلة الفتح .

WILKEN , op ,. cit ., p . 190 , et CLOCHÉ , OP ,. CIT ., p. 160 eq.

٨ - PLUTARQUE , op . cit ., § 26 et 58 , 2 .

٩ - كان أسطول الإسكندر لايتجاوز ١٦٠ قطعة بحرية ، يقودها يونانيون يرتاب الفاتح بولائهم ، بينما بلغ عدد سفن الاسطول الفارسي ٤٠٠ سفينة يقودها الفينيقيون والقبارصة الذين تُحتّم عليهم مصلحتهم البقاء مع الفرس لمقاومة منافسة اليونان التجارية لهم .

١٠ - ARRIANO , op . cit ., 12 , 9 .

١١ - PLUTARQUE , op . cit S 15 .

R. PEYRFITTE , Les Conquêtes d' Alexandre , Aibin Michel , 1979 , p. 75 .

١٢ - ARRIANO , op . cit ., II , I. I .

١٣ – يذكر المؤرّخ (بام) أنه لا تزال حتى اليوم نُقَـرُ الصخـور ، في مواضـع دعـم عوارض الجسور ، بادية للعيان ، في بعض شِعاب الممّر القديم .

(P . BAMM, Alexandre le grand , p. 152 .

١٤ – QUINTE - CURCE , Histoires , III , Budé , p . 14 .

الفصل الخامس :

نشر الحضارة اليونانية في دولة عالميّة

لا نعرف في التاريخ فاتحاً أحاط نفسه برجال الفكر والعلم مثلمّا فعل الإسكندر ، وسوف يتشبّه به بعد أكثر من ألفَي سنة نابليون بونابرت في حملته على مصر [١] .

فلاسفة ومؤرخون وشعراء :

من الفلاسفة الذين رافقوا الإسكندر نذكر " اناكسارك " [٢] وتلميذه " بيرون " ، وكان الأول تلميذ " ديموقريط " المعروف ، أما الثاني فاشتهر مؤسساً للمدرسة الرَيبية المطلقة ، ولا يُستبعد أن يكون قد تأثر ، في موضوع السكينة (Ataraxie) في مذهبه ، بحكماء الهند [٣] . ثمّ الفيلسوف المؤرّخ أونيزيكريت الذي دهش ـ باعتباره تلميذاً لديوجين الكلبي ـ لما رآه من تشابه بين من يُعْرَفون بفقراء الهند وزملائه الذين تركهم في بلاد اليونان ، وهو الذي رافق " نيارك " أمير أسطول الإسكندر في رحلته الاستكشافية من مصبّ نهر السند إلى مصبّات الدجلة والفرات ، فأبْرمه بعنجهياته .

ورافق الإسكندر بصفة مؤرّخٍ رسمي للحملة " كاليستين " ، وهو نسيب أرسطو ، وكان قد ساعد الستاجيري في تقميش نص الإلياذة التي أُهديت إلى الإسكندر ، وهو الذي أصبح فيما بعد من أقوى معارضي الفاتح في تمشرقه ، ممّا سيودي بحياته .

وكان مع الإسكندر رهط من الأطباء لخدمة الجيش ، إلا أنه اصطحب ، للسهر على صحته وصحة رجال حاشيته وقواده ، أربعة آخرين نذكر منهم " فيليبس " من أركانيا ، الذي أنقذ حياة الفاتح من حمى كادت تقضي عليه في طرسوس عقب استحمامه وهو مبلل بالعرق في نهر الكيدنوس الهابطة مياهه الباردة من الجبال ، كما مرَّ بنا .

وكان بين الشعراء " إحين " من أرغوس ، وهو شاعر ملحمي كثير التكلّف ، مغالٍ في الإطراء ، مجّه الإسكندر لتزلّفه الزائد .

علماء ومهندسون :

واصطحب الفاتح في الحملة كوكبة من المهندسين وعلماء الأرض نذكر منهم : " غورغوس " المهندس في المناجم ، وقد عهد إليه الإسكندر بالبحث عن المعادن في البلاد المفتوحة ، وكلّف " بيتون " و " ديوجنيت " ، بمسح الطرق وضبط المسافات وحملها ، مع المراحل ، على الخارطات (١٤) . ونذكر من الجغرافيّين " أرخياس " من بيلاّ و " أندروستين " من جزيرة طاسوس ، وهما ضابطان في الجيش ، و " أرخلاوس " الذي اختاره لجمع المعلومات الطبيعية عن البلاد المفتوحة مع ذكر أنهرها ومناخها ومواردها ووصف المدن مع هياكلها وعادات أهلها .

ومن أشهر رجال الجماعة التي نحن بصددها " أريستوبول " من كاساندريا . فقد كان مهندساً مدنياً ومؤرّخاً وعضواً في ديوان الإسكندر ، وهو الذي أوكل إليه الفاتح ، عند زيارة قبر قوروش في مدينة بازارغاد ، حمل التقدمة الملكية إلى القبر وترميم الضريح وتزيينه .وقد وضع تاريخاً للحملة غنياً بالمعلومات الجغرافية والعلمية والسُّكانية اعتمدها المؤرّخ الثقة " أريان " .

ولا بد من الإضافة إلى من سبق من المهندسين " ديمتريوس " و " دياد " اللذين كانا متخصصين في صنع الآلات الحربية ، وقد برّزا في حصار صور وغزة ، وأقاما الجسور لعبور نهرَي الفرات ، قرب طبساق (الطبقة ؟) ، ودجلة ، قرب نينوى ،وعملا كثيراً في نصب المجانيق لدكّ الحصون وضرب القِلاع الشاهقة في إيران الشرقية .

ملاحون وسفن :

وضم الإسكندر إلى هذه الجماعة ، عندما كان في السند ، مهندسين في صناعة السفن ، أتى بهم من ساحل فينيقيا وقبرص ومصر ، وهم الذين أنشأوا قرابة ألفَي مركب (٥) لهبوط الجيش نهرَ الأندوس ، وأعدّوا سفن رحلة أمير البحر " نيارك " من مصبّ هذا النهر إلى آخر الخليج العربي .

وفي آخر سني ملكه أمر أن تُصنع أجزاء بعض السفن في ترسانات فينيقية وتحمل أجزاؤها براً إلى بابل حيث تجمع وتجهّز للحملة البحرية العتيدة .

ومما يساعدنا على تقدير جهود اختصاصيي جيش الفاتح ، ما اكتُشف مؤخراً في وادي " سْوَاتْ " في مقاطعة غندارة ، عن مدينة " أُوْبَا " التي ذكر مؤرّخو الإسكندر أنه حاصرها وفتحها بسرعة فائقة . والأمر الذي يثير إعجابنا وتساؤلنا هو :

كيف استطاع المكيدونيون ، عبر تلك المسالك الصعبة والمرتفعات الموحشة ، وفي أعالي الجبال الشاهقة ، صنع آلات الحصار ونقلها ونصبها لدكّ مثل هذه المعاقل المنيعة ؟

وقد لاحظ المؤرّخ " وِلْكِن " (٦) ، بعد دراسة مستفيضة للطريق التي سلكها الإسكندر في فتوحاته ، أنه كان ، ولا شك ، عند جغرافيي الجيش ومسّاحيه ، كتاب المحطات أو المراحل للجغرافي اليوناني " إيزيدور من شارَكْس " ، وأن الإسكندر قد تبع طريق البريد الفارسية كما وصفها الجغرافي المذكور ، من أقبطنه (همذان) إلى كندهار ، و لم ينحرف عنها إلا عند واحة مَرْو ، للتمويه ، وعلى أمل مباغتة دارا عندما كان يلاحقه ، مقدرا أن عاهل الفرس قد يكون توقف فيها .

و لم يقتصر اهتمام الإسكندر على شؤون الأرض ، بل تعداها إلى النبات والحيوان . فقد عهد إلى العشّابين وعلماء الحيوان الذين رافقوه ، بالبحث عن كل جديد ، وإرسال عيّنات من كل طريف لأستاذه أرسطو لإكمال بحوثه الطبيعية ، واختار بعض الحيوانات المتميزة وأمر بإرسالها إلى مكيدونية لتحسين الأنسال .

فلك وعرافة :

وكان في صحب الإسكندر فلكيون انضموا إلى الحملة على أمل اكتشاف نجوم جديدة وتحسين خارطاتهم الفلكية ، وعدد من العرّافين أشهرهم " أريستاندر " الذي خدم في عهد والد الفاتح ، وكان الإسكندر يركن إليه أكثر من زملائه ، إذ كان حاذقاً في التخريج ، ماهراً في الاستنباط والتأويل ، بارعاً في استكشاف المستقبل وتفسير الأحلام وجلاء الغيب ، وهو الذي سوف يمدحه " أرْتيميدور " من أفسس (٧) في القرن الثاني بعد المسيح ، أي بعد زمن الإسكندر بخمسة قرون ، ويعزو إليه تفسير معنى السّتير (٨) (Satyre) الذي رآه الفاتح في الحلم إبّان محاصرة مدينة صور . وكان شرح " أريستاندر " استنباطاً طريفاً لا يخلو من النباهة والاحتيال ، إذ أنه قسم لفظة " ساتيروس " اليونانية إلى جزأين فقال للإسكندر : " سا " " تيروس " ، أي لك صور ، فبدد ذلك قلق الإسكندر وشدد عزيمة الجيش وأمله باحتلال المدينة .

الفنون :

وضم الإسكندر إلى الحملة " بيرغوتيل " الصائغ والنقاش الشهير ، وأوكل إليه نقش العملة البرونزية والفضية المعدّة للسكه ، لصرف جعالات الجند ونفقات الجيش والبلاط ، وأمره ببذل الجهد الكبير في تزويق القطع الذهبية وتنويعها لتكون لائقة بعظمة الدولة . كما أنه استدعى أثناء الفتح النحّات " ليزيب " والمصوّر " أبيل " ، وحصر في هؤلاء الثلاثة دون غيرهم حق تمثيله في النقوش والتماثيل والصور .

وأوعز الفاتح إلى " تيسالوس " ، الممثل الكورنثي الكبير ، أن يكون على استعداد لموافاته مع فرقته التمثيلية إلى أمكنة إشتاء الجيش ومراكز استراحاته الطويلة ، للترفيه عن الجنود والإتاحة لسكان البلاد المفتوحة مشاهدة ما حققَ المسرح اليوناني من روائع في هذا المضمار . وفي الحفلة الكبرى التي أقامها في صور (٩) ، غِبّ عودته من مصر وقبل توغلّه في قلب آسيا ، مثّل " تيسالوس " أمام الإسكندر فنال إعجابه فكافأه بإكليل من ذهب وضعه بيده على رأسه ،وكان بين الحضور ملك سلامين (قبرص) مع فرقة تمثيلية رافقته من الجزيرة .

كل هؤلاء ،وغيرهم كُثُر لم نذكرهم خوفاً من الملل ، واكبوا الإسكندر وعملوا في شتى مجالات اختصاصهم . وكان الفاتح يحب الاجتماع من حين إلى آخر بالفلاسفة والعلماء يتحدث إليهم باحثاً بعض المواضيع معهم ، كما كان يطّلع على ثمرات تآليفهم وما جمعوه من معلومات جديدة ، باسطاً أمامهم ما كان يريد معرفته وتحقيقه في البلاد المفتوحة .

ونقل هؤلاء ، بعد موت الإسكندر ، إلى بلاد اليونان وجالياتها ، كل ما كانوا توصلوا إلى معرفته عن الشرقَيْن ، الأدنى والأوسط ، فاغتنى العلم في شتى فروعه . وإذا كانت أكثر مؤلّفات مرافقي الإسكندر لم تصل إلينا ، فقد أفاد منها الرعيل الذي تلاهم ، فامتزجت في تصانيفهم ،وعملت على إنماء التراث العلمي الإنساني ، فكانت من الخمائر الفعّالة التي غذّت الزخم العلمي الذي امتاز به العصر الهلنستي .

الخمائر الحضارية :

لا بدّ لكل باحث في أي موضوع يتعلق بالإسكندر من التذكر دوماً أن حياة الفاتح ، وبالتالي النظم والمنجزات التي حققها ، قد بُترت بتراً دون بلوغ تمامها ، إذ توفي

الفاتح قبل أن يتمّ الثالثة والثلاثين من عمره ، مما أضفى على كل ما أتى به مسحة من الاختبار الموقّت والعمل الناقص .

على أن عبقرية الإسكندر وقدرته المبدعة الخارقة جعلتا أكثر ما قام به أشبه بمعالم وإيحاءات مستقبلية سارت على هداها دول وجماعات ورجالات ، تُقلّدها وتحاكيها ، فجوّدت بعضها وأكملت البعض الآخر ، وهذا ما يجيز لنا التأكيد أن فكر الإسكندر هيمن على كل العصر الهلنستي . أما في القرون التالية فنراه يزيد أو ينقص بحسب الأمكنة ، على أن تأثيره لا يزال باقياً وفاعلاً إلى اليوم ...

وإذا كانت وحدة إمبراطورية الإسكندر قد زالت بموته وجرى تقسيمها بين قواده ، وان كانت ممتلكاته قد تقلصت على زمن خلفائه ، فإنّ الخمائر الحضارية التي بثّها في الممالك المفتوحة بقيت ، فأمضت حقبة حضانة قصيرة أو طويلة تبعاً لقابلية تربة كل منطقة ، بانتظار توفر الظروف المؤاتية لبروز نتائجها . وكان من الطبيعي أن تتأخر النتائج الحضارية ، وليدة الاختمار البطيء ، عن الظاهرات السياسية .

" عالمية " الإسكندر :

من أهم ما حاول الإسكندر تحقيقه في دولته الناشئة ، عدا نشر الحضارة اليونانية ، فكرة " العالمية " الشاملة والمزج بين شعوب الإمبراطورية .

قال " رينه غروسه " : " إن الإسكندر كان أول رجل دولة فكّر تفكيراً عالمياً " . والغريب أن هذا المنحى الذي سار عليه الفاتح كان على نقيضٍ مع ما أخذه عن أستاذه أرسطو الذي ، وان كان جبّار الفكر العالمي ، إلا أنه بقي متقوقعاً في أطر المدينة ــ الدولة الضيّقة . وكان اتجاه الإسكندر معارضاً أيضاً بعالميته كلّ ما ألفاه لدى " إيزوقراط " الذي كانت خطاباته أشبه بصحف اليوم لذيوعها وانتشارها ، كما برز تفكيره مخالفاً لكل ما اطّلع عليه لدى أعلام الأدب اليوناني وما تلقّنه كمسلّمات في محيطه ، وكلها كانت على وتيرة واحدة ، من أن اليوناني متفوّق بالطبيعة ، وان غير اليوناني هو بربري فطرةً ، قد أعدّته الطبيعة ليكون مسوداً . والسؤال الذي يطرح ذاته علينا هو كيف تكوّنت عند الإسكندر هذه النزعة العالمية (١٠) التي أرسى عليها دعائم ملكه وكان لها تلك الانعكاسات الحاسمة على الفكر البشري ؟ نعتقد أنه يمكننا ردّ الأمر إلى عدّة أسباب منها الدينية ، وهي الأهم بنظرنا ، والمزاجية وغيرها واقعية عملية .

تأثير والدته :

إنّ المقومات الدينيـة " العالميـة " للإسـكندر ، توفـرت لـه قبـل ولادتـه وبعدهـا عـبر تصورات أمه أولمبياس (١١) وتخيلاتها : أخبرت هذه أنه في الليلـة الـتي سبقت زفافهـا رأت صاعقة وسط رعود تسقط على أحشائها وتنتشـر في كـل مكـان . هـذا في حقـل التخرصات ، أما الثابت فهو أنها أحاطت طفولة الإسكندر بغرائـب الأسـاطير وغـذّت تقواه بكل ما كان يعنّ على بالها من رؤى وأحلام وتطلعـات مسـتقبلية ، ودرّبتـه علـى ممارسات طقوس وساوسها الدينيـة ، وجعلـت هـذه العبـادات تمـتزج بدمـه وتبلـغ حـدّ التصوّف عنده ، كما عوّدته الاهتمام بخرافات الآلهة والنزوع إلى التفاؤل أو التطيّر أمـام توافه الأحداث ، وقد رافقه ذلك بقية أيام حياته ، فـأصبح يسـتلهمه في كـل مـا يفكـر ويعمل (١٢) .

تأثيرات الميثولوجية :

وممـا عـزّز هـذه النزعـة عنـد الفـاتح اعتقـاده الراسـخ أن سـلالته ترجـع إلى الأبطـال وأنصاف الآلهة لتبلغ به إلى " زَفْس " سيّد آلهة الأولمب ، وانـه ، كمـا أنيـط " بـأخيل " بطل الإلياذة ، جـد والدتـه ، أن يوفّـر النصـر الأخيليـين في حـرب طـروادة ، عُهـد إلى " هرقول " ، جد والده ، أن يطهّر الدنيا من آفاتها وينشر التمدّن ويقيـم دولـة تشـمل العالم كله ، وحتى الهند البعيدة لم تكن غريبة عن الميتولوجية اليونانية ، ف "هرقـول " عبَر القارات ووصل إلى قفقاز الهند (جبال الهندوكوش) لينقذ العملاق " بروميته " من قيـوده ، إقـراراً بفضلـه وعميـم إحسـانه إلى البشـر ، و" ديونيسـيوس " (" بـاخوس " الرومان) ، إله السـكر وأعـزّ الآلهـة لـدى المكيدونيـين ، أعطـى سـكان الهنـد الشـرائع وعلّمهم الزراعة وصنع الخمرة من عصير الكرمة .

وكان " لأريستاندر " عرّاف البلاط الرسمي علـى زمـن الملـك فيليبـس الـذي سـوف يلازم الإسكندر في حملته ، الأثر الحاسم في تقوية إيمانه ، أي أنَّ عليه القيام بمـا عهـدت السماء إليه مما يتوافق ومجد سلالته وشرف أرومته وأحلام والدته .

ينبغي أن لا نستخف بهذه الروايات ، لأنّ الاعتقادات ، إن كانت نابعة عـن سـريرة صادقة ، أو باطلة ، تأتي بالمفعول نفسه ، وعلينـا أن نتذكـر أن هـذه الأسـاطير كـانت أعظم مدعاة للفخر عند الإغريق ، فكم خلقت من منازعـات وأشعلت مـن حـروب ، وسـوف تبقـى علـى ممرّ العصـور أرسـخ دعامـة للمطالبـة بـالحقوق وأقـوى سـند في

المفاوضات عند إبرام العهود . هذه القصص الميثولوجية أخصبت مخيّلة الإسكندر فزادت جموحها وكانت له متكأً للنزوع إلى المطلق في كل ما ابتغى تحقيقه.

تقوى الإسكندر :

كان الفاتح كثير التديّن (١٣) يتقرّب كل يوم إلى الآلهة بالطقوس والقرابين ، ولا يعقد العزم على أمر مهم دون أن يشفعه بالتقادم .

ألمْ يشخص ، قبل أن يذهب إلى الفتح ، إلى عرّافة دِلْفْ مستطلعاً مستقبل حملته ؟ وما كادت هذه تقول له : " يا بني إنك لا تقاوَم " (١٤) حتى اتخذ قولها شعاراً له واعتبره بمثابة حرز وتميمة ، فلم يذق مرارة الانكسار مرة واحدة في حروبه .ويوم قطع بضربة سيف واحدة عقدة " غورديون " ألَمْ يضمن لنفسه مُلك آسيا ، وقد تحقق له ذلك ؟ وعندما سمّاه كبير كهّان معبد " سيوه " بابن " زفس ـ أمون " ، ألم ينتدبه ، ببركة هذا الاسم ، للحكم على البشر ؟ وكيف ، بعد أن دخل بابل وتسلّم يد " مردوك " ، عظيم آلهتها ، لا تؤول إليه أقطار الأرض الأربعة ؟ وساعة وقف أمام جثة دارا ألم يكن " أهورامزدا " إله الفُرس قد أقرّه وارثاً شرعياً لملك ملوك فارس ، ونائباً له على الأرض ليسوس المسكونة كما يسوس الإله عوالم السماء ؟ وهل من عجب ، بعد أن سنّمته الآلهة إلى قمة المجد ، انْ أصبح يرى الشعوب والأجناس وسائر البشر سواسية ، لا فارق أو ميزة لأمةٍ على أخرى بين يديه ؟ ولقد غدت بناظره تلك الحروب المستمرة التي أجهدت اليونان واستنزفت دماء أبنائها على ممرّ السنين لكسب بقعة صغيرة من أرض ضيقة ، أشبه " بحروب الجرذان " ، كما نعتها ....

حقاً انه لا يمكن فهم عالمية الإسكندر وفتحه الخاطف والمدهش دون الأخذ بالحسبان ذلك التوتر الديني الذي لازمه وجعله يعتقد أن رسالةً سماوية قد أُنيطت به ، وأنّ المجد كل المجد قائم على تحقيقها ، وأنّ عليه جمع قارتي أوروبا وآسيا تحت إمرته في حكم واحد ، لأن وجود شمسين ، كما قال ، يُخلّ بنظام العالم برمّته ...

واقعية الإسكندر :

إنّ الفارق بين اليونان والبرابرة طمسه ما رآه الإسكندر بأم العين من رقيّ في فينيقيا ، وعظمة وعلم في مصر ،وثقافة وأُبهة في بابل ، وغنى ونظام في فارس . كل ذلك جعل الإسكندر يُوقن أن إمبراطورية دارا ، وقد خشعت له ، ستكون معيناً لا ينضب

بكنوزها ورجالها ، وخير عون وسند له فيما يخططه لبسط سيادته على الشطر الغربي من المسكونة .

الحواشي :

١ - RAUX (F - CHARLES), Bonaparte, gouverneur d Égypte : , Plon .

- PROD' HOMME (J. - G), Napoléon : léttres , discours , Proclamations , ordres etc ... Mercure de France , 1938 , pp. 138 - 151

مع ملاحظة أن نابليون ذكّر جنوده ، في النداء الرسمي الذي وجّهه إليهم من على ظهر سفينة القيادة " الشرق " قوله : " إن الإسكندرية التي بناها الإسكندر ستكون أول مدينة يحلّون فيها . وفي القاهرة اقتدى نابليون بالإسكندر بما كان أجراه هذا من عرض عسكري ومباريات في ممفيس .

وعن نشاط نابليون العلمي ، انظر نص القرار الرسمي ، بتاريخ ٢٢ آب عام ١٧٩٨ ، بإنشاء المجمع العلمي المصري في القاهرة ، عند

LACROIX (DÉSIRÉ), Bonaparte en Egypte , Garnier , 1899 , pp . 162 ss .

٢ - كان " أناكسارك " عدواً لدوداً للملك قبرص " نقوكريون " ويُقال أن هذا تمكّن من الفيلسوف بعد موت الإسكندر وأهلكه هَرْساً في جرن . ويذكر " فلوتارخ " أن " أناكسارك " خفف ألم الإسكندر بعد قتله " كليتوس " (خاله في الرضاعة) ، ولكنه عزز غروره وشجّعه بعمله هذا على مخالفة الشرائع .

٣ - DIOGENE DE LAËRCE , II, 9, p. 191 .

٤ - لاحظ " برتيلو " أن قياسات المسّاحين التي أُخذت للطُرق التي لم تصل إليها جيوش الإسكندر ، أي تلك التي مُسحت على زمن " سلوقس " الملك ، كانت غير دقيقة .

BERTHELOT (A) : L' Asie Ancienne ... d' après Ptolomée , Payot p. 181.

٥ - ARRIANO , Storia di Alessandro , VI , 2 .

٦ - WILKEN , Alexandre le grand , Payot , p . 164 .

٧ – ARTEMIDORE , La clef des songes , Vrin , p . 44

٨ – من المعروف أن " الستير " حيوان خرافي نصفُه الأعلى على شكل إنسان ونصفُه الثاني على شكل ماعز .

٩ – PLUTARQUE . Vies ... Alex § 29 .

١٠ – يعتقد " ماير " أن النزعة العالمية تفتقت للإسكندر في مصر

MEYER . Panorama de l 'histoire universelle .Payot , p . 12 .

١١ – PLUTARQUE , op . cit ., § 2 .

١٢ – ليس من المستغرب أن يكون الإسكندر ، وهو ابن القرن الرابع قبل المسيح ، على ما وصفنا ، إذا تذكرنا أن أكثر الناس ، حتى بين المثقفين ثقافة عالية ، كانوا على مثل هذه الأمور ، إلى ما بعد القرن السادس عشر ، عصر النهضة ، إذ يقول أحد أعلامهم : " إن العالَم مملوء بقوى خفية تحيط بنا وتؤثر فينا ... وان الأرواح تحاصرنا من كل جانب وتخطط مصيرنا " . راجع :

FEBVRE (Lucien) , Le probléme de l'ineroyanee au XVI s ., Albin Michel p. 478 + la note , et les pages 479 , 481 , 487 .

١٣ – من مظاهر تقواه أنه في مرضه الأخير الذي لم يدم سوى عشرة أيام لم ينقطع ، في الأيام الستة الأولى ، عن التقادم المعتادة ، وكان يُحمل على محفّة إلى الهيكل ليمارس تعبداته . وفي اليوم السابع من مرضه ، عندما خارت قواه ، أمر أن يبقى في الهيكل PLUTARQUE , op . cit ., § 76

١٤ – قد يروق القارئ معرفة الظروف والملابسات التي سبّبت قول العرافة للفاتح : كان يوم وصول الإسكندر إلى هيكل " أبولون " في " دِلْف " يوم شؤم لا يحلّ فيه التنبّؤ ، وأصرّ الفاتح على العرافة رغم الحظر للوصول إلى غايته ، حتى كاد أن يحملها إلى الهيكل ، فتبرّمت منه قائلة له " يا بني ، إنك لا تُقاوَم " . وما إن سمع الإسكندر كلام العرّافة حتى تركها وشأنها ، معتبراً أنه حصل على مبتغاه ،ولم يعد بحاجة إلى نبوءة أخرى . PLUTARQUE , op . cit . § 14, 6 .

الفصل السادس :

المزج في الإدارة والنقد وتأسيس المدن

الإدارة :

كان الإسكندر ، بعد كل مرحلة من فتوحاته ، ينظّم ما اكتسب من أرض ، مراعياً مقتضيات الحرب ودواعي الفطنة والحذر وضمان تأمين خطوط مدده ومواصلاته . ومن الملاحظ أنه أبقى ، بوجه عام [١] ، على التقاسيم الإدارية الفارسية ، وكأني بالإسكندر ، وقد شعر بعد انتصاره الباهر في معركة " غوغامل " ودخوله مدينة بابل ، أن بلاد فارس قد أصبحت في قبضته ، فعيّن لأول مرة مرزبانَيْن فارسيين على " بابل " و " شوشن " ، محاولاً خطب ودّ المغلوبين للمزج والتوحيد اللذين قد يكون أخذ يتطلّع إليهما منذ ذلك الوقت كأي حلّ محتمل .

من المرازبة الاثني عشر الذين عيّنهم الإسكندر بين سنتي ٣٣١ و ٣٢٧ ، لا نجد سوى مكيدوني واحد ، أمّا البقية فكانوا من الفرس ، غير أنه راعى الحيطة ، إذ كان يعلم دون شك كم نزع مرازبة الفرس ، في أواخر حقبات ملوك فارس ، إلى الثورة والاستقلال ؛ لذا قلّص مسؤوليتهم المالية فأضحت سلطتهم شبه إدارية ، وأقام إلى جانب كل مسؤول مدني قائداً مكيدونياً إليه وحده ترجع أمور الجيش وعليه يقع كامل التبعة تجاه الفاتح . وبكلمة أخرى يمكننا القول : إنه عمل عند اللزوم على الفصل بين الإدارات المدنية والمالية والعسكرية .

وكان على رأس هذا الهرم الإداري ، إلى جانب الإسكندر ، كوكبة قليلة العدد واسعة النشاط تعاونه على تصريف شؤون الدولة والفتح . وأهمُّ من يُذكر بينهم سبعة يؤلّفون " مجلس مشورة الملك " ، منهم " هيفستيون " الذي كان يقوم بمهام الوزير الأكبر ، و" أومين " حافِظ الأختام ، وهو يوناني قد أُنيطت به شؤون رئاسة الديوان الملكي .

وإنّ ما اشتهر به الإسكندر من سرعة الاستيعاب والنفوذ بسهولة إلى عمق أدقّ المشاكل والأمور ، وما عُرف عنه من " الارتجال الموفّق " ، وهو صفة امتاز بها بين

مظاهر عبقريته المتعددة الجوانب ، جعله يحتفظ لنفسه طوال فترة ملكه بعمل جبار لو وُزِّع على حفنة من الإداريين المتمرسين لأرهقهم وأعجزهم .

وكان من عادته أن يمحض معاونيه ثقته ، إلا أنه كان متشدداً يُصرُّ على الإتقان في التنفيذ ويقتصّ بصرامة من المذنبين والعابثين والمهملين ، كما فعل بعد رجوعه من حملة الهند عندما قام بعملية تطهير واسعة في الإدارة فأعدم المتآمرين على سلطته وعاقب سارقي أموال الخزينة ومنتهكي حرمة الهياكل والقبور (٢) ، وكان بين المذنبين ثلاثة من القواد المكيدونيين ومرزبان فارسي ، فأعدمَ القوّاد وشنق الفارسي .

تعدّد الأساليب :

إنّ من يتتبّع ما استنبط الإسكندر ونوّع من أساليب في الإدارة المدنيّة لا بدّ له من أن يعجب من مرونة الفاتح في تكييف الحلول المطابقة للواقع ، من جمع السلطات في يدٍ واحدة ، كما فعل في فريجيا ، إلى فصلها ، كما عمل في ليديا ، أو تقليصها ، عندما عيّن ولاة بلديين في مصر ومرازبة فرس في إيران ؛ ومن مناصرة الديموقراطية في مدن ساحل إيجه إلى دعم حكم " الراجا " الفردي ، في مقاطعات شمالي السند الكبيرة ، مراعياً في كل ذلك أبواب اليقظة وواقع الحرب القائمة ومتطلبات الأمن ، ومُبْدياً تفهماً سمحاً لحفظ شرائع كل أمة وتقاليدها ، واحتراماً لآلهتها وللمعتقدات الموروثة .

وغبّ رجوع الفاتح من الهند ، نراه يعيد النظر في تعيين بعض مرازبة الفرس ، فيقلّص عددهم لِما نُمي إليه عن بعضهم من تقاعس في خدمته أو مناصرة خفيّة لمقاومي حكمه ، بلغت ، عند قلّة منهم ، العصيان أو الخيانة ، كما فعل " أرشام " و " ساتيبَرْزان " . كل هذه الاعتبارات وغيرها جعلت الإسكندر يقلّل عدد المرازبة الفرس حتى غدا لا يعدو الثلاثة عند وفاته .

المالية والنقد :

نظّم الفاتح مصلحة الجباية فأنشأ إدارات مالية إقليمية وإدارة عامة مركزية ، وفصل بين أموال الفيء ونفقات الجيش وإدارة الجباية ، واختار الإسكندر همذان مركزاً للخزن والالتقاء وترابط التموين والتوزيع في الشرق الأوسط ، ونقل إليها كنوز العواصم التي بلغت حسب تقدير المؤرّخين الثقة قرابة ١٨٠ ألف وزنة . ومما ورد في

هذا الصدد أن حَمْل الكنوز والتحف الثمينة من العواصم إلى همذان قد احتاج إلى عشرين ألفاً من البغال وثلاثة آلاف جمَل [٣] .

وحوَّل الفاتح قسماً كبيراً من سبائك الفضة والذهب التي كانت مكدّسة في خزائن ملوك الفرس إلى دور السكة ، فارضاً عملة موحّدة ، فضة وذهباً ، على الإمبراطورية كلها من أقصاها إلى أقصاها [٤] ، معتمداً عيار أثينة . وفي مدينة طرسوس ضرب أوّل عملة له ، جاعلاً عليها صورة هَرْقول ، مشخّصاً به ملتحفاً جلد الأسد ، دلالة على سلالته . وكان " لِيْزيماك "، عندما أصبح ملكاً بعد موت الفاتح ، أوّلَ من نقش صورة الإسكندر بقرنَيْ آمون [٥] ، على ذكرى حجِّ المكيدوني إلى هيكل " سيوة " ، وتبعه في ذلك " بطليموس " ، ممثّلاً رأس الفاتح بسليخ الفيل ، رامزاً إلى استيلاء الإسكندر على السند وعلى اتحاده الروحي ب " ديونيسيوس " الهندي [٦] .

وانتشرت عملة الإسكندر ، ولا سيّما قطعة " الدراخمات " ، انتشاراً واسعاً في كل الأسواق العالمية ، وأصبحت أكثر هذه المسكوكات نماذج قلدت في العصر الهلنستي وبعده .

وانتقل الإعجاب والتعظيم اللذان رافقا ذكرى الإسكندر عبر العصور إلى نقوده ، فجعل الإمبراطور الروماني " كركلا " (+ ٢١٧ ب.م.) صورة المكيدوني على بعض مسكوكاته . وبعد أكثر من سبعة قرون من موت الفاتح ، نرى القديس يوحنا ، الفم الذهب (+ ٤٠٧ م) ، يشجب في عظة له شغف أهل إنطاكية بحمل "عملة" الإسكندر وتعظيمها باعتبارها تمائم حامية نافعة .

نقص في المستندات :

يصعب علينا ، بسبب قلّة التفاصيل والأرقام التي بين أيدينا ، أن نتبيّن مفردات دخل دولة الإسكندر وخرجها ، ولا عجب إذا تذكرنا أن الشقّ الأول من فتوحاته في الشرق قد انتهى بانتهاء حياته ، وأنه لم يعطِ الوقت الكافي لتنظيم مدخول الإمبراطورية ومصروفها وضبطها .

اعتمد الفاتح في الدخل على الضرائب والمكوس ، وعلى موارد أملاك عاهل الفرس الخاصة التي آلت إليه ، وهي حد ضخمة ، بالإضافة إلى الوفر والكنوز الغالية التي وُجدت في خزائن الدولة ، وقد ذكرنا بعضها بشيء من التفصيل . أما النفقات فكانت

تتناول جُعالات الجيش ونفقات البلاط المتنقّل الضخم فيمن ضمّ من رجال العلم والفكر الذين كانوا بمعيّة الفاتح .

ومعلوم أنّ الحروب تبتلع الأموال ، فكيف إذا أضيفت إليها نفقات تجهيز أسطول كبير كان الفاتح يُعدّه لاستكشاف سواحل شبه جزيرة العرب ، وإنشاء المدن والموانئ والقيام بعدّة مشاريع معاً للمصلحة العامة (تجفيف المستنقعات وحفر أقنية الري) ، وترميم الهياكل في مصر (الأقصر والكرنك) وفي بابل (هيكل " الإيزاغيل لمردوك ")؟

وإذا أضفنا إلى كل ذلك كرَم الإسكندر (٧) ، وما كان ينفقه على الفرَق التمثيلية التي كانت تقصده من بلاد اليونان إلى محطات استراحة الجيش ، وما كان يجود به على القواد والضباط والجنود من مكافآت ، وما كان يهب الفنانين من جوائز في الحفلات والمباريات ، والهدايا التي خصَّ بها عشرة آلاف جندي (٨) الذين رغبوا في الزواج من فارسيات ، كما فعل في " شوشن " ، والأعطيات التي منحها الجنود الذين أعفاهم (٩) من الخدمة ، كما فعل في " أوبيس " ، وما ذهب ضحيّة الإسراف (١٠) في النفقات ، والسرقات ، مثلما صنع " هربال " ، رفيق الفاتح في حداثته ، لمّا هرب بخمسة آلاف وزنة عند رجوع الإسكندر من الهند ، وأخيراً ما حوَّل من سبائك الفضة والذهب للسك ، في سبيل إنعاش الاقتصاد ، إذاً لفهمنا كيف أن الفاتح لم يترك في خزينة الدولة عند موته سوى خمسين ألف وزنة على أحسن تقدير .

الأهداف الكبرى :

يمكننا التأكيد أنّ سياسة المزج العرقي بين الشعوب المتعددة في الإمبراطورية مع النزوع إلى التوحيد نمت عند الفاتح خلال سني ملكه حتى أصبحت في الحقبة الأخيرة من حياته هدفه الأسمى ، غير ما كان يُعدّ من تصاميم مستقبلية تهدف إلى نقل السكان بين اوروبا وآسيا ، كما ذكر " ديودور " المؤرخ . إلا أن هذه المشاريع بقيت دونما تحقيق عقب موت الإسكندر المفاجئ .

إنّ قولنا عن أمنية الفاتح الكبرى لا يتعارض البتة مع وجود أهداف أخرى سعى إليها المكيدوني أوّل فأول عندما أكثر من تأسيس المدن في المقاطعات الإيرانية الشرقية وعلى مشارف الهند وعلى ضفاف نهر السند ومصبه. فلقد كانت غايته الأولى من هذه الإنشاءات ، وهو الفاتح قبل كل شيء ، خدمة أهداف الإستراتيجية في دعم قوته العسكرية وتدارك كل مقاومة وضبط خطوط مواصلاته . على أنّ قيام عدد من هذه

المدن على تقاطع الطرق الرئيسة ساعدها لتصبح مراكز مرموقة للتبادل التجاري ، فتبع ذلك إنشاء الأسواق وتبلُّد السكان والتمازج بين الأجناس .ومما يثير العجب أنّ هذا المستقبل والانتفاع التجاري كانا ملحوظين في تفكير الإسكندر عند اختياره مواقع بعض هذه المدن ، كما أشار إلى ذلك أكثر من نص وجدناه عند أقدم مؤرّخيه ؛ والأمر الأكثر غرابة أنه صادف ذلك زمن انهماكه بأصعب أمور الحرب وانشغاله في القضاء على أقسى المقاومات . فمرامي الفتح المتعددة عند المكيدوني كانت تتساوق وتتكامل في خدمة مبتغاه : فالنصر العسكري ، وإنشاء المدن ، والازدهار التجاري ، وربط أقسام الإمبراطورية فيمَا بينها براً وبحراً ، ونشر منجزات الفكر اليوناني كانت جميعاً تهدف لدى الفاتح إلى ترسيخ دعائم دولة قوية مزدهرة ذات حضارة عالمية واحدة .

تأسيس المدن :

نَسب " فلوتارخ " إلى الإسكندر بناء سبعين مدينة ، وهو رقم ولا شك مبالَغ فيه ، ومن المحتمل أنّ المؤرخ المذكور شمل بذلك الحصون والقلاع (١١) ومراكز التموين ، أو نسب إلى المكيدوني مدناً بناها السلوقيون بعده . أما العدد الذي يتفق عليه العلماء اليوم فلا يبلغ الأربعين .

ويُلاحظ أن الفاتح لم يؤسّس سوى مدينة واحدة في أفريقيا ، وهي أشهر الإسكندريات قاطبة ، اختطّها قرب ضيعة أم مغمورة تدعى " راكوتيس " ، ثم نقل إليها سكان " كانوب " ، البلدة الصغيرة القريبة منها . فمن الإسكندريات ما أعاد الفاتح بناءها بعد أن خرّبها لمقاومتها إياه ، مثل صور وغزة ، ومنها ما دَثَرت وذهب ريحُها أو بقي مكانها مجهولاً إلى أن كشفت عنها أخيراً معاول المنقّبين ، كما كان أمر مدينة " أي - خانوم " في التركستان الروسية ، وقد ثبت الآن أنها بُنيت بعد موت الإسكندر ، ومنها ما يحوم الشك حول مكانها ، مثل إسكندرية القفقاز ، إذ يرجّح البعض أنها مدينة " بغرام " نفسها ، على بُعد ٤٠ كلم من " كابول " .

ومن المدن الباقية عامرة إلى الآن إسكندرية " أريا " ، وتقع في شرقي أفغانستان باسم " هرات " ، وكانت في العصر الوسيط ، في عهد السلالة التيمورية ، من أغنى مدن آسيا ؛ وإسكندرية " أركوزيا " ، " كندهار " اليوم ، الواقعة على نهر " الهلمند " في أفغانستان ، وقد وُجد قربها أحد أنصاب الملك " أشوكا " باللغتين الآرامية واليونانية ، والإسكندرية القصوى " خوقند " حالياً ، القريبة من ضفاف نهر " سرداريا " الأعلى ،

إلى الجنوب الشرقي من سمرقند ، في التركستان الروسية ، وسُميت القصوى لأنها أبعد المدن التي بناها الإسكندر إلى الشرق ، وكان ذلك إبّان ثورة الصغد ، وإسكندرية مصب " الاندوس " ، وهي كراتشي اليوم ، وقد أُقيمت بأمر الفاتح على غربي الدلتا ، تحاشياً من طمي مصبّ النهر ، كما فعل عندما اختار مكان إنشاء إسكندرية مصر ؛ أما " الإسكندرون " ، على الساحل السوري ، فالبعض يعزوها إلى الإسكندر وآخرون إلى الملوك السلوقيين .

وكما نسبت إلى الفاتح مدن عديدة ، تنافست أعظم الأُسَر الملكية في التاريخ القديم (مصر وفارس) على احتواء الإسكندر وضمّه إلى سلالاتها ، وإلى عهد قريب تباهى أكثر من أمير في البنجاب والهند بوشائج القرابة منه ، فصيغَت أغرب الأساطير ، متحديّة الأزمنة والمسافات وكل معقول ، للتغّني بمجد موهوم . وما صُنع في التاريخ جرت محاكاته في الآثار الشرقية الباقية . ففي " البنجاب " يُنْسب السكان أكثر من أثر إلى الفاتح . وقرب " روالبندي " ، مثلاً ، يعتقد أهل المنطقة أن إحدى " الأسطوبات " (١٢) ليست سوى قبر " بوسيفال " فرس الإسكندر (١٣) .

السكان ونظام المدن :

أسكن الفاتح في هذه المدن مكيدونيين ويونانيين ومرتزقة ، وأكثرهم من المحاربين القدماء ، مع جماعات من البلديين . وكان من المحتّم أن يحصل التمازج بالزوجات لشبه انعدام النساء الآتيات من الغرب .

وزُوّدت هذه المدن ، على العموم ، بالمؤسسات العامة التي لا بدّ منها لقوام الحياة اليونانية الأصيلة ، ولم تُعط طبعاً الاستقلال والسيادة ، شأن " البوليس " القديمة ، إنما كان لها مجالسها ومحاكمها ومنظّمة فُتُوّتها مع ميدان للرياضة البدنية ، وكانت تنعم بالحرية في إدارة أمورها الداخلية ، وبمالية مستقلة ، فكانت إذاً أشبه بما نعرفه اليوم عن البلديات في الأمم الراقية . على انه يبقى من المشكوك فيه كثيراً أن نعرف هل كانت حقوق المواطنة أُعطيت لكل سكان هذه المدن أم أنهم كانوا على درجة واحدة ، لا سيّما بعد موت الإسكندر ،وقد أصبحت الأهداف التي سعى إليها الفاتح من وراء تأسيس المدن مثلاً أعلى يُستلهم دون أن يُحقق ؟ ومهما يكن من هذا الأمر فقد بقيت غالبية هذه المدن قروناً عديدة ، بؤرة إشعاع للحضارة اليونانية ، وكانت تُعرف عند أهل تلك البلاد بالمدن " اليونية " .

الحواشي :

١ – قام " برتيلو " بعمل دقيق فجمع عدة لوائح قديمة لمقابلة التقسيمات الإدارية في الإمبراطورية الفارسية . أخذ لائحتين عن " هيرودوت " ، الأولى تعداد المرزبانات (الكتاب ٣ ، الفصول ٨٩ - ٩٧) ، والثانية لائحة فِرَق جيوش " خشايرشا " الأول (الكتاب ٧ ، الفصول ٦١ - ٧٨) ، ثم ثلاث لوائح عن نقوش " برسيبوليس " ونَقْش " بيهاستون " وقابلها بلائحة تقسيم سنة ٣٢١ (بعد موت " برديكاس " الوصي) كما وردت عند المؤرّخين بعد اجتماع " براديزوس " (الربلة ؟ قرب حمص) ، فكانت أهم الفروق التي لاحظها :عدم ذكر أرمينيا ؛ التقسيم الجديد للهند (هند " تكسيلا " وهند " بوروس " والهند الجنوبية) ؛ جمْع مقاطعتَيْ " سيرداريا " و " أموداريا " في مرزبانة واحدة .

BERTHELOT (A.) L' Asie ancienne .... d' après Ptolomée , Payot , p . 75 .

٢ – ذكر " فلوتارخ " أنّ الذي انتهك حرمة قبر قورش كان " بوليمّاك " المكيدوني المعروف ، وهو من مدينة " بلاّ " العاصمة ، وقد أمر الإسكندر بإعدامه .

٣ – اختار الإسكندر تتالياً " شوشن " ثم " همذان " وأخيراً "بابل " ليودع فيها خزينة الدولة المركزية .

L' impérialisme Macédonien , A . Michel , p . 91 . de Jouguet .

٤ – يرجح أنّ الإسكندر ترك امتياز ضرب العملة البرونزية لبعض الهياكل الشهيرة في دولته ، مثل هيكل " بتاح " في مصر ، وهيكل " اتارغاتيس " الآلهة السورية في " موبوج " (ممبج ، قرب حلب) وغيرها ، مع فرض الوزن والعيار والشعار الرسمي .

٥ – انتشرت أغاليط كثيرة حول معنى القرنين ، على قدر ما شاع لقب الفاتح بها ، فقيل : الإسكندر ذو القرنين . وذاع التعليل الساذج أنّه لُقّبَ بذلك لأنه ملك الشرق والغرب . أما الحقيقة فهي أن القرنين يرمزان إلى الإله " آمون " (" زَفْس ـــ آمون ") وقد زُيّن بهما رأس الإسكندر على أنه ابن " آمون " كما دعاه رئيس كهان معبد " سيوة " .

٦ – يمكن رؤية نماذج من هذه القطع البديعة في منشورات معهد العاديات الشرقية التي تصدر في بيروت ، أو أقلّه في كتاب

BAMM , Alexandre le grand , pp . 66 , 67 .

ومعلوم أنّ اليونان أخذوا عن الفرس عادة تزيين مسكوكاتهم بصور ملوكهم أو مرازبنتهم ، مع العلم أنّ أكثر هذه القطع كانت من صنع النقّاشين اليونان .

٧ – دفع الفاتح في " شوشن " عشرين ألف وزنة ليفي ديون جنوده .

ARRIANO , Storia di Alessandro , VII , 5,3

٨ – ARRIANO , Ibid , VII , 4 , 8 .

٩ – تجاوز عدد هؤلاء عشرة آلاف ،وقد أخذ الإسكندر على عاتقه نفقات نقلهم إلى مكيدونية بعد أن صرف لهم جعالتهم وأهدى كلاً منهم وزنة . والطريف أن المؤرّخ " ديودور " عدّهم عشرة آلاف (الجزء ١٧ ، العدد ١٠٩) ثم جعلهم ثلاثة عشر ألفاً (الجزء ١٨ ، العدد ١٢٠) في الكتاب نفسه .

١٠ – رُصد لتكاليف الضريح الذي أمر الإسكندر بإقامته تخليداً لذكر " هيفَستيون " عشرة آلاف وزنة ،والمرجّح أن هذا المشروع الجبّار لم يتمّ إنجازه إذ أنَّ الإسكندر تبع وشيكاً أعزّ صديق له .

١١ – عثرت مؤخراً (سنة ١٩٧٨) إحدى بعثات الآثار السوفييتية على حصن كبير بناه الإسكندر قرب نهر " سرداريا " في ضواحي مدينة " لينين — آباد " الحالية . وقد لوحظ سمك جدار الحصن كما وُجدت فيه أدوات منزلية فخارية وسيوف وأسلحة قديمة .

١٢ – " الاسطوبة " ضريح هندي على شكل قبة ضخمة تعلو الأرض مباشرة .

١٣ – من المعروف تاريخياً أنّ الأدهم فرس الإسكندر نفق ، وقد ناهز الثلاثين ، في الكِبْر وشدة الإعياء الذي أصابه إبان معركة " الهيداسب " الصعبة (ضد " بوروس " الملك) التي دامت ثماني ساعات متتالية . إنّ مكان الموقعة ، الذي يُعرف على وجه التقريب ، وحيث شيّد الإسكندر مركزاً محصناً على اسم جواده ، يقع في منطقة " جلال بور " اليوم وهي تبعد مئات الكيلومترات عن مدينة " روالبندي " .

الفصل السابع

الاقتصاد العالمي وتمشرق الجيش

من الثابت أنّ الإسكندر خطط لاقتصاد عالمي يشمل كل ممتلكاته ، ومن الأكيد أنّه نفّذ قسماً من برنامجه ، مولياً اهتماماً كبيراً كل ما يمكن أن يؤول إلى تحقيق هذا الهدف ، وقد ألمحنا أكثر من مرة ، في سياق الحديث ، إلى بعض التفاصيل المتعلّقة بالموضوع .

الإمبراطورية والمحاور التجارية :

لا بدّ من الملاحظة أنّ النظام الذي أخذ به الفاتح كان اقتصاداً إمبراطورياً ، أي اقتصاداً موجّهاً لمصلحة الدولة ، كما كان يُمارس في العصر القديم ، دون الأخذ بعين الاعتبار خير المجتمع وتعميم الخيرات على أفراد الشعب ؛ إلاّ أنّ الإسكندر قد امتاز عن بقيّة الفاتحين بأنّه كان يصرف جلّ اهتمامه لتحقيق خططه السياسية أكثر من السعي إلى استغلال البلاد المفتوحة ؛ لذلك يمكننا الجزم بأنّ تسلّطه كان أقلّ جشعاً مما آلت إليه الأمور عند خلفائه بعد موته .

كان الاقتصاد زمنَ الإسكندر يدور بشكل عام حول محورَيْن ، في شرقي المتوسط وغربيّه : الأول ، وهو الأهم ، كان المحور الهابط من البحر الأسود فالمضايق وبحر " إيجه " ، حيث الموانئ اليونانية على ساحلَيْه وفي جزره ، ومنتهياً في مصر التي لم يكن لها مرافئ تجارية عالمية آنذاك ، بل مراكز تجارية يقصدها التجار الفينيقيون واليونانيون منذ القديم (١) ، مثل " بيلوز " و " ممفيس " و " كانوب " و " نقراطيس " .

أمّا المحور الثاني فكان يصل " مسيليا " (مرسيليا اليوم) ، عبر سواحل إيطاليا الغربية ومرافئ صقلية ، المزدهرة جداً آنذاك ، بقرطاجة ، مع ما تملك هذه من موانئ خاضعة لها في جنوبي أسبانية ، وعلى سواحل أفريقية في غربي المتوسط ، وعلى الأطلسي ، حتى بلاد الكميرون اليوم .

أراد الإسكندر استقطاب مكاسب هذين المحورين لمصلحة إمبراطوريته ، لا سيمّا بعد أن أخضع صور وغزّة وخطط لبناء اسكندرية مصر ، وكان يطمح إلى أن يقيم ، ما عدا الطرق البرية ، في القارة الآسيوية ، محوراً أفقياً بحرياً يصل مصب السند ببابل ،

ويمتد بمحاذاة شبه جزيرة العرب وعبر البحر الأحمر إلى إسكندرية مصر ، مستعيناً بساعدَيْ دلتا النيل للوصول إلى الإسكندرية .

لقد تمكّن الفاتح من إنجاز الشقّ الأوّل من هذا البرنامج الاقتصادي الضخم ، وسوف تُصبح الإسكندرية ، عندما تَحقق ارتباطها بمصبات السند ،على زمن البطالسة ، سيدة المتوسط طوال ثلاثة قرون ، قبل تألّق نجم رومة وضمّ مصر إليها .

الزراعة والصناعة :

وفي الحقل الزراعي من هذا البرنامج الاقتصادي الجبّار ، جرى تبادل النباتات والأشجار بين آسيا وأوروبا . ويخبرنا " فلوتارخ " أنّ الإسكندر عهد إلى " هربال " ، وكيل المالية في بابل ، بالعمل على أقلمة بعض الأشجار الأوروبية في مناخ بابل وتربتها . ومن التفاصيل التي وصلت إلينا أنّه نجح في كثير منها ، ماعدا نبت اللبلاب [٢] الذي بقي مستعصياً عليه . وبديهي أن يكون العلماء ، صحب الإسكندر ، قد أعجبوا بما رأوا من نباتات وأشجار لا عهد لهم بها ، فدرسوها وصنّفوها .

ونالت شجيرات القطن عند الجنود اهتماماً بالغاً في السند ، فتهافتوا على محصولها لتغطية وسادات الرأس واستعمالها لسروج الخيل . وإذ كان الفينيقيون أقرب من غيرهم إلى معرفة الأنبتة الصحراوية ، فقد عمدوا ، على أطراف صحراء " غودريسيا " وفي فيافي " الكرمان " ، إلى جني صمغ بعض الشجيرات واقتلاع جذور النارَدين الذكية الرائحة . ويقول" ولِكن " :[٣] إنّ " تيوفراست " ، تلميذ أرسطو ، مدين ، في مؤلّفه الكبير " تاريخ النبات " ، بكثير من المعلومات التي وردت في كتابه عن نباتات البلاد الحارة ، لتلك الحملة ، فقد وصف شجرة " المَنْغروف " التي تفرز أغصانُها جذوراً جديدة تغرز في الأرض ، وحرص الإسكندر أن تُرسل نماذج من كل هذه الطرائف إلى معهد الليقيون " الأرسطي في أثينة للدراسة والتصنيف . ونشّط الفاتح كثيراً الزراعة في بلاد ما بين النهرين فأمر بتنظيف الأقنية القديمة وترميمها على ضفتي دجلة والفرات وفي سهول فارس ، وأوعز إلى ممثليه في اليونان بتجفيف مستنقعات " سْكوباس " ، وكان آخر عمل أنجزه قبيل وفاته قناة كبرى للري على ضفاف الفرات الأوسط .

وأعطى الإسكندر الصناعة اتجاهاً علمياً جديداً عندما وجّه أصحاب الاختصاص الذين رافقوه إلى مسح أهم مناطق السند تفتيشاً عن معادنها ، وقد ذكرنا سابقاً " غورغوس " المهندس المختص بالمناجم ، الذي عثر على ضفاف نهر " الهيفاس " ، أحد

سواعد السند ، على مناجم للملح قال عنها : إنها تكفي بلاد السند كلها ، كما استخرج الفضة والذهب من الجبال القريبة من تلك المنطقة ، وذكر أنّ طريقة استخراج المعادن الثمينة ، عند أهل السند ، كانت عهدَ ذاك بدائية ، إذ يجهل البلديون أسلوب معالجتها بالتذويب .

العلم والاستكشاف :

وظهر نَهَمُ الإسكندر في المعرفة على أكمل وجه في استكشاف الأنهر والبحار والسواحل ، وبقي دوماً يشعر وكأنّ الأرض كلّها تضيق به ، رغم رحب ممتلكاته ونموّ فتوحاته المطّرد . فعند دخوله مصر أرسل بعثة إلى السودان للبحث عن سبب فيضان النيل السنوي . ويقال أن أرسطو ، عندما وصله التقرير المرفوع إلى الإسكندر ، صاح مبتهجاً : لم يعد فيضان النيل سرًّا علينا . وجرّد الفاتح بعثة علمية إلى بحر قزوين ، طالباً من مبعوثيه أن يروا هل كان لهذا البحر منفذ يصله بالبحر الأسود ؟ وفي " البنجاب " راد سواعد السند الخمسة ، وهبط بجيشه هذا النهر ، على ألفي مركب كان أمرَ بإنشائها ، ولما وصل إلى البحر تقدّم إلى العرض ، على مسافة أربعمائة فرسخ ليُثْبِتَ أبعادَه وهل ثمّة من أرض تحيط به ؟

وعرف اليونانيون لأوّل مرة في المحيط الهندي المد والجزر ، وخبروا الرياح الموسمية دون أن يعرفوا نظامها (٤) . وفي الحملة التي قادها أمير البحر " نِيارْك " لربط مصبّ السند بمصبّات دجلة والفرات ، صُعق البحارة عندما شاهدوا الحيتان تشرع برؤوسها من الأعماق ، عقب ما رأوه من نوافير مائية تعلو سطح اليمّ .

وفي بدء تنفيذ الشق الثاني ، أي الربط بين بابل والإسكندرية (٥) ، جرّد الفاتح ثلاث حملات بحرية متتالية ، وصلت الأولى بقيادة " أرْخِياس " إلى جزيرة " تيلوس " (البحرين) ، والثانية ، وكان على رأسها " أنْدروسْتين " ، بلغ بها قرب رأس " مسندم " ، دون أن يهبط إلى البر ، والثالثة قادها " هيرون " فقطعت ، على الأرجح ، مضيق هرمز وجانبت الساحل ، إلاّ أنّ بُعد الشاطئ الذي كان يمتد بلا نهاية أثناهُ عن المتابعة ، فقفل راجعاً إلى بابل (٦) ورفع تقريره إلى الإسكندر قائلاً : " إنّ الشاطئ العربي يكاد أن يبلغ ساحل الهند طولاً " .

الجيش والمدد :

خرج الإسكندر من " بيلاّ " عاصمة الفتح ، وبينه وبين جيشه لَبْس دفين حول المرامي التي كان يسعى إليها كل منهما . فالمكيدونيون كانوا يظنون أنهم يبتعدون إلى حين عن وطنهم للقيام بحملة تأديبية ضد الفرس قد ينتج منها امتلاك بعض المقاطعات القريبة من بلادهم ، بينما كان الإسكندر يسعى إلى تحقيق تلك الرؤى التي كانت تحوز عليه نفسه والتي حلّ ما يمكن القول فيها (٧) أنها لما تتضح بكل معالمها .

كان المكيدونيون يؤلّفون الكثرة الغالبة في جيش الفاتح ، ترفدهم أفواج من بعض الشعوب الخاضعة لهم ، مع فِرَق من كل الدويلات اليونانية (ما عدا إسبارطة) التي ما انضمّت إلى حلف كورنثية . ولم يكن الإسكندر يطمئن إلى اليونانيين الذين معه ، وكان في دخيلة نفسه يعتبرهم بمثابة رهائن ، فوجودهم معه يضمن له إلى حد ما ولاء أوطانهم ، وإنّ انضمامهم إليه يسوّغ له الادعاء بأنه يسير لتأديب الفرس باسم " الجامعة اليونانية " (٨) . وإذا استثنينا بعض الأفراد القلائل من هؤلاء ،وقد لا يتجاوز عددهم أصابع الكفّين ، من الذين كانوا في خدمة مكيدونية على زمن فيليبس الملك أو كانوا رفقاء الفاتح في صباه ، نرى أن الإسكندر لم يعهد إلى اليونانيين ـ عامة ـ بمهمة كبيرة أو بوظيفة مستقلة طوال الفتح ، بل كان يستعين بهم للمرابطة ، تحت قيادة مكيدونية ، في المراكز الإستراتيجية التي كان عليه أن يخلّفها وراءه ، للمراقبة والأمن والسهر على خطوط اتصالاته ، أو كان يفرّقهم بين تلك الجماعات التي كان يقيمها في المدن التي عمد إلى تأسيسها بكثرة في المقاطعات الفارسية الشرقية . وبقي المدد من الجنود المكيدونيين والمرتزقة يأتي الإسكندر دون انقطاع طوال الفتح ، وهو ما كان يساعده على تعويض ما يفقده من قتلى وجرحى ومعاقين خلال المعارك والقتال المستمر .

واستطاع الفاتح ، قبل دخوله الهند ، أن يترك وراءه شبكة متراصّة من خطوط الاتصال شملت إمبراطوريته المترامية الأطراف ، تتمفصل حول مركزَيْن مهمّين قائمين على طرفي البلاد التي اكتسحها : الأول في " فريجيا " ، في وسط آسيا الصغرى ، عهد به إلى قائده العاتي " أنْتيغون " (الأعور) ، والثاني في " همذان " ، سلّمه إلى كبير قوّاده " برمينيون " . وكان السواد الأعظم من المدد يأتيه من مكيدونية ، وتراقيا ، وتيساليا ، واليونان ، وجزر إيجه ، وبرّ الأناضول ، وقد وصله وهو قائم تباعاً في غورديون ، وعلى حصار صور ، وفي ممفيس ، وعند دخوله شوشن ، وفي ميديا ، وفي

بقطريا ، حيث وافاه نيارك ، أمير البحر العتيد ، وأخيراً غبّ ثاني دخولـه بـابل ، قبيـل موته . وإذا جمعنا الأرقام المتناظرة التي وردت عند كل من " ديـودور " و " فلوتـارخ " و " أريان " ، رأينا أنّ المجموع قد ينيـف علـى الخمسين ألفـاً مـن الرجـال ، ويتجـاوز عشرة الآلاف من رؤوس الخيل ، هبط أكثرها مـن أوربـا إلى آسيا للإسـهام في الحملـة الكبرى .

تحوير ومطابقة :

وكان من أكبر ما وصـل إلى الفـاتح مـن مـدد ، دفعـةً واحـدةً ، مـا أتـى بـه القـائد " أمينْتاس " إلى شوشن ، عاصمة الفرس الإدارية (حيث تربّع الإسكندر لأول مرة على عرش دارا) ، إذ قد بلغ الخمسة عشر ألفاً مشاةً و فرساناً ، فاغتنم الفاتح هذه الفرصـة المواتية لإجراء تحويرات في جيشه ، وكان منذ مدة قـد تحسـس أنّ عليـه أن يخفـف مـن ثقل تسلّح الكتائب المكيدونية ، لأنّ الاشتباكات أخذت تميل أكـثر فـأكثر إلى السـرعة والمطاردة ، تبعاً لتفاقم وعـورة ميـادين القتـال ، فـأصبح لا بـدّ مـن تقسـيم الفيـالق إلى سرايا ، وتخفيف سلاحها ، ليُكسبها مقدرة حركية أوسع ، وقد نوهنا بشيء مـن ذلـك في الفصل الثالث .

كان هذا سنة ٣٣١ وهو أوّل تحوير مهم أدخله الإسكندر على جيشـه بعـد مُعاركـه الثلاث الأولى الكبرى ، أمّا التغيير الكبير والجذري الـذي اضطـر الفـاتح إلى إحداثـه في جيشـه سـنة ٣٢٩ ، فقـد تجـاوز التقسـيم والتخفيـف إلى هيكليـة الجيـش ، بسـبب مـا عاناه في المقاطعات الفارسية الشرقية من أساليب حرب العصابات الـتي لا عهـد لفيالقـه بها (٩) .

تناول الإسكندر بعبقريته الخلاّقـة السـرايا الـتي كـان أحدثهـا في شوشـن ، فقسَّـمها بدورها وحدات صغيرة عزَّز بها الخيّالة ما أمكنه ، وتبنّى من الأسلحة الفارسـية مـا رآه ملائماً لأساليب الحرب الجديدة في الكر والفر والملاحقة ، وزوّد كل وحـدة بعـدد مـن النبَّالـة والرمَّاحـة ، دون النظـر إلى جنسـية المحـاربين ، لتسـتطيع القيـام عنــد الــلزوم ، كوحدات مستقلّة عن بقية فرق الجيش ، بـالتصدي والهجـوم والمطـاردة الفوريـة ، وإذا كان الجنود المكيدونيون قد بدوا في أوّل الأمر أغراراً في ممارستهم الجديدة ، فمنُوا أكـثر من مرة بخسارات (١٠) كبيرة ، فإنهم سرعان ما أتقنوا ما اقتبسـوه ، لا بـل جـوَّدوه ، فأصبحوا بدورهم يضيقون على العدو ، يستدركون الهجمـات ، ويبتـدرون الملاحقـة ،

وقد ساعدهم على ذلك العددُ الكبير من مقاتلي " بقطريا " و " صغديا " الذين أنشأ منهم الفاتح فرقاً رديفة لجيشه ، وكذا القول عن الخيول المتميّزة التي اقتناها الإسكندر بكثرة من تلك البوادي ، وهي على توافق تام مع بيئتها، إذ قد رُوِّضت منذ قرون على هذا النوع من أساليب القتال .

مقاومة المقاطعات الشرقية :

وإذا كان احتلال آسيا الصغرى وسوريا ومصر وبابل وغربي بلاد فارس ووسطها لم يستغرق سوى ست سنوات ، فمقاطعات فارس الشرقية وحدها قد سلخت من حياة الفاتح القصيرة قرابة ثلاث سنوات ، لأنّ الفرس في الحقبة الأولى كانوا يدافعون عن شرعيّة ملكهم ، أما في الحقبة الثانية فقد أصبحوا يحاربون في قلب مقاطعاتهم ذوداً عن أرزاقهم وعيالهم وحرّياتهم .وكانت هذه السنوات الثلاث أقسى ما عاناه الإسكندر في حياته بجسده وروحه . وإننا نرى ، حباً بالوضوح ، وطالما نحن بصدد تطوّر جيش الإسكندر ، الاكتفاء بذكر ما يعود إلى أمور القتال ، تاركين تفصيل ما عاناه الإسكندر في روحه عند الكلام عن المشقات التي اعترضت تَمَشْرُقه .

فمن متاعب الجسد كان ذلك الجهد المضني المتواصل في التصدي للصعوبات المتفاقمة : من ملاحقة دارا بسرعة مدهشة (١١) ، عبر البوادي المقفرة والمفاوز المضللة ، بغية الوصول إلى ملك الفرس ، قبل أن يُجهز عليه قوّاده المتآمرون ؛ إلى مطاردة " بسوس " مرزبان " بقطرنا " الذي بعد أن اغتال مليكه اغتصب العرش ؛ إلى قمع الثورات التي تفنّن " سبيتامين " مرزبان آريا ، فأشعلها في مختلف المقاطعات بتوقيت واحد وتحرّك واحد ، ممّا يصعب على جيش نظامي ، مهما كانت قوّته ، مجابهتها وقمعها ، مع ما رافق ذلك من خيانات كانت تتفجر ، فور ابتعاد الفاتح ، يقودها بعض المرازبة (١٢) من الذين كان الإسكندر ، بسماحته ، عفا عنهم ووفّر لهم الكرامة والسلطان .

واحتمل الفاتح مع جنوده حَمَّارة القيظ ، وصبارة الثلوج في مرتفعات جبال الهندوكوش ، وصبر على الجوع والعطش والمرض ، وكانت الأحداث المتلاحقة تُحرجه ، والسعاة يأتونه بأسوأ الأنباء ، فيتحول (١٣) مسرعاً من منطقة إلى منطقة ، متفادياً الكوارث .

وبقي الإسكندر صامداً أمام هـذه الملمّـات ، فلـم يلـن عـوده و لم تفـتر عزيمتـه ، بـل تألّقت مواهبه الفريدة في ابتكاره كل يوم طرقاً جديدة في التعبئة والتخطيـط والتوافـق ، وغـدت مـآثره في هـذه الحقبـة مـن حياتـه أشبه بـالقصص الخيالية : لم يسـتطع نهـر " أموداريا " رغم عرضه وعمقه وسرعة جريان مياهـه ، أن يصـدّ الفـاتح عـن عبـوره ، لمطاردة " بيسوس " في البوادي .

وإذ كـانت الأشـجار معدومـة في تلـك المنـاطق ، وكـان قطعهـا وحملهـا إلى النهـر يسـتغرق وقتـاً طويـلاً ، لجـأ الفـاتح إلى حيلـة كـان اسـتعان بهـا في أوّل سني ملكـه ، عنـد عبـوره نهـر الدانـوب ، فـأمر أن تُحشـى جلـود الخيـام قشـاً يابسـاً ، وتُخـاط بإحكـام علـى شـكل قِـرَب كبـيرة ، وتمكّـن بواسـطتها مـن اجتيـاز الحـاجز المائي الكبـير مـع الخيـل ، رغـم الزُّحـار الـذي أصابـه وبعـضَ جنـوده مـن شـرب المـاء الآسن (١٤) .

زواج الإسكندر :

وكان حصن الصغد ، قرب " ناوْتاكا " ، آخر ما فزع إليه سـكان المنطقـة ، وكـان عالياً ، وعر المسالك ، محاطاً بهوّات عميقـة ، مما جعـل القـائد القـائم عليـه يـردّ علـى الإسكندر بتهكّم لمّا طلب إليـه تسـليم الموقـع : " إذا كنـتَ تريـد حقـاً الاسـتيلاء علـى الحصن ، فما عليك إلاّ أن تزوّد جنودك بأجنحة ليطيروا إلينا " (١٥) .

وكان ممن وقع في الأسر عندما سيطر الفاتح علـى المعقـل الأمـيرة " رُوكْسـان " ابنـة " أوكْسيارت " مرزبان " بقطريا " فأحبّهـا ، وأبَـت شـهامته معاملتهـا كأسـيرة حـرب فتزوّجها زواجاً شرعياً (١٦) ، فكانت ثاني (١٧) امرأة في حياة الإسكندر . وامتعـض المكيدونيون واليونانيون من ذلك ، وعدُّوا عمل الملـك تـبريراً مرفوضـاً وحطّـاً لقـدره ، وامتهاناً لكرامتهم كفاتحين منتصرين .

الأممية في الجيش :

وكان الإسكندر قد أمر ـ أثناء إقامته في المناطق الشرقية من إيـران ـ باختيـار ثلاثـين ألفاً من فتيان الفرس الأشـداء ، ليُثقّفـوا ثقافـة يونانيـة ، ويُمَرَّنـوا علـى أسـاليب القتـال المكيدونية . وأمعن الإسكندر في إعطاء جيشه مسحة أمميـة أكـثر فـأكثر ، لاعتقـاده أنّ زمالة السلاح أنجع مدرسة لمزج الأمم وتحابب الشعوب ، وهو الأمر الذي أصبح يسعى

إليه حدياً عقب موت دارا . وجنّد كما قلنا عددا كبيراً من الفرس والبقطريين والصغد ، وانتقى جماعات من السكيتيين والداكيين والسيس ، وشكّل منهم فرقاً في جيشه . أمّا الذين صنعوا السفن وغدوا من ربابنتها مع اليونان عند هبوطه نهر السند ، فكانوا من الفينيقيين والقبارصة والمصريين الذين أتى بهم من سواحل المتوسط .

وبلغ جيش الفاتح بصبغته الشعوبية هذه ، عند توجهه إلى السند ، المائة والعشرين ألفاً ، وهو أكبر عدد قاده الإسكندر في حياته ، وكان عدد المقاتلين فيه ستين ألفاً نصفهم من الشرقيين ، إلاّ أنّ القيادة بقيت كما كانت بيد المكيدونيين دون غيرهم .

وبعد أن أخضع الفاتح " بقطريا " و " صغديا " وأدّب السكيت ، وقَبْل أن يدخل السند ، كان عليه أن يستولي على القلاع القائمة على المرتفعات وعند الشعاب ، فاستعان بجرأة جنوده ومهارة مهندسيه ، واستنبط شتى الأساليب لإقامة الجسور ، فتخطى الوديان وتسلّق المنحدرات ونصب المجانيق فوق المرتفعات . وكانت قلعة " الأورنوس " التي فتحها الإسكندر أهمّ مواقع المنطقة وأضخمها وأكثرها مناعة ، وهي القلعة التي ـ على ما ورد في أساطير اليونان ـ أخفق " هَرْقول " نفسه في الاستيلاء عليها

فتح السند :

عند وصول الإسكندر إلى ضفاف نهر السند ، حيث كان أوفد أمامه قائدَيْه اللامعين " هيفستيون " و " برديكاس " ، لإقامة جسر كبير لعبور الجيش ، كان حليفه ، ملك " تكسيلا " ، قد أرسل مدداً (١٨) قوامه ١٧٠٠ فارسٍ من الهنود وثلاثون من الفيلة ، مع هديّة مائتي وزنة من الفضة مرفوقة بمفتاح عاصمته . وأهدى إليه العاهلان " أبيسار " و " بوروس " ، بعد المصالحة ، عدداً آخر من الفيلة . ومشت جيوش هذين الملكين وجنود " تكسيلا " جنباً إلى جنب مع فيالق الإسكندر ، فأكمل إخضاع الأراضي الواقعة بين " الهيغاس " و " الهيداسب " ، من روافد نهر السند .

وكانت أُمنية الفاتح أن يهبط إلى الهند ويتجه إلى " الغانج " ، بعد كل ما سمع وعرف عن هذا النهر العظيم (١٩) ، إلاّ أنّ المكيدونيين واليونان رفضوا التوغل في بلاد مجهولة ، فاضطر الإسكندر على مضض إلى أن ينصرف إلى الجنوب ، على نهر السند ، باتجاه البحر الكبير .

إنّ نظرة واحدة إلى جيش الفاتح آنذاك وما أصبح عليه من تمشرق وأُممية ، تشير بوضوح إلى الفارق الكبير بين واقعه الجديد وما كان عليه عندما خرج من مكيدونية

قبل تسع سنوات . و لم يكن هذا التغيير سوى تجسيد لأفكار الإسكندر الذي وطّد النفس على المزج والتوحيد لإرساء دعائم إمبراطورية عالمية .

الحواشي :

١ - إنّ العلاقات التجارية بين المرافئ السورية والفينيقية ومصر بدأت منذ الألف الثاني ق.م. ؛ أمّا علاقات تجّار " ميله " اليونانية معها فقد تأخرت إلى القرن الثامن ق.م. .

٢ - PLUTARQUE , Vies ... Alex . § 35 , 15 .

٣ - WiLKEN (U .) , Alexandre le grand , Payot , p . 206 .

٤ - لم تُعرف مواقيت الرياح الموسمية إلا في القرن الأول ق.م. عندما تجرّأ " هيبال " ووَكَلَ مركبه لانسياق هذه الرياح من سواحل جنوبي شبه جزيرة العرب إلى مصبّ نهر السند .

٥ - من الغرابة سكوت مؤرّخي الإسكندر الأقدمين عما سبق به دارا الأول محاولةَ الفاتح ، أي ربط مصبّات السند بمصر . وكان ملك الفرس قد جرّد بعثة بحرية كان أحد قوّادها " سكيلاكس " البحّار اليوناني الشهير سنة ٥١٨ ق.م. ، وقد ورد ذكر هذه الحملة عند " هيرودوت " في تاريخه (الكتاب ٤ ، الفصل ٤٤) . وسبق ذلك أيضاً ما مهد به الفرعون " نخاو " السبيل إليه ، في أواسط القرن السادس ق.م. ، عندما وصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق فرع " بيلوز " لدلتا النيل ، مخترقاً عبر قناة قام بحفرها ما بين البحيرات المرّة حتى البحر الأحمر .

٦ - JOUGUET (P .) , L ' Impérialisme Macédonien .... , p . 65 , ARRIANO .
Storia di Alessandro , VII , 20 , 8

٧ - يقول جورج " راده " بتعبيره الملحمي : " لم تكن فكرة الملكية العالمية متأخرة عن الإسكندر : لقد كانت تغلي في عروقه منذ حجة طروادة ، ثم تجمعت فيه عند " غورديون " . وأصبحت مركّزة بعون نبوءة " سيوه " ، وتألّقت أخيراً في عواصم فارس المجيدة ... " وقد مر بنا ذكر شيء عن هذا في الفصل الرابع .

RADET (G) , Alexandre le grand Artisan du livre , p . 409 .

راجع أيضاً تنوّع الآراء عند :

BRIANT (P .) , Alexandre le grand , P.U.F., p. 41 .

٨ - BRIANT (P .) , op . cit ., pp . 30- 32 .

٩ – ARRIANO , op . cit ., III , 28 , 8 .

١٠ – CLOCHÉ (P .) , Alexandre le grand , Neuchâtel , p . 121 .

١١ – طارد الإسكندر الملك دارا بسرعة متناهية أنهكت عدداً كبيراً من الفرسان الذين رافقوه فتأخروا عن ركبه ، كما أنّ عدداً من الجياد قد نفقت من الإعياء الشديد . وتابع الفاتح الملاحقة مع مَنْ استطاع الصمود ، وتحمّل مشقّات بلغت بالجماعة أقصى حدود الجهد البشري ، ومما يذكر في هذا الصدد أنه قطع المسافة بين همذان والري خلال عشرة أيام فقط ، واحتاز في ليلة واحدة قرابة ثمانين كلم .

ARRIANO , op . cit ., III , 20 , 1 et 2 : HOMO (L .) : Alexandre le grand , Fayard . p . 175 .

١٢ – CLOCHÉ (P.) , op . cit ., pp. 108 et 115 .

١٣ – اضطر الإسكندر إلى أن يقطع مع بعض فرق خيّالته ٣٠٠ كلم في ثلاثة أيام ونصف ، عبر البادية بين نهر " سيرداريا " ومدينة " سمرقند " .

١٤ – ARRIANO , op . cit ., III , 29 , 2et IV , 4,9 .

١٥ – HOMO (L.) , op . cit ., p . 194 .

١٦ – بينما يُجمع المؤرّخون على أنّ الأميرة " روكسان " كانت أجمل فتاة في فارس (بعد موت " ستاتيرا " زوجة " دارا ") ، نراهم يختلفون فيمّا بينهم على الطقوس التي اتّبعها الإسكندر في زواجه : فمن قائل إنها كانت على الطريقة الفارسية ، مثل " وِلْكن " (ص ١٦٩) و " كلوشه " (ص ١٣٥) ، إلى قائل : إنّه سار على التقاليد المكيدونية ، مثل " بياربريان " (ص ١٠٤) ، أما " راده " فيرى انه اتّبع طقساً قديماً يعكس عادات فارس ومكيدونية القديمة معاً (؟) (ص ٢٥٤) .

١٧ – PLUTARQUE, op . cit ., § 21 , 7 .

أمّا المرأة الأولى التي يذكرها " فلوتارخ " في المرجع المذكور فهي " بَرسين " ابنة القائد الفارسي الكبير " أرتَباز " ، وحفيدة " أرْتَخْشَشْتا " الثاني ملك فارس . كانت ذات ثقافة يونانية ، وتزوجها الإسكندر عملاً بنصيحة كبير قوّاده " برمينيون ". أنجبت للفاتح ابناً دُعي " هَرْقول " ، اغتيل سنة ٣٠٩ وكان قد ناهز العشرين .

١٨ – CLOCHÉ (P .) ., OP . cit .p . 154 .

١٩ - عرف الإسكندر من " فيغلاس " ، أحد ملوك البنجاب ، وجود نهر إلى الشرق اسمه "الغانج " ، وهو أعظم من نهر السند بكثير ، وانّ في حوضه أمماً وشعوباً كثيفة العدد منيعة الجانب . راجع التفاصيل عند .

PLUTARQUE , op . cit ., § CLOCHÉ (P .) , op . cit ., p . 161

الفصل الثامن :

تحرير وارتباك وامتعاض الجيش

يمكننا أن نميّز في الفتح الإسكندري ثلاث مراحل يفصل بينها إلى حد كبير حدثان مهمّان يمكن اعتبارهما نقطتي تحوّل في سلوك المكيدوني : الأوّل دخوله مدينة بابل (ت١ ، ٣٣١ ق.م.) والثاني اغتيال دارا الثالث (تموز ، ٣٣٠ ق.م.) على يد مرازبة دولته .

وإذا أردنا أن نعنون هذه المراحل التي أحاطت بهذين الحدثين الكبيرين أمكننا القول : إنّ الفاتح ظهر على العموم في المرحلة الأولى كمحرّر مدن ساحل إيجه اليونانية وبلاد فينيقية ومصر وبابل من الحكم الفارسي ، فلا عجب إذا برز في هذا الشوط محاطا بهالة عزّ ومجد صافيين .

وفي المرحلة الثانية باشر الإسكندر فتح أرض فارس ذاتها ، فبدأ وكأنه يتلمّس الخطة التي كان عليه اعتمادها ليحقق ما كانت تذخر به نفسه من تطلّعات مستقبلية يضع بعضها على محك الاختبار ليتأكد من جودتها وقبولها في محيطه ، لذا سجّل عليه التاريخ في أوّل الأمر فترة ارتباك وتناقض في معالجته أمور الفرس .

أمّا في المرحلة الثالثة فيتجلّى لنا الفاتح وقد استقرّ رأيه وحزم أمره ، فما عادت الصعوبات ـ مهما جلّتْ ـ قادرة أن تثنيه عن تحقيق أهدافه .

الإسكندر المحرّر :

إنّ لقب المحرّر الذي نطلقه على الإسكندر في هذه الحقبة الأولى لا ينطبق بقدر واحد على كل المناطق التي دخلها . فالمدن اليونانية على ساحل إيجه لم تسلك سلوكاً واحداً تجاه المكيدوني ، بل كان نظام حكمها الداخلي ، ومسألة وجود حامية فارسية على أسوارها ، ومراعاة مصلحتها الخاصة ، هي التي تملي عليها موقفها : ففي مدينة أفسس ، مثلاً ، ثار الشعب على الطبقة الاوليغركية الحاكمة عندما أصبح الإسكندر قريباً منها ، ومدينتا تَرال ومغنيسيا طلبتا (١) من الفاتح الإسراع لدخولهما ، ومدينة سارد عاصمة المقاطعة ، ومركز المرزبان ، الحاكم الفارسي ، استسلمت دون تردد . أمّا المقاومة فقد تمركزت في مدينتي ميله وهاليكرناس في جنوب آسيا الصغرى .

كذلك القول عن ساحل شرقي المتوسط حيث كان للعداوة والمنافسة بين الدويلات الفينيقية الأثر الكبير . فأرواد وطرابلس وبيبلوس وصيدون خضعت للإسكندر ، فترك لها الفاتح شرائعها وأنظمتها ، أمّا صور وغزة فقد قاومتا مقاومة ضارية ، وكلّفت مدينة صور الجبارة المكيدوني جهداً كبيراً وضحايا كثيرة ، حتى إذا تم له فتحها عنوة ، بمعاونة السفن الفينيقية المنافسة لها ، عاملها بقساوة بالغة .

مصر والاحتلال الفارسي :

ويستحق الفاتح بلا ريب لقب المحرّر تجاه مصر وبابل ، لا سيّما إذا رجعنا بالذاكرة إلى ما تحمّل هذان البلدان من عناء وكرب على يد بعض ملوك فارس .

فقمبيز (+ ٥٢٢) أتمّ بمعركة واحدة (٥٢٥ ق.م.) إخضاع مصر ، وأظهر في أوّل حكمه اعتدالاً وتفهّماً لواقع البلاد ، غيرَ أنّه ما كاد يُمنى بالفشل في فتح الحبشة والإخفاق في الواحات المصرية الشرقية حتى اعتراه مسٌّ في عقله ، فشنّ حملة شعواء على هياكل المصريين ومعابدهم ، ولم تَسْلم قبور الفراعنة من تعدّياته ، وأخرج مومياءاتها وانتزع لفائفها (٢) .

واستعادت مصر بعد حين حرّيتها ونعمت باستقلال دام قرابة ثلاثة أرباع القرن ، إلى أن احتلّها أرتحششترا (٣) (Artaxerxés) الثالث أوخوس (٣٥٩ ـ ٣٣٧ ق.م.) مجدداً ، وكان له قصب السبق في إذلالها وانتهاك الحرمات ففي حملته الثانية على ارض الفراعنة تمكّن من التمركز في دلتا النيل ، فهرب ملكها نكتانابو الثاني إلى مصر العليا حيث ضاع أثره . وأمعن أرتحششترا في القمع والسلب ، فانتزع من الهياكل أثمن مخطوطاتها (٤) ، وطعن الثور أبيس الذي يقدّسه المصريون ، وأمر بذبحه وإعداده لوليمة صنعها خصّيصاً لحاشيته (٥) وبقيت الثورات على الحكم الفارسي تخبو تارة وتشتعل أخرى ، وعند وصول الفاتح إلى مصر (أواخر ٣٣٢ ق.م.) لم يكن دارا الثالث كودومان Codoman ، خصم الإسكندر ، قد تمكن بعدُ من فرض سيطرته على البلاد كلّها .

بابل والاحتلال الفارسي :

لم يكن نصيب بابل أقلّ من نصيب مصر فيما أصابها من الاحتلال الفارسي . فإذا كان قورش الكبير (٥٥١ ـ ٥٣٠ ق.م.) قد ظهر معتدلاً فلم يقتل نابونيد مليكها ،

عندما استولى على بابل سنة ٥٣٩ ق.م. ، ولم يعمل فيها السلب والنهب ، بل سجد لمردوك إله بابل الأعظم ، وأرجع إلى سومر وأكاد تماثيل آلهتها التي كانت انتُزعت منهما ، فإنّ دارا الأوّل (٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق.م.) ، رغم ما عُرف عنه من تسامح وحلم ، لم يتردد في قمع المحاولة التحررية التي نشبت في أوّل حكمه بقساوة بالغة .

أمّا خشايرشا (٤٨٦ ـ ٤٦٥ ق.م.) فكان حقاً طاغية بابل الأكبر ، فهو الذي حاصرها ونهبها ودكّ أسوارها ، وخرب هياكلها ونبش قبور ملوكها واستعبد نصف سكانها ، وبالغ في صب جام نقمته على الإيزاغيل ، هيكل بل ــ مردوك الأعظم ، فانتزع تمثاله الذهبي وذوّبه وخنق الكاهن الأكبر . ولم تقم قائمة لبابل بعد هذه الكارثة المروعة . وعندما زار المؤرّخ هيرودوت (٦) بابل بعد سنوات معدودة ، وجدها على هذه الحالة التعسة ، وعند دخول الإسكندر كانت لم تزل هياكلها مطمورة بالأركام إلى نصفها ، وأسطحتها تستعمل للرصد (٧) .

دخول الإسكندر ممفيس وبابل :

من أجل هذا كله استُقبل الفاتح عندما وطئ أرض مصر (أواخر سنة ٣٣٢ ق.م.) استقبال المحرّرين ، اعترفت به طبقة الكهّان فرعوناً على وادي النيل . وتوجّه الإسكندر إلى هيكل بتاح وأصعد المحرقات ، وكان ذلك محفوظاً للفراعنة دون غيرهم من البشر . وانتقل إلى معبد أبيس ، الثور المقدّس ، فتمّم الطقوس التقليدية ، وعمد إلى ترسيخ التعاون بينه وبين طبقتيَ الكهّان والأشراف ، وأمر بترميم هياكل الأقصر والكرنك ، واختار موقع مدينته الجديدة ، أولى وأعظم إسكندريات الفتح قاطبة ، وأشرف بنفسه على تخطيطها ، ثم حجّ إلى هيكل سيوه ورجع إلى ممفيس وأقام عرضاً عسكرياً كبيراً ، ورأس الألعاب والمباريات والحفلات ، ابتهاجاً بما حقق من نصر مبين .

أمّا دخول الإسكندر بابل فقد تبع وشيكاً انتصاره الباهر في موقعة غوغامل (ت١ ٣٣١ ق.م.) إذ دخل المدينة على كارة النصر بأبّهة وعظمة بالغتين ، وخرج الشعب لاستقباله ، ومشت السلطات الدينية والمدنية في ركابه ، وذبح الفاتح لمردوك وتسلّم يده على عادة ملوك بابل الأقدمين ، واستولى على القلعة وخزينة المال ، وأمر برفع الأنقاض عن هيكل الايزاغيل وإعادة بناء ما خربته حماقة خشايرشا في أيّام انتقامه المروّع .

تأثّر الإسكندر بمعتقدات الشرق :

لم نتوقّف عند حوادث مصر وبابل زمنَ الحكم الفارسي ، و لم نُفصّل سلوك الإسكندر في العاصمتين تدليلاً على الفارق الكبير بين الاحتلالين فحسب ، بل توخّينا من وراء ذلك توضيح أمرين مهمين :

أوّلاً ، لم تكن عناية المكيدوني بالذبائح والتقادم التي رفعها إلى آلهة البلدين استدراراً لنقمة الشعبين على الغزاة الذين سبقوه ، وإنّما فعل ذلك تلبية لحاجة ملحّة في نفسه وإشباعاً لحسّه الديني المرهف . وإذا كانت قد وصلت إلى الإسكندر على يد أستاذه أرسطو بعض مؤثرات النزعة التوحيدية في الدين التي كانت رائجة آنذاك عند اليونان ، فمن المرجّح أنه بقي ينظر إلى الآلهة المتعددة التي عرفها عند الأمم التي خضعت له ، كمُسميات متعددة لتلك القوة العظمى التي تسوس الكون .

ثانياً ، إنّ الإسكندر وحد في التقليد الفرعوني ترسيخاً لما كان يؤمن به مخلصاً (٨) من أنّ قبساً قدسياً يسكن فيه ، وقد زاد يقينه به عقب حجته الشهيرة إلى هيكل سيوه ، كما أنّ المعتقدات البابلية المتوارثة ثبتته في نزعته العالمية . فالفرعون في بلاد مصر كان إلهاً في نظر شعبه ، فهو هوروس وابن راع (٩) . وهذا الاعتقاد الذي يوفّق بين الملكية والألوهية كان راسخاً منذ قرون عند سكان وادي النيل .

أما في بابل فمن المسلّمات السحيقة في القدم أنّ ملك بابل يُعطى ، عندما يتسلم يد مردوك ، أقطار المعمورة الأربعة . وإذا كنّا قد حاولنا فيمَا سبق تفسير أصل نزعة الإسكندر العالمية ، فلنا ردّة إلى موضوع التألّه في آخر هذا الفصل .

ارتباكٌ وتناقضٌ في سلوك الإسكندر :

كانت البلاد التي فتحها الإسكندر ، قبل أن يطأ أرض فارس ، مناطق أُرغمت على الخضوع لحكم الفرس ،وكانت بابل آخر ما حرّر من تلك البلاد ، وواكب الحظ الفاتح في بدء دخوله بلاد فارس ، فحكّام العواصم أظهروا تعاوناً وطواعية ، فكما خرج مازايوس مرزبان بابل وممثل ملك الفرس في بلاد ما بين النهرين لاستقباله عند أبواب المدينة مع أولاده ، بعث القائد الفارسي أبوليتس ابنه ليطلب من المكيدوني الإسراع ليستولي على مدينة شوشن ، وأوفد تريدات ساعياً يستحث الإسكندر على أن يضع يده على قلعة برسيبوليس (اصطخر اليوم) وكنوزها الضخمة . أما أكبتان (همذان اليوم) ، عاصمة ميديا القديمة ، فقد دخلها الفاتح دون مقاومة .

وإذا تذكّرنا تفاصيل الإكرام والاعتبار التي أظهرها الفاتح تجاه عقيلة دارا منذ وقوعها في الأسر نتيجة معركة إيسوس (٣٣٣ ق.م.) ، أكبرنا ولا شكّ نبله ، فقد بذل كل ما في وسعه ليخفف وطأة النكبة على أفراد الأسرة المالكة ، حافظاً لها كرامتها . وقبيل معركة غوغامل شاركها الحزن عند موت زوجة دارا ، فوفّر لها المراسيم والدفن على ما يليق بمقامها (١٠) . وإذا كانت شهامة الإسكندر قد أملت عليه أعماله الإنسانية السابقة ، فظروف سياسته الحاضرة أصبحت تحضه على المضي قُدُماً في خطته هذه السليمة ليشجّع المترددين من أشراف الفرس على الالتحاق به ، لا سيّما بعد أن أنس من حكام العواصم الخضوع والمناصرة ، كما ذكرنا .

ففي هذه الحقبة كثّر الفاتح من عدد مرازبة الفرس ، وقرّب أشرافهم وقوّادهم إليه . وعند وصوله إلى شوشن ، خصّص قصراً لسكنى أعضاء أسرة دارا ، ووفّر لهم ما اعتادوه من عيش رغيد وخدمة واحترام . وزار قبر قورش في بازارغاد ، وأمر بترميم قبر عظيم فارس .

وبالغ الإسكندر في تكريم سيزيغامبيس والدة دارا ، حتى قيل أنه لم يكن يجلس عند زيارته إياها قبل أن تدعوه إلى ذلك (١١) . وبادلته الملكة الأمّ المحبة واعتبرته ابناً لها ، وكان الفاتح لا يردّ لها طلباً (١٢) ، وأكد أكثر من مؤرّخ أنها امتنعت عن الطعام عند موت الإسكندر ، فما لبثت أن لحقته إلى القبر (١٣) .

حرق مدينة برسيبولس :

لم يكن هذا التودّد والتقارب بين الإسكندر والفرس ليروقا تجبّر المكيدونيين ـ وقد زادت الانتصارات من غطرستهم ـ أو يخففا من استعلاء اليونانيين وعداوتهم التقليدية للفرس . وكانت حاشية الإسكندر تضم عدداً كبيراً من هؤلاء المستكبرين المتعنّتين الذين ما فتئوا يوغرون صدر الفاتح ويحضونه على الانتقام وإذلال الفرس ،ويُذكّرونه بما صنعه هؤلاء في مدن اليونان ، إبّان الحروب الميدية ، وكيف أحرقوا أثيناوالمدن والهياكل والأكروبول . وكانت الأخبار التي تصل تباعاً من أوروبا تقلق الإسكندر ، فملِك إسبارطة أجيس ما زال يؤلّب الناقمين على مكيدونية ، مستغلاً حنين الإغريق إلى الحرّية والاستقلال ، وقد أصبح على وشك تسديد ضربته لتقويض سيطرة الفاتح في اليونان ، بعد أن اطمأنّ إلى توغلّه في آسيا واستحالة رجوعه السريع بسبب بُعد المسافات .

وبقيت فئة الداعين إلى أخذ الثأر توقد غيظ الإسكندر حتى خُيِّل إليه أنّ حرق برسيبوليس أصبح ضرورة سياسية لتهدئة المدن اليونانية وإرضاء الجيش وحفظ التوازن بين فئات حاشيته وحاول كبير قوّاده برمينيون ، على ما أخبر المؤرّخ أريان (١٤) ، أن يثنيه عن عزمه مبيّناً له " أنّه من الأفضل صيانة ما أصبح مُلكَ يده وتحاشي تثبيط عزائم الفرس الراغبين في الانضمام إليه " ، إلا أنّ الإسكندر تمسّك برأيه زاعماً أنه بإباحة المدينة لجنوده يؤدّب الفرس ويرضي المكيدونيين ويروي غلّة اليونانيين (١٥) .

وكان يوم شؤم وساعة زيغ عندما أسلم الفاتح أغنى مدن العالم آنذاك لشراسة علوج جيشه وجشعهم ، وترك النار تلتهم تلك القصور (١٦) تحفة آسيا وفريدة العصور ، التي بذل ملوك فارس الغالي والنفيس ، طوال قرنين ، في زخرفتها وتجميلها ....

وعندما رجع تلميذ أرسطو إلى صوابه هاله الأمر وندم على ما فرط منه، لكن بعد فوات الأوان ...

ولن تعوّض كلمات المؤرخ فلوتارخ الفن ما فقده إلى الأبد قال : " إنّ الملك ندم سريعاً وأمر بإخماد النار ، وان المؤرخين مجمعون على ذلك " (١٧) . إنّ مثل هذا القول قد يخفف من واقع الصدمة لكنّه لن يرفع عن كاهل الإسكندر مسؤوليته الكبرى أمام التاريخ .

نهاية دارا الثالث ، ملك الفرس (صيف ٣٣٠ ق.م.) :

وكان كل من الإسكندر ودارا يتتبع أعمال خصمه ويراقب تحرّكاته . وعندما بلغ ملكَ الفرس أنّ الفاتح توجه إلى ميديا جاداً في طلبه ، ترك همذان قاصداً المقاطعات الشرقيّة من مملكته ، ظاناً أنه يجد فيها الحماية والنصرة . وكان أقوى من بقي من رجالات الدولة موالياً له في الظاهر مرازبة المقاطعات الشرقية ، وكانت خطة هؤلاء استدراج ملكهم إلى مراكز نفوذهم ليجعلوا منه عند الاقتضاء ورقة مساومة بينهم وبين الإسكندر . وعندما كشف المتآمرون عن نواياهم كان أمر دارا قد انتهى ، إذ أصبح أسيراً تحت رحمتهم .

وما إنْ بلغ خبر الخيانة إلى الفاتح حتى جدّ في طلب المتآمرين ، وكان وصوله بفضل سرعته الفائقة ، مباغتة شديدة الوقع عليهم ، إذ شعروا أنهم أصبحوا بين اختيارين محرجين ، فإمّا أن يُبقوا على حياة ملكهم فيقع في يد الإسكندر ويكونوا بهذا قد أعطوه سلاحاً ماضياً ضدّهم ، وإمّا أن يقتلوه فيفقدوا معه آخر أمل للتفاهم مع

الفاتح إنقاذاً لحياتهم ، واختاروا الحلّ الثاني فأشبعوا ملكهم طعناً قبل أن يتركوه مضرّجاً بدمه . " وكان قتل دارا (١٨) قبل أن يصل الإسكندر إليه ... " (١٩) كما ذكرنا .

نتائج اغتيال دارا :

لم يكن مقتل دارا لينهي الفتح المكيدوني ، إلاّ ان اغتيال ملك فارس على يد أعوانه وفّر للإسكندر إمكانات جديدة ، وأتاح له موقفاً مشرّفاً ينطلق منه لملاحقة الخونة فيثأر لكرامة السلطة الملكية ، ويمّهد - فضلاً عن ذلك - الطريق أمام عظماء دولة الفرس المتمسّكين بالشرعية ليعترفوا بواقع سلطته وينضمّوا إليه . ومنذ أن وقف الفاتح أمام جثة دارا وغطّاه بوشاحه ، اعتبر نفسه خلفاً له ووريثاً لملكه ، فأمر بتحنيط الميت وتجهيزه وحمله بأبّهة وإكرام إلى والدته ليدفن في المقابر الملكية في برسيبوليس حسب طقوس الفرس وتقاليدهم . وبدأ منذ ذلك الوقت يمهر كل ما يصدر من أوامر وتعليمات تتعلق بآسيا بختم ملك فارس ، محتفظاً بخاتم ملك مكيدونية لأمور أوروبا (٢٠) .

وبحكم مسؤوليته الجديدة ، وتوافقاً مع مصلحته ، كان عليه أن يسارع إلى ملاحقة المتآمرين القتلة ، لا سيّمًا بعد أن بلغه أنّ بيسوس ، رأس الخيانة ، قد جمّع الكيل فأعلن نفسه ملكاً على بلاد فارس باسم أرتحششتر الرابع ، واستغرقت مطاردة المغتصب قرابة السنة .

وعندما تمكّن الفاتح منه (٢١) أمر بجدع أنفه وصلم أذنيه ، وهو العقاب المحفوظ لكل من تطاول على السلطة الملكية في فارس ، ثم عرضه عريان على قارعة الطريق ، مشدوداً إلى حبل في عنقه ، وبعد أن أنّبه وشهّر به على رؤوس الملأ أمر بجلده ثم بعثه إلى همذان ليَمْثل أمام محكمة قوامها رهط من المرازبة الميديين والفرس برئاسة اوكسيياترس ، شقيق الملك المغدور ، فحُكم عليه بالموت وأُعدم بفسخ الأعضاء بطَيْ الأشجار ، على عادة الفرس (٢٢) .

تعب جيش الإسكندر :

لم يكن التحرر الذي برز بوضوح في جيش الإسكندر بعد اغتيال دارا ابن ساعته ، فبوادره ترجع إلى اكثر من سنة إلى ما قبل مقتل ملك الفرس . فمنذ مغادرة الفاتح

مدينة صور (للمرة الثانية) سالكاً طريق دمشق ، قاصداً شمالي العراق ، ضارباً في أطراف بادية الشام تحت لهب تموز (٣٣١ ق.م.) ، بدأ الجيش يتململ معللاً النفس بقرب نهاية الحملة والرجوع إلى الأوطان .ويذكر فلوتارخ أنه عند حَرْق قصور برسيبوليس سَرَتْ إشاعة بين الجنود أنّ الإسكندر يفكّر في الرجوع إلى مكيدونية ، وأن الضربة التي يسددها إلى مجد فارس ، الممثل بقصورها ، ليست سوى إيذان بالعودة (٢٣) . ولمّا صرف الفاتح بعد حين في همذان فرق اليونانيين والتيساليين من الخدمة ، فسرّ الجنود الحدث على أنّه نهاية الحرب ، وأخيراً لمّا قُتل دارا تراءى للمكيدونيين أنّ الفتح قد تمّ .

لم يكن الإسكندر يأبه في أوّل الأمر لمثل هذه الإشاعات ، إلاّ أنّه لاحظ فتوراً في همّة فيالقه ، فتحيّن فرصة انفراده في فرثيا بصفوة جيشه ليقوم خطيباً فيهم ، وبمهارة القائد العارف إثارة عواطف جنوده واستغلالها " خيّر المترددين بين البقاء في زمرة أصحابه الراغبين في متابعة الحرب أو تركه في أوج نشاطه وسعيه لإخضاع العالم لسلطان مكيدونية " . وألهبت كلمات الفاتح مشاعر جنوده فصاحوا بصوت واحد " سر بنا حيثما تشاء " (٢٤) .

وفي فرثيا أيضاً بدأ الفاتح يتزيّا بزي الفرس (٢٥) : فعل ذلك أولاً بين خاصته ثم علانية في بعض المناسبات وعند ركوبه . ونظر المكيدونيّون إلى ذلك بامتعاض ، وخُيّل إليهم أنّها نزوة عابرة ممّا اعتادوا رؤيته عند قائدهم في إشباع خُيلائه ، إلا أنّ الإسكندر كان يحاول التودّد إلى الفرس ، ويقينه " أن لا شيء يقارب بين الشعوب أكثر من التماثل في العادات " (٢٦) .وكان يروم ، علاوة على ذلك ، إفهام المكيدونيين واليونانيين أنّه بعد أن خلف دارا على كرسيه لم يعد ينظر إلى الفرس كأعداء بل أصبح يعتبرهم من رعاياه ، وأنّ من واجبه معاملتهم على قدم المساواة .

الإسكندر وامتعاض قواده :

اعتمد الفاتح الحرس الفارسي على مداخل سرادقه ، كما ضاعف دوائر ديوانه ، مخصصاً قسماً منها لأمور مكيدونية واليونان ، والقسم الآخر للبلاد المفتوحة وفارس ، وعيّن قائديه "كراتير" لرعاية شؤون الأولى ، و"هيفستيون" الذي تبنّى مثله زي الفرس للثانية . وأمر باختيار ثلاثين ألفاً من شبّان الفرس لُيصار إلى تثقيفهم ثقافة يونانية وتعليمهم أساليب القتال المكيدونية .

وذُهل قوّاد الإسكندر من التغيّر الذي طرأ على أطباع قائدهم وتصرّفاته حيالَهم ، وقد رأوه يبتعد يوماً بعد يوم عن تقاليد الملكية في وطنهم ، ممّا تعوّدوه على زمن فيلبس والده ، يوم كانوا ينظرون إلى الملك كرفيق لهم ، يكرمونه دون منةٍ ويطيعونه دون تكلف ويصارحونه عند الاقتضاء بدالة الخدانة .وكان الملك بدوره يصغي إليهم دون تعنّت ، ويبادلهم دون ترفّع المودة والمشورة والتقدير . وهالهم أن يروا سلوك الإسكندر ينزلق أكثر فأكثر إلى التفرّد بالرأي ، آخذاً بأساليب ملوك الفرس في الحكم المطلق ، يأمر بلهجة المتسلّط ويقرر دون الالتفات إلى نصح أو مشورة . أمّا ما كان في نظرهم يفوق كل تصوّر واحتمال فسعيه الحثيث إلى المساواة في المعاملة والتوظيف والخدمة (٢٧) بينهم ، هم الأسياد المظفّرون ، وبين قوّاد الفرس وأشرافهم البرابرة المغلوبين .

في هذا الجو المثقل بتعب الجسد وإرهاق الروح ، وإبّان ملاحقة قتلة دارا وكسر شوكة مقاومة المناطق الإيرانية الشرقية وتفاقم استياء القواد المكيدونيين من جرّاء تمشرق الفاتح ، توالت على الإسكندر كوارث ثلاث بدأت بأقرب القواد الملازمين له ، ممّا أدمى قلبه وأحْرجَهُ فأخْرَجَه عن اعتداله ليرتكب أشنع ما عُرف من قساوة في حياته .

إعدام فيلوتاس واغتيال برمينيون :

بدأ الحدث الأول في فرادا وكمل سريعاً في همذان في خريف ٣٣٠ ق.م. . فإنّ أحد المكيدونيين طلب من فيلوتاس القائد الأعلى للخيّالة المكيدونية مقابلة الإسكندر لإطلاعه على مؤامرة حيكت ضد حياته ، وتقاعس فيلوتاس طيلة يومين و لم يخبر الفاتح . وعرف الإسكندر أخيراً بالمؤامرة عن طريق أخرى ، وبعد تحقيق عاجل أمر بإحضار المدعو دِمنوس الذي كان أوّل من باح بالسر ، ولكنّ هذا فضّل الموت على أن يُساق إلى الملك ، ممّا ضاعف قلق الإسكندر إذ فقد بموته كلّ أمل في معرفة الحقيقة .

وجمع الإسكندر سراً أعزّ قوّاده الذين يثق بهم ، وصادف أنّ أكثر هؤلاء كانوا من المنافسين أو كارهي فيلوتاس ، فساد الرأي أنه يصعب التسليم ببراءة قائد الخيّالة الذي أخفى على الإسكندر مثل هذا الأمر الخطير ، وهو بحكم دالّته ووظيفته ممّن يدخل على الفاتح أكثر من مرّة في اليوم الواحد . وقُبض على فيلوتاس وسيق إلى محكمة الجيش مغطّى الرأس على عادة المكيدونيين في موضوع الخيانة العظمى ، وقيل أنّه أقرّ بضلوعه في المؤامرة تحت وطأة التعذيب فأُعدم .

وتوجّس الإسكندر شراً مما قد يُقدم عليه قائده الأكبر برمينيون والد فيلوتاس نظراً لمكانته ومقدرته وبُعد صيته ، خاصة وكان الفاتح قد ولاّه على همذان عقدة طرق موصلات الجيش وتموينه ، وكانت تحت إمرته القوى والمال والكنوز التي جُمعت من عواصم فارس .وتراءى للإسكندر أنّه لا بد لبرمينيون أن يثأر لإعدام ابنه ، فبادر وأرسل مع أسرع سُعاته مَن يثق به من ضباطه ، وزوّده بخاتمه حسماً لكل شكّ أو تردد ، مع الأمر الصريح بالقضاء الفوري على كبير قواده ... وطُعن برمينيون بينما كان يقرأ رسالة الإسكندر التي حملها الساعي مع الموت إليه . وكان أصدق تعليق على هذه الكارثة المروّعة (٢٨) ما قاله انتيباتر نائب الفاتح في أوروبا عندما بلغه الخبر : " إذا كان برمينيون قد تآمر على الإسكندر فمَنْ يؤتمن بعده ؟ وإذا كان لم يتآمر فما العمل الآن ؟ ... " .

وبعد سنتين وقعت الكارثة الثانية وكان ضحيّتها كليتوس شقيق لاينيس مرضعة الإسكندر ، وهو الذي سبق أن أنقذ حياة الفاتح كما ذكرنا في معركة الغرانيق أولى معارك الإسكندر .

حدث ذلك خلال وليمة أُقيمت في سمرقند وقد لعبت الخمرة في رؤوس المدعوّين ، وإثر مشادّة كلامية بين القائد كليتوس ، ممثل جناح رجالات الجيش المكيدوني الأكبر سناً ، المتمسكين بأسلوب الملك فيلبس والد الإسكندر الذي كان يمارس الحكم بطريقة جماعية معتبراً الملك تراثاً للأمة كلّها ، والقوّاد الأصغر سناً الذين كانوا يجارون الفاتح في ممارسة السلطة كَقُنُوة خاصةٍ به وحدَه . وغالى في تلك الليلة بعض صغار الضباط في تزلّفهم وبالغوا في تعظيم منجزات الإسكندر ، ووصل بهم الشطط إلى إنكار مآثر والد الفاتح ، مَنْ إليه وحدَه يرجع الفضل في إرساء عظمة مكيدونية ، حتى زعم قائلهم أنّ مجد فيليبس قائم على أنّه والد الإسكندر وحسب " واستشاط كليتوس غضباً من إهانة ذكرى الملك الكبير ، وكانت الخمرة قد أفقدته اتّزانه وأطلقت عقال لسانه ، فقام يفصح عن كل ما كان يحزّ في قلبه . وكان أقسى ما توجّه به إلى الإسكندر تنكّر الفاتح لوالده الملك ، ليكون ابن آمون ، وإغفال إسهام جنوده وقوّاده في انتصاراته ، وتقريب قوّاد الفرس منه ، واغتيال برمينيون الذي أخلص له ، وختم تعنيفه ملوّحاً بتبجّح بذراعه ، ومذكراً الإسكندر أنّه بساعده هذه قد أنقذ حياته في معركة الغرانيق .ولّما انتصب الفاتح يريد الاقتصاص من قائده ، توسّط الحاضرون وجرّوا كليتوس خارج المكان ، فما كان من هذا ، بسكره إلا أن تسلل إلى القاعة من

باب آخر (٢٩) ، وما كاد أن يراه الإسكندر حتى انتزع مزراقاً من أحد الحرس القائمين قربه وابتدره بطعنة اخترقت صدره ، فزعق كليتوس بعدها زعقة مدوّية تبعتها حشرجة الموت .

وصُعق الإسكندر والحاضرون مما حدث وساد صمت رهيب . وثاب الفاتح إلى رشده فأبصر الواقفين حوله مشدوهين بلا حراك ، فهاله ما فعل ، وفجأة وثب إلى الجثة وانتزع منها المزراق وقلب السنان يريد قتل نفسه ، ولو لم يسبقه قواده إلى خطف السلاح من يده وحمله مرغماً إلى غرفته لسبق السيف العذل ، وبقي الإسكندر ثلاثة أيام بلياليها يبكي وينتحب وهو يردد : " بأي وجه أقابل مرضعتي بعد أن قتلتُ أخاها ؟ ... " .

ولم تستطع أقوال رجال حاشيته وإلحاح أعزّ أصدقائه تبديد يأسه . ودخل عليه الفيلسوف المملاق أناكسارك يسائله معاتباً : (٣٠) " كيف أصبح مَنْ خشع العالم عند قدميه على هذه الحال من الوهن والعجز ؟ " . ثم أردف قائلاً : " وما قيمة القوانين والشرائع ولوم الناس ؟ " لعمري إنّ كل ما يفعله مَنْ كان مثلك هو شرعي وعادل " . ولربما كانت كلمات أريستاندر ، كبير منجّمي البلاط ، أكثر فاعلية في نفس الفاتح عندما قال له : " إنّ ما حدث كان مقدّراً ولا مهرب منه ، بهذا قضت آلهة الأولمب ، ولا طاقة لأي من البشر على صده " .

فاستكان الإسكندر وخضع للقدر المحتوم .....

الحواشي :

١ - Cloché (P .) , Alexandre le Grand , p . 30 .

٢ - Wells : Esquises de l' Histoire Universelle , p . 171^2 .

٣ - Cloché (P .) , op. cit . , p. 60 .

وأرتحشترا هذا هو الذي أمر بقتل رهائن صيدا المائة ، وأعدم خمسمائة الصيداوي ، أعضاء الوفد الذين أتوه متوسلّين أن يرأف بمدينتهم .

٤ - استغل باغواس الخصي المتنفّذ على زمن أرتحشترا وقوع هذه المخطوطات بيده ، فلم يُرجعها إلى الكهّان المصريين إلاّ بعد أن أرغمهم على دفع مبالغ باهظة .

٥ - MA SPERO (G .) , Histoire Ancienne des peuples de l' Orient , p. 754.

٦ - HERODOTE , Histoire , I, pp. 174 - 200 .

٧ – HUART - DELAPORTE , l' Iran antique , pp. 263 , 264 , MASPERO (G. , op . cit ., pp .. 721 et 770)

٨ – JOUGUET (P .) ,L'impérialisme Macédonien et l' hellénisation de l' Orient , p . 89 .

٩ – DAMAS (F.) , Les Dieux de l' Égypte p . 106.

١٠ – PLUTARQUE , Vies ... Allex ., 30 .

١١ – RADET (G .) , Alex . le grand , p . 159

١٢ – QUINTE -CURCE , Vie d' Álex ., V, 3 , 13.

١٣ – HOMO (L .) , Alex . le grand , p . 80 .

١٤ – ARRIANO , Storia di Alessandro , III , 18 , 17

١٥ – يكاد أن يُجمع المؤرّخون على أنّ الدافع الأكبر الذي أقنع الفاتح بالقضاء على برسيبوليس وقصورها كان نتيجة رغبته في إرضاء الرأي العام اليوناني وإضعاف موقف أجيس ملك إسبارطة ، كما ذكرنا في المتن . ومن عبث القَدَر الغاشم أنه عندما أباح الإسكندر المدينة ثم أحرق قصورها ، كان القائد اللامع أنتيباتر نائب الفاتح في أوروبا ، قد قضى منذ أيام على أجيس وثورته . ولكنّ الخبر ، لسوء الحظ ، لم يكن قد وصل بعد إلى الإسكندر ، فزالت روائع برسيبوليس إلى الأبد .

١٦ – لم يُبح الإسكندر المدينة ويحرق قصورها في وقت واحد ، إلاّ أنّ هدف العبرة والتشفّي كان ممّا سعى إليه ، عدا الأهداف الأخرى .

١٧ – PLUTARQUE , op . cit ., 38 , 8 .

١٨ – ممّا لا شكّ فيه أنّ دارا ، خصم الإسكندر ، قد ارتكب أخطاء فادحة كانت من أسباب زوال ملكه ، ولكنّه لم يكن ذلك الرعديد الذي حلا لبعض المؤرّخين تصويره ، فملك فارس قاوم وأسهم في تخطيط عدة محاولات حاذقة وجريئة للصمود أمام الفاتح : أطلق أوّلاً ، يد ممنون القائد الرودسي اللامع ، بعد معركة الغرانيق ، لنقل الحرب إلى أرض اليونان ليعرقل حملة الإسكندر ؛ وعمل ، ثانياً ، بعد معركة إيسوس ، على عزل الإسكندر عن خطوط مدده بشن الحرب وراء جيشه ، وكرّر ، ثالثاً ، المحاولة لقطع طريق تموين الفاتح عبر ممّرات كيليكيا ؛ وبذل رابعاً قصارى جهده في إشعال الثورة في اليونان ، بالاتفاق مع أجيس ملك إسبارطة .

ولكنّ موت ممنون الذي لم يكن في الحسبان أحبط المحاولة الأولى ، ومهارة قائدَي الإسكندر ، انتيغون وأنتيباتر ، أفشلت جهوده في الثانية والرابعة ، وسرعة الإسكندر الخاطفة قضت على المحاولة الثالثة

BRIANT (M .) Alex . le grand , pp . 12 et 31

١٩ – ARRIANO , op . cit ., III, 21 . 10

٢٠ – WILKEN (V.) , Alex .le grand , p . 249 .

٢١ – قبض عليه القائد بطليموس (ملك مصر العتيد) بفضل خيانة سبيتامين زميله في الانتفاضة ضد الإسكندر ، وقد فعل ذلك تخلّصاً من مزاحمة بيسوس له في قيادة المقاومة الفارسية .

٢٢ – PLUTARQUE , op . cit ., 43 , 6 .

٢٣ – PLUTARQUE , op . cit ., 38 , 7 .

٢٤ – PLUTARQUE , op . cit ., pp . 47, 2 .

٢٥ – من الأكيد أنّ الإسكندر لم يلبس السروال الفارسي ، أما أمر التاج فتتضارب الآراء حوله ما بين التأكيد والنفي .

٢٦ – QUINTE - CURCE , I , VI , 6 , p . 182

٢٧ – RADET (G .) , op . cit ., pp . 241 ss .

٢٨ – يعتقد راده ببراءة فيلوتاس وأنه ذهب ضحية حسد القادة من زملائه وكراهيتهم إياه : op . cit ., p . 235 ويقول " ولكن " إذا كان ثمة من حزم في قتل فيلوتاس فالمسؤولية تقع على الجيش الذي حَكَم عليه بالموت : op . cit ., p . 170 .

أما كلوشه فيساوي براءة الابن ببراءة الأب : op . cit., p . 113 .

ويُستحسن جداً الرجوع إلى فلوتارخ الذي وصف سلوك فيلوتاس وعنجهيته وصبر الإسكندر عليه ، كرامةً لوالده : op . cit ., § 49 .

أمّا آريان فالظاهر ، من المختصر الذي أورده ، أنه خلط بين شكوى قديمة نُميت إلى الإسكندر في مصر ومجريات المؤامرة الحاضرة : op . cit ., III , 26 .

٢٩ – لا بدّ من ملاحظة الفارق الهامّ بين رواية المؤرّخ الروماني كوانت كورس (الفصل ٨ ، الفقرة الأولى) الذي يحمّل الإسكندر مسؤولية الجريمة ، إذ يجعله ينتظر خروج كليتوس مع المدعوين ليطعنه ، وفلوتارخ (المقطع ٥١ ، العدد ٨) الذي يلقي التبعة على كليتوس الذي بعد أن أُخرج قسراً من القاعة

رجع ليتحدى الإسكندر ، أمّا آريان (الكتاب ٤ ، المقطع ٨ ، العدد ٩) فيسرد أكثر من رواية عن الحادث ، ولكنه يؤكّد ، مثل فلوتارخ ، أنّ كليتوس ، بعد أن أُبعد ، رجع لمجابهة الإسكندر ، فبادره هذا إذ ذاك بالطعنة القاضية .

٣٠ - PLUTARQUE , op . cit ., § 52 , 3 .

الفصل التاسع

المزج العرقي: مقاومة ونجاح وموت مبكر

زواج الإسكندر بفارسية (بَلَخَ ، ربيع ٣٢٧ ق.م.) :

إذا كنّا ألفينا الفاتح متردداً وسجّلنا عليه سلوكاً متناقضـاً في الحقبة الثانية من فتح بلاد فارس ، فشاهدناه يُكثر تعيين المرازبة الفرس على المقاطعات المحتلّة من جهة ، ويُبيح مدينة برسيبوليس ويحرق قصورها من جهة أخرى ، فاليوم نرى الإسكندر مشدوداً إلى أهدافه في الوفاق والمساواة ، مصمماً على تنفيذ سياسة المزج بين المكيدونيين والفرس ، لا يأبه للمعارضة الضارية التي تكشّفت له في قضيتَيْ فيلوتاس وكليتوس .

ففي ربيع ٣٢٧ ، وبعد الاستيلاء على قلعة الصغد (قرب دربنت) ، أراد الإسكندر أن يدلل على عزمه واتجاه سياسته ، فاختار الأميرة روكسان ابنة الشريف الفارسي أوكسيارت زوجة شرعية له ، ولئلا يُشَك فيما كان يهدف إليه أعلن : "إنه لمن مقتضيات تثبيت دعائم الإمبراطورية حصول الاختلاط بين المكيدونيين والفرس بالتزاوج ، تلك هي الوسيلة الوحيدة لإزالة خجل المغلوبين وتبديد كبرياء المنتصرين " (١) .

قضية السجدة : بَلَخ ٣٢٧ ق.م :

ما من موضوع أصابه التشويش واعتراه الخلط تفسيراً لحياة الإسكندر ، مثلما حدث لقضية السجدة ، فهناك الاختلاف في كيفية أدائها ، وهناك التناقض في معناها وأهدافها ، فلا بدّ والحال هذه من توضيح ذلك قبل التفرّغ إلى ما كان يرمي إليه الفاتح من ورائها ، وإلى الدور الحاسم الذي لعبه كاليستين في إفشالها .

تقوم السجدة عند الإغريق بإحناء القامة أو الاكتفاء بإحناء الرأس ، وحمل قبلة بأطراف الأنامل إلى الفم . وكان اليونان يحتفظون بهذه السجدة للآلهة دون غيرهم . أمّا الفرس فكانوا يفترشون الأرض ويمسّونها بالجبين عند المثول أمام مليكهم ، وإن كانوا لا يعترفون بألوهيته ، فإنّما يمارسون ذلك لاعتبار الملك " مختار " أهورا مزدا" إلههم الأعظم وصورته البهية .

وأراد بعض كبار المؤرّخين المعاصرين [٢] مثل ألْتايْم وضع طريقة السجدة الفارسية موضع الشك قائلاً : " إنّ السجدة عند الفرس لا تتطلب الانحناء والركوع حتى الأرض " ، ولكنّ شهادة إيزوقراط (+ ٣٣٨ ق.م.) المعاصر للإسكندر واضحة ، فهو يسخر من الفرس [٣] مؤكّداً أنّهم " يفترشون الأرض عند المثول أمام ملوكهم " .

نعم لقد استغرب الإغريق كيف يعفر الفرس جباههم أمام إنسان مثلهم ، فلا عجبَ إن حسبوا أنّ الفرس يعبدون ملوكهم ، والشهادات على ذلك كثيرة ، من إِيشيل (+ ٤٥٦ ق.م.) في تمثيلية " الفرس " ، إلى سفراء إسبارطة في شوشن يوم رفضوا القيام بالسجدة عند دخولهم على خشايرشا قائلين : " ليس من عاداتنا عبادة البشر " ، وكاد الأمر أن يفضي إلى أزمة بين الدولتين . وبقي اليونانيون يأخذون بهذا التفسير المغلوط إلى زمن فلوتارخ (+ ١٢٠ ب.م.) الذي فسّر بدوره [٤] اعتراض كاليستين على غير حقيقته ، معتبراً مقاومته السجدة إنكاراً لتأليه الإسكندر . أمّا الحقيقة فهي أنّ كاليستين كان من أكبر المتزلّفين إلى الإسكندر والداعين لتأليهه ، يشهد على ذلك عدد من المقاطع التي وصلت إلينا من كتاب " تاريخ الفتح " الذي وضعه ، وكان مع ذلك يقاوم فرض السجدة على المكيدونيين واليونانيين أسوة بالفرس البرابرة .

إنّ ازدواجية موقف كاليستين جعلت المؤرّخ فلوتارخ يسيء فهم السبب الحقيقي في معارضته الإسكندر . لقد كان كاليستين على رأي نسيبه ومعلّمه أرسطو [٥] . يقول الستاجيري في كتاب الخطابة : " ... ومن بين مظاهر التكريم التي يُخَصّ بها البشر السجدة ، وهي من ممارسات البرابرة "

إنّ النص يشير بوضوح إلى حقيقة ذات شقين ، وهي أنّ السجدة تُمارس تجاه البشر ، وأنّ هذا ما يُعمل به عند البرابرة (أي الفرس) .

ويصعب التسليم بأنّ كاليستين لم يكن يعرف ذلك التعليم ، أو أنّ الإسكندر نفسه ، وهو بدوره تلميذ أرسطو ، كان يجهل أنّ السجدة عند الفرس لم تكن تعني التأليه ، والقوّاد الإيرانيون منذ سنوات في بطانته .

وإذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية أخرى رأينا الفرس يستغربون الدالّة والألفة القائمة بين الإسكندر وقوّاده وجنوده ، ويعتبرون ذلك نوعاً من انتهاكه الهالة القدسية التي من واجب الفاتح أن يحيط بها نفسه ، وقد أصبح في نظرهم خليفة ملكهم على عرش فارس . وغدا الإسكندر في موقف مربك ، فهو لا يستطيع ، من جهة ، إعفاء الفرس من السجدة لئلاّ يزعزع خضوعهم له ، ويأبى ، من جهة أخرى ، أن يخصّ الفرس

وحدهم بها ، ممّا يتنافى مع كل ما كان يسعى إليه من تحقيق المساواة بين رعاياه ؛ من أجل ذلك نراه يتلمّس ويحاول ويداور ، عساه أن يرى منفذاً إلى الحلّ الذي ينشده . وكان يتحاشى إصدار أمر بتعميم السجدة ، لمعرفته نفور اليونانيين وتعالي المكيدونيين عليها ، وقد اضطر في آخر المطاف ، وعلى مضض ، أن يصرف النظر عنها تاركاً الحال على حاله .

فبناءً على كل ما تقدّم يمكننا القول : أوّلاً ، إنّ الإسكندر لم يكن يسعى إلى التأليه عندما رغب في تعميم سجدة الفرس على اليونانيين والمكيدونيين ، بل كان يرمي من وراء ذلك إلى جعل كل الماثلين أمامه سواسيةً تجاه سلطته ؛ وثانياً ، إنّ هذه " السواسية " وحدها التي تضع الغالب والمغلوب ، أي اليوناني والبربري ، على مستوى واحد ، هي التي أثارت حفيظة كاليستين . ولم يكن عسيراً على تلميذ أرسطو المفوّه أن يدحض براهين متملّقي الإسكندر ، أمثال أنكسارك ، الذين كانوا يجارون الفاتح في تعميم السجدة ، فيفحمهم . نعم ، لقد استطاع كاليستين تفشيل خطة الإسكندر ، إلاّ أنّه ذهب ضحية ما نجح به (٦) .

الزواجات في مدينة شوشن (شباط ٣٢٤ ق.م.) :

بعد رجوع الإسكندر من حملة الهند ، أمعن في سياسة المزج والمساواة التي اعتمدها لإرساء دعائم إمبراطوريته العالمية . ويُخيّل إلى من يتابع تلاحق الإجراءات الحاسمة التي اتّخذها الفاتح في هذه الحقبة أنّ إحساساً غامضاً قد امتلكه ، وكأنّه يُشعره بدنوّ أجله ، فأراد أن يستعجل الأمنية الكبرى التي كانت تراوده .

ولم يكن زواج الفاتح الأوّل بالأميرة روكسان الفارسية في بقطيريا (ربيع ٣٢٧) الذي مرّ بنا والبيان الذي أذاعه في تلك المناسبة سوى توطئة لما كان يريد أن يكمله . والآن ، وبعد مرور ثلاث سنوات ، نراه يقيم في شوشن أغرب حفلة زواجات بالجملة عرفها التاريخ ، فقد أراد أن تُحاط بمظاهر العظمة والأبّهة والبذخ ، من سرادق ضخم بلغ محيطه على قول المؤرخين أربعة فراسخ ، نُصب على خمسين عموداً بعلوّ عشرين ذراعاً ، أُسدلت عليه ستائر حيكت بخيوط الذهب والفضة ورصّعت بالأحجار الكريمة ، إلى أرائك قوائمها كلّها من الفضّة ، وأريكة الإسكندر من الذهب الخالص ، إلى أرض فرشت بالسجّاد الفارسي الفاخر .

وبلغت الحفلة ذروتها عند وصول رتل من الفتيات الفارسيات ، تتقدمهنّ ستاتيرا ابنة دارا البكر وأختها الصغرى درياتيس يتبعها رهط من الأميرات ، ثم عدد من فتيات بيوتات الفرس العريقة .وكان عدد القوّاد من رفقة الإسكندر الذين ارتبطوا بعقد الزواج في ذلك اليوم قرابة الثمانين ، وأربى عدد الجنود على عشرة آلاف . ودامت الاحتفالات خمسة أيام تخلّلتها المهرجانات والمباريات الغنائية والموسيقية والألعاب والتمثيليات ومظاهر التسلية المتنوعة (٧) . وتجلّى كرم الإسكندر في هذه المناسبة على أروع مظاهره ، فقد أعفى كل المتزوجين بآسيويات من التكاليف المالية ، عدا البائنة التي خصّ بها كل زوجة ، والهدايا الشخصية ، ثم تكفّل بدفع الديون المترتبة على كل جنود جيشه ، وقد بلغت حسب المؤرخ أريان عشرين ألف وزنة (٨) .

وأشاد المؤرخون المتأخّرون بمغزى حفلة زواجات شوشن ، فمنهم من رأى فيها خاتمة العداوة بين اليونانيين والفرس ، ومنهم من اعتبرها رمزاً لقران أوروبا وآسيا ، وآخرون رأوها توطئة للأخوّة العالمية التي قضى عليها موت الإسكندر المبكر .

وأجرى الإسكندر بعض الترقيات مكافأةً لعدد من أفراد حاشيته ووزّع أكاليل من الذهب على ليونات وبوسوتاس اللذين أنقذا حياته في حصن الماليين (٩) ، وعلى نيارك أمير البحر الذي وصل مصب الأندوس بمصبَّيْ دجلة والفرات ، وعلى غيرهم ممّن برّزوا في معارك السند ، أو قاموا بخدمات مرموقة .

ولم ينحرف المكيدونيون الذين تجاوزوا سن الشباب بتيار العالمية والتساوي الذي اختاره الفاتح ، بل عابوا مواطنيهم لقبول الزواج من فارسيات واتّباعهم طقوساً بعيدة عن تقاليدهم الوطنية . وزاد استياؤهم لمشاهدة ثلاثين ألفاً من شبّان الفرس آتين من المقاطعات الشرقية ، مدرَّبين ومسلّحين على الطريقة المكيدونية . كما أضرم في أوار غضبهم رؤية القائد بوسوتاس ، متجلبباً بثياب الفرس ، يتمتم برطانة الأعاجم أمام إعجاب الإسكندر .

والتفت الفاتح أخيراً إلى الجيش للمضي (١٠) فيما بدأ به في المقاطعات الإيرانية الشرقية من تجديد وتحوير ، مع فارق جوهري أراد إنجازه هذه المرّة تمشياً مع سياسة المزج والمساواة التي أخذ بها . فبدلاً من أن يجعل من الفرس والفرثيين (PARTHES) والصُغد وجنود بقطيريا فرقاً خاصة تردف فيالق فرسان المكيدونيين ومشاتهم ، كما ذكرنا في حينه ، عَمَدَ الآن إلى خلط العناصر بعضها ببعض (١١) ، وأنشأ فيلقاً خامساً من الفرسان جمع فيه عناصر آسيوية مختارة إلى جانب المكيدونيين ، ولم يستثن الفاتح

الفرقة الصفوة ، " الأغيمَا " ، خاصة الملك ، المحفوظة لأشراف مكيدونية دون غيرهم ، فأدخل فيها عدداً من الأمراء والأشراف وأولاد مرازبة الفرس ، نذكر منهم شقيق روكسان زوجة الإسكندر الأولى ، وجعلها تحت إمرة القائد هيسياستيس ،وهو من بقطيريا ، وكان السواد الأعظم من الجنود المكيدونيين ينظرون شزراً إلى مظاهر هذا " التبربر " الذي وتّر أعصابهم وأثار حفيظتهم وجعلهم أشبه ببركان يوشك أن ينفجر في أوّل فرصة .

انتفاضة العصيان وصلاة الوئام في أوْبِيْس (تموز ٣٢٤ ق.م.) :

وانطلق الإسكندر بعد شوشن مع بَعض فرق جيشه يتفقّد مصبّات دجلة والفرات ، فأمر بتدمير الحواجز التي أقامها الفرس ، تحسباً للاحتياجات الآتية من البحر ، وأوعز بعزق الأقنية وإنشاء السدود وإقامة الهوايس ، ثمّ صعد دجلة حتى مدينة أوبيس القائمة على تقاطع الطرق ، وكان ثقل الجيش قد سبقه إليها .

ونظراً لانهماك الإسكندر في استعدادات فتوحاته المقبلة وسعيه الحثيث إلى رؤية جيشه على كامل جاهزيته ، قام خطيباً في حشد فيالقه في مدينة أوبيس ، وعرض على مَنْ تقدمت بهم السنّ والمرضى وأصحاب الجروح المستعصية الرجوع إلى اوطانهم ، واعداً أن يغمرهم بعطاياه . وظنّ المكيدونيون ، وهم على ما عليه من الاستياء والحفيظة ، أنّ الإسكندر أراد التخلّص منهم بعد أن استغنى عنهم بالفرق الإيرانية ، فعلا صياحهم وتفاقم لَجبهم وصرخوا بوجه مليكهم (١٢) طالبين " أن يصرفهم كلّهم مستعيناً بعد اليوم بوالده (آمون) في حروبه " . استشاط الإسكندر غضباً من موقف جنوده وزاد في غيظه ذلك التلميح إلى عقيدته ، وكان عليه أن يقمع الغضبة قبل أن تُصبح عصياناً ناجزاً ، فهبط عن المِنصّة إلى صفوف الجنود يتبعه حرسه الخاص ، واختار عدداً من كبار المحرّضين وأمر أن يساقوا فوراً إلى التأديب ، فساد فجأة صمت رهيب ...وعندما رجع إلى المنصة توجّه مجدداً إلى الجيش قائلاً : " لستُ أريد أيها المكيدونيون ، (١٣) أن أصدكم عن الرجوع إلى عيالكم لأنّ هذا شأنكم لكنّي أردت قبل انصرافكم أن تعرفوا كيف تكافئوننا ، أنا وأبي على ما أسديناه إليكم ... " . ثمّ أخذ يسرد بالتفصيل ما حقّقه والده في سبيلهم ، وممّا قال لهم : " ... لقد وجدكم أبي فيليّبس فقراء تائهين ، لباسكم الجلود ، يرعى أكثركم قطعاناً هزيلة في الجبال ، فملّككم سهول البرابرة القائمين حولكم وجعلكم أسيادهم بعد أن كنتم لهم عبيداً ،

ثم انتقل إلى منجزاته فأضاف : " ... لقد أخضعتُ لكم الشرق كله ... وكسبتُ لكم كنوز فارس ... وأنا ماذا جنيت من هذا كلّه سوى هذا الأرجوان وهذا الإكليل ؟ ... آكل ما تأكلون وأنام مثلما تنامون ، لا بل أسهر من أجلكم وأنتم راقدون ... مَنْ منكم يجرؤ ويكشف عن جروحٍ أكثر مما أحمل في جسدي ؟... " . وختم قائلاً : " لقد أردتُ أن أسرّح مَنْ لم يعد يقوى منكم على القتال ليذهب إلى بيته وأنتم تريدون كلّكم الذهاب ، ألاّ اذهبوا وأذيعوا على الملأ أنّكم هجرتم ملككم الإسكندر ، وعهدتم إلى البرابرة الذين غلبهم في حمايته ، ذلك لعمري يؤتيكم مجداً عظيماً أمام الناس ، وبراً ممدوحاً أمام الآلهة ، الآن أقول لكم : اذهبوا " .

وما كاد الفاتح ينهي خطابه حتى سارع للاعتكاف في قصره ، وأمر ألاّ يدخل عليه أحد ، تاركاً الجنود مشدوهين واجمين خجلين من تقريع ملكهم ، لا يعرفون ما يقولون أو ماذا يفعلون . وبقي الأمر هكذا معلّقاً طيلة يومين ، وفي اليوم الثالث دعا الإسكندر رجالات جيشه ، الميديين والفرس ، وأمّرهم على الفيالق والقطاعات والفرق الإيرانية المجنّدة ، غير مستثنٍ الحرس الملكي الخاص ، حافظاً لكل أقسام الجيش الجديد أسماءَها المكيدونية . وما إن عرف المكيدونيون هذه الإجراءات المثيرة حتى قام قائمُهم ، وتراكضت حشودهم نحو القصر الملكي ، وألقوا سلاحهم عند الأبواب ، تعبيراً عن خضوعهم ، وأخذوا يتوسّلون ويتضرّعون معلنين أنّهم سيبقون حيث هم ليل نهار حتى يظفروا برضى قائدهم .واستجاب الإسكندر أخيراً لتوسّلاتهم فخرج إليهم ، وما إن رأوه حتى ارتفع عويلهم ، فبكى الفاتح معهم ، ثم أنّبهم برفق ولين ... وتخطّى أحدُ كبار الجيش الصفوف واقترب من الإسكندر وقال له بقلب كسير : " أيّها الملك ، إنّ ما آلم المكيدونيين كلّ الألم هو أنك رفعتَ بعض الفرس إلى درجة القربى منك وأعطيتَ غيرهم امتياز القبلة ، ففضّلتَ بذلك الفرس علينا " ... فقاطعه الفاتح متأثراً : " وأنا أُعلن منذ الآن أنّكم أقربائي وخاصتي ، ولن أدعوكم بعد اليوم بغير هذا الاسم ... " . وتهافت الجنود يقبّلون قائدهم وعلت أهازيجهم وارتاحت قلوبهم ... وقدم الفاتح قرابين الشكر للآلهة ، فأقيمت وليمة جلس فيها الملك بين المكيدونيين ، يليهم الفرس ثم بقية ممثلي الأمم ، وصلّى عرّافو اليونان والفرس معاً ، وتضرّع الإسكندر إلى الآلهة : " أن تَمنح المكيدونيين والفرس السعادة والوئام والتعاون في إدارة الإمبراطورية " (١٤) .

وكان عدد الجنود الذين اختاروا الرجوع إلى مكيدونية قرابةَ عشرة آلاف ، صُرفت لهم جعالاتهم ، وأضاف إليها الفاتح وزنة ، هبة لكلٍ منهم . ويُخبرنا فلوتارخ أنّ الإسكندر أوعز إلى نائبه انتيباتر في أوروبا " أن يُجلس المسرَّحين من خدمته في الحفلات الرسمية العامة في الصفّ الأوّل وعلى رأس كلٍ منهم إكليل " ، رمزاً للمجد الذي أحرزوه لاشتراكهم في فتوحات الإسكندر (١٥) .

هل اعتقد الإسكندر بألوهيته ؟

كثر اللغط عند الكتّاب الأقدمين والمعاصرين حول ادّعاء الإسكندر الألوهية ، ونظراً لتشابك عناصر الموضوع وتمازج الخلفيات التي يستند إليها عادة مؤرّخو الإسكندر ، رأينا أن نبدأ بملاحظات تمهيدية نتدارك بها كل التباس قبل الخلوص إلى نتيجة :

أوّلاً ، يصعب علينا جداً بعد أكثر من ألفي سنة في ظلّ التوحيد وتنزيه الألوهية أن نعي تماماً نظرة الوثنيين إلى آلهتم ، فالهوّة السحيقة التي تقوم اليوم بين الخالق ومخلوقاته لم تكن قائمة عند اليونان ، والفكر عندهم رغم تحليقه في ذرا الماورائيّات والإلهيّات لم يتوصّل إلى مفهوم الإبداع (الخلق من العدم) ، فهناك ألفة ومعاشرة ، وقُلْ تزاوج وغير ذلك بين الآلهة وبنات البشر لا يكاد ينقطع سردُها في نتاج الفكر اليوناني ، بدءاً من إلياذة هوميروس حتى تمثيليات أوروبيد ، وقد أعطتنا هَرْقول وديونيسيوس وأخيل ، الخ .. نتيجة ذلك التزاوج .

ثانياً ، كان الحسّ الديني قد ضعف كثيراً على زمن الإسكندر ، فهذا أفهيمير (٣٥٨ ـ ٢٩٧ ق.م .) معاصر الفاتح يضع كتابه " التاريخ المقدّس " ويقول فيه : " ليسَ الآلهة سوى ملوك وأقيال قدماء عاشوا في أمكنة من الشرق ...ثم أُلِّهوا ... " . ومن الطريف ادّعاء أفهيمير أنه رأى بأم العين قبرَيْ زَفْس وأبولّون ...

ثالثاً ، إنّ مفهوم القُدْسية مختلف تماماً عندنا اليوم إذا ما قوبل بما كان يفهمه قدماء اليونان . فمؤسّسو المدن لهم قدسيتهم ، تقام لهم مذابح وتنظّم لهم طقوس ، وكذلك القول عن قدسية الأموات ، لهم أمكنة حرم وتُذبح لهم الذبائح وتُراق على قبورهم السكائب .

رابعاً ، هناك شهادات كثيرة تشير إلى ما كان يمكن أن يُقدم للأحياء من إكرام . يقول أرسطو في كتاب " الخطابة " (١ ، ١٣٦١ ، آ) : " نُكرم بحق وبنوع خاص الذين يعملون الخير ... مهما طول ، عرفاناً لجميلهم " . ويضيف قائلاً : " ومن مظاهر

هذا الإكرام لنحر الذبائح ، وإنشاء التسابيح ... وتعيين أمكنة حرم ، وتشييد الأضرحة ، وإقامة التماثيل لهم ... " .

خامساً ، كان اليونانيون يعتقدون أنّ قدسية الآلهة يمكن أن تكون ، لأسباب شتى ، ساكنة في بعض البشر . ومن المعلوم أن ايزوقراط (+ ٣٣٨) قد عمل الكثير في ترسيخ الاقتناع أنّ في الملك فيليبس ، والد الإسكندر ، عنصراً إلهياً ، نظراً لنسبه المتّصل بهَرْقول حتى زَفْس . ونحن بدورنا نقول : فكيف بالإسكندر وهو ، علاوة على ما ورثه عن أبيه ، يمتّ بنسبه إلى أخيل صُعُداً إلى زَفْسَ سيد الآلهة ، من جهة والدته ؟ ...

سادساً ، هناك فارق كبير بين التقديس والتأليه ، فالأشياء والأشخاص يمكن أن تُقدّس بإقامة الشعائر وتنظيم الطقوس دون أن تُؤَلّه أو تُعبد (١٦) .

سابعاً ، لقد شاع عند المؤرّخين الذين يقولون بادّعاء الإسكندر الألوهية استنادُهم إلى أنّ الفاتح أرسل ، سنة ٣٢٤ ق.م. الضابط نيكانور ، ابن أرسطو بالتبنّي ، إلى مدينة أولمبيا ليعلن ذلك مع الأمر بإرجاع المنفيين .ولكنّ ديودور المؤرّخ الذي أورد النص (١٨ ، ٨) لم يذكر التأليه .

أمّا فلوتارخ (+ ١٢٠ ب.م) ، وهو بين المؤرّخين مَنْ سرد أكثر من غيره تفاصيل مثيرة عن حياة الفاتح فقد أظهر لنا الإسكندر تارة بعد تارة مداهناً ثم مداعباً وأخيراً نافياً اعتقاده بألوهيته (١٧) . إنّ أمر التأليه قد التبس على فلوتارخ شأنه في ذلك ما حصل له بموضوع السجدة التي سبق ذكرها ، فنراه مؤكداً ونافياً التأليه في آن واحد ، ثمّ يحاول الخروج من التناقض الذي وقع فيه بإقحامه الازدواجية في سلوك الفاتح فيقول : " لقد كان أمر التأليه عند الفاتح وسيلة تسلّط " ، أي دون اقتناع .

يصعب علينا لا بل يستحيل قبول مثل هذا الشرح الساذج لأنه يضرب عرض الحائط بما أجمع عليه مؤرّخو الإسكندر عن صدق تقوى الفاتح حتى البساطة وسلامة الطوية في كلّ ما يتعلق بعالم الآلهة . إنّ إساءة فهم فلوتارخ المعنى الحقيقي للسجدة قاده إلى سوء فهم طلب الإسكندر إقامة الشعائر وترتيب الطقوس له ، فاعتقد خطأً أنّ السجدة وطقوس الإكرام تعني التأليه . ولعلّنا نجد عذراً لما وقع فيه من زلل إذا تذكّرنا أنه عاش إبان عهد تريانس (+ ١١٧ ب.م.) وادريانس (+ ١٣٨ ب.م.) في عصر أصبح فيه تأليه أباطرة الرومان عادةً مألوفة ثابتة حتى مجيء ديوكليسيانس (+ ٣١٣ ب.م.) الذي غالى في الأمر فأدخل إلى بلاط رومة عدداً من مراسيم تشريفات الفرس .

بعد كلّ ما تقدم من ملاحظات يمكننا أن نُجمل الموضوع فنقول :

أوّلاً ، ليس بين أيدينا نص واضح أكيد يشير إلى طلب الإسكندر التأليه ، وكل النصوص التي وردت عند القائلين بالتأليه متأخّرة ، وهي باعتقاد أكبر مؤرّخي اليوم مدسوسة .

ثانياً ، إذا كان ثمّة من طلبٍ ، وهذا شبه أكيد ، وجّهه الإسكندر إلى أثينا والحشود الملتئمة في أولمبيا ، فهو في الأكثر إقامة الشعائر وتنظيم الطقوس له ، وهو أمر لم يخرج فيه الفاتح عما ألفه اليونان وسبق وذكره أرسطو ، وركّز عليه إيزوقراط لصالح الملك فيلبس والد الإسكندر ، بتأكيده أنّ قدسيةً من لدن الآلهة تسكن فيه .

ثالثاً ، من المعلوم أنّ تأليه الملوك ظاهرة هلنستية متأخّرة اتبعت موت الإسكندر وبرزت بعد سنة ٣٠٥ ق.م. (سنة إعلان الملكيات) وفي مصر على الأرجح ، إبان عهد بطليموس الأول (+ ٢٨٢ ق.م.) ، وكانت بوادرها خجولة ، ولم تأخذ مظهراً جدّياً إلاّ في عهد بطليموس الثاني (+ ٢٤٦ ق.م.) .

موت مبكّر :

لم يكن يدور في خَلَد الإسكندر ، عندما أصعد في مدينة أوبيس صلاته إلى الآلهة طالباً إليها أن تجعل الوئام سائداً بين المكيدونيين والإيرانيين ، أنّه أعلن وصيّته قبل رحيله إلى العالم الآخر . وكيف تجد مثل هذه الوساوس الغريبة منفذاً إلى قلبه ، وهو في مستهلّ الثالثة والثلاثين من عمره ، في قمة المجد ، وقد غلب أعداءه وكسر شوكة مناوئيه وكبح جماح المكيدونيين وساوى بينهم وبين مَنْ كانوا يُسمَّون برابرة في الأمس القريب ، جاعلاً أواصر الدم والقربى تشد بعضَهم إلى بعض ، فغدت الأرض خاشعة عند قدميه ؟

وها سفراء الأمم يؤمّون بابل ، من كل حدب وصوب ، مادحين مهنّئين مكرّمين رافعين إليه توسلاتهم وطلباتهم ... وهاهو الآن يرنو إلى الغرب ويعدّ الجيوش والأساطيل للفتوحات الجديدة واستكشاف البحار البعيدة فيضمّ الغرب إلى الشرق ، ويقينه أنّ إمبراطوريته العالمية ستوحد لتخلُد .....

ولم يكن الفاتح يداعب أضغاث أحلام ، وهو الذي أجمع مؤرّخوه على أنه جمع في شخصيته الفذة الرؤى والواقعية ، ولم يكن عسيراً عليه ، كما أخضع الشرق ، أن يخضع الدولتين القويتين القائمتين آنذاك في الغرب : قرطاجة المنهمكة بتجارتها ، وروما التي لمّا يصلب عودها ، ولكنّ المقادير رأت غير ذلك ، فجعلت السنة الأخيرة من حياته

مرّة مثل العلقم ، فحطمت قلبه واستنزفت حيويّته قبل أن تنتهي بـه إلى رقدتـه الأخيرة ....

وكانت أقسى ضربة سدّدتها الأيام إليه موت هيفستيون المفاجىء ، خَدينِ صباه ورفيق حروبه وعشير أيّامه السعيدة . وإنّ من يُنعم النظر في سلوك الإسكندر خلال الأشهر المتبقية له يوقن أنّ دوافع حماسته قد فترت ونوابض حياته قد خفتت ، رغم كلّ ما فعل في مأتم " مَنْ كان يفضّله على حياته " ، ورغم كل ما احتاط له لتخليد ذكراه ، والتفت الفاتح إلى حملات صعبة قادها في جبال الكوسيين فلم يتعزَّ ، فاندفع يُكثر من الشراب محاولاً دفن أشجانه في الخمور ..

ولاحظ أوثق مؤرّخي الإسكندر القدماء أنّه أصبح في أخريات أيّامه سريع الانفعال ، كثيرَ الوساوس ، شديدَ الاعتقاد بتخرّصات العرّافين والعرّافات ، متطيراً من حركة حيوان يخالها غير مألوفه ، يُكثر الطلب بإقامة الذبائح ليستكشف الغيب بفحص أحشائها ، طالباً إلى الكهّان البابليين والمصريين القيام بطقوس التطهير .

وفي مرضه الأخير ،وقد دام عشرة أيام ، لم ينقطع عن إقامة الشعائر إلى أن أنهكت الحمّى قواه فبقي في الهيكل حيث وافته المنية .

وذهلت الشعوب كلّها لنبأ موت الفاتح ، وكان حزن الأمم الشرقية أقوى من حزن أمّته عليه . وإذا صح قول المثل الوثني القديم : إنّ مَنْ أحبّته الآلهة أماتته شاباً ، فالإسكندر عاش اثنتين وثلاثين سنة وثمانية أشهر ،وملك اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر ، وتوفي صباح يوم ١٣ حزيران سنة ٣٢٢ ق.م. ، فحُنّط وأقيم له مأتم لم يعرف العالم له نظيراً ، وقيل فيه ما لم يُقل في أحد (١٨) .

وحدث تنافس بين قوّاد الإسكندر لاحتواء جثته ، وتمكّن بطيلموس في آخر الأمر من توجيه الموكب إلى ممفيس حيث بقي الجثمان موقّتاً إلى أن أتمّ تشييد ضريح لائق به فنُقل إلى الإسكندرية .

وتَردّد في بعض المراجع أن جثمان الإسكندر أودع ببابل في تابوت من ذهب ، وعندما نقله بطليموس إلى ضريح الإسكندرية جعله في نعش من بلّور لرؤية ملامح الفاتح . وبين أيدينا شواهد على أنّ يوليوس قيصر (+ ٤٤ ق.م.) وأوكتافيوس (+ ١٤ ب.م.) شاهداه عندما هبطا مصر في عهد الملكة كليوباترة ، أي بعد قرابة ثلاثمئة سنة ، وأنّ اوكتافيوس تعجّب من جودة الجثة ودهش من جمال طلعة المكيدوني الأكبر . وقد ظل الناووس والجثمان محفوظين إلى زمن الإمبراطور الروماني إسكندر

ساويروس (+ ٢١١ ب.م.) ، ثم فُقد أثرهما ؛ وقد ألمح القديس يوحنا الفم الذهب (+ ٤٠٧) إلى ذلك في إحدى عظاته ، وأكد الأمر تيودور المؤرّخ (+ ٤٥٧) قائلاً : " مَنْ يعلم أين قبر الإسكندر الذي أخضع ـ عبر سنين قليلة ـ عدداً من الأمم ؟ (١٩) .

أمّا مكان قبر الفاتح اليوم ، فروجيه بايروفيت – آخر مؤرّخي الإسكندر – يؤكّد أنه اكتُشف سنة ١٩٠٧ ، وثُبت ذلك سنة ١٩٦٢ ، ويذهب فريزر سنة ١٩٧٢ : إلى " أنّ كل التنقيبات باءت بالفشل " (٢٠) ، ويسود الرأي اليوم بين علماء الآثار أنّ قبر الإسكندر قائم تحت جامع النبي دانيال في الإسكندرية ، لذلك يصعب التنقيب عنه .

لم يَتْرك الإسكندر بسبب موته المباغت وصية (وهل تُورث العبقرية ؟) وكلّ ما قيل في هذا الصدد أنّه عندما سُئل ، وهو على فراش الموت أمام بعض قوّاده ، لمن يَترك الملك أجاب " للأكثر جدارةً بينكم " ، وروي أنّه انتزع الخاتم من إصبعه ودفعه للقائد اللامع برديكاس ..... (٢١) .

أسرة الإسكندر :

إنّ الحب لم يلعب دوراً مهماً في حياة الفاتح (٢٢) ، وما سرده لنا فلوتارخ حول ترفّع الإسكندر وشهامته في هذا الموضوع بلغ حدّ الأساطير ...

عَرَفَ الإسكندر أربع نساء فارسيات : الأولى بَرسين ابنة أرتباز وحفيدة ارتحششترا الثاني أحد ملوك فارس ، وكانت ذات ثقافة يونانية ، ولدت له هرقول (سنة ٣٢٧ ق.م.) الذي كان عند موت الفاتح ، قد ناهز الرابعة من عمره ، ولم يخلف الإسكندر لأنّه من زواج غير شرعي ، والثانية روكسان ابنة أوكسيارت حاكم بقطيريا ، ولدت له ابناً مات صغيراً في الهند ، وعند وفاة الفاتح كانت حبلى في شهرها السابع ؛ وكانت الثالثة والرابعة من بنات ملوك فارس وهما ستاتيرا بكر دارا الثالث منافس الإسكندر ، وباريزاتيس ابنة أرتحششترا الثالث ، تزوج الفاتح بهما في شوشن ولم تنجبا .

وعندما ولدت روكسان ، بعد شهرين من موت الفاتح ، ابناً ، نودي به ملكاً على الإمبراطورية باسم اسكندر الرابع ، ووضع تحت الوصاية ، وكان أن جرى تقسيم الإمبراطورية بين قوّاد الفاتح تحت شعار الوصاية الملكية ، ولَمّا لم يعد من صالح هؤلاء الرجوع إلى دولة موحّدة جرت تصفية أسرة الفاتح على يد القائد كاساندر بن انتيباتر ، فقَتَلَ تباعاً أولمبياس والدة الإسكندر ، ثم برسين وابنها ، وأخيراً روكسان وولدها

إسكندر الرابع ، الوريث الشرعي للعرش ، وبموته قضي على سلالة الإسكندر الكبير وعلى كل أمل في وحدة الإمبراطورية .

حصيلة الفتح :

مرّ الإسكندر في سماء التاريخ مرور النيزك فأضاء واختفى ، مع فارق كبير بين الاثنين : فالنيزك يتبدد رماده في الفضاء فلا يُعرف له من أثر ، أما الإسكندر فخلال ملك قصير خلق عالماً جديداً وتخطّى تأثيره الأجيال إلى اليوم .

يقول مونتين : " في نصف حياة إنسان قام الإسكندر بمّا لم يقم به غيره من البشر " . ولقد كان الفاتح لغزاً في تعدد ضروب عبقريته ، حتى إنّ المؤرّخ اليوناني الكبير يوليب (+ ١٢٠ ق.م.) قال : " يصعب على من يريد فهم حياة الإسكندر أن يستعين بمقاييس البشر ، فإنه عبقري من طراز خاص" ، وإن ما ذكرناه في الفصول السابقة عن إرسائه ركائز التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري ، عدا التعبئة والتخطيط في قيادة المعارك وإدارة رحى الحروب ، وإنْ لم يُسْعَد بإكمال العمل ، لأكبر شاهد على ذلك .

ومن عناوين مجد الإسكندر أنّ الفتح كان لديه على الدوام في خدمة هدف أسمى : ألم يُصرِّح قائلاً " إنّي لم آتِ إلى آسيا لأخرب أو لأحوّل نصف الأرض إلى صحراء ، بل لأجعل الشعوب التي أخضعتها لا تأسف لانتصاري " ؟ ويقول فيه المؤرّخ كارل ماير : " حسبه فخراً أنه في فتحه لم يسع إلى استعباد الشعب ، ولم يرضَ أن تُـذِل أمةٌ أمةً أخرى " .

لقد سعى الإسكندر إلى ردم الهوة القائمة بين اليوناني والبربري ، وابتغى الوئام بين الشعوب على أساس المساواة في التوظيف حسب الأهلية ، والعيش المشترك في المدن التي أسّسها ، والمزج بالمصاهرة ، فبزّ في هذا المضمار العملاقين ، أفلاطون وأرسطو ، اللذين بقيا أسيرين في أُطر المدينة ـ الدولة اليونانية الضيّقة، وكان قد حان لها إمّا أنْ تزول أو أن تُشرّع أبوابها على آفاق الإنسانية الجديدة الواسعة .

وإذا لم يتمكّن الفاتح من تحقيق حلمه في إنشاء دولة عالمية سياسياً ، فإنّه بفضل المعالم التي ثبّتها ، والخطوات التي حقّقها ، واتباع السلوقيين والبطالسة والرومان بعدهم ، الأساليب التي استنبطها ، قد قامت وحدة عالمية ثقافياً جَنَتْ ثمارها البشرية جمعاء ، ويقول المؤرخ الكبير روبيركوهن في هذا الصدد : " من السهل تعيين زمان

ومكان عصر بيركلس ، أمّا الإسكندر فمّا كـاد أن يظهـر حتـى اختلـط تـاريخ اليونـان بتاريخ العالم كله وإلى ما شاء الله " .

ألم يكن من دواعي العجب أنّ الإسكندر مدّ حدود اليونـان بعيـداً إلى الشـرق حتـى أوصلها إلى البنجاب خلال سنوات هي أقل عـدداً مـن أصـابع الكفـين ؟ وإذا كـان مـا يهمّنا في التاريخ نموّ التمدّن والرقـي البشـري ، ألا تدهشـنا قفـزة الحضـارة اليونانيـة إلى أواسط آسيا ، في ظل الممالك اليونانية ـ البقطرية ، واليونانية ـ الهنديـة ، عندمـا أُعطـي لهذه أن تتجاوز حدود إمبراطورية الإسكندر لتصـل إلى بطـاليبوتره علـى نهـر الغـانج ، وعندما يتألّق الفنّ الهلنستي في غَنداره (دلهي اليوم) ، ليكون سبب ظهـور تمـاثيل بـوذا الرائعة ؟

أمّا في حقل العلم فقد ثبت أخيراً ، بعد مشادّة طويلة بين أصحاب الاختصـاص ، أنّ علم الفلك الهندي تأثّر بعلم اليونـان [٢٣] واسـتمرّ التمـازج بـين الحضـارات في هـذه الدول التي ظلت قائمة على طرفَيْ سلسلة جبال الهندوكوش حتى منتصف القـرن الأول ق.م. وإذا ما تخطّينا القرون ونظرنا إلى شـرقنا نلاحـظ أن التـأغرق الصِـرْف اسـتمرّ في آسيا الصغرى ستة عشر قرناً وفي سوريا ومصـر تسـعة قـرون ، قبـل أن تبـدأ الحضـارة اليونانية جولة جديدة رائعة مع الفكر العربي .

ظلال وأضواء :

لقد حوت حياة الفاتح أنواراً باهرة إلى جانب ظلال داكنة ، ويمكننا أن نعتـبر حكـم آريان من نيكوميديا (+١٧٢ ب.م.) ، وهو اصدق مؤرّخيه القدمـاء ، حكمـاً صائبـاً عندما قال فيه : " على من يريد أن يلفظ حكماً علـى الإسـكندر ألاّ ينظـر إلى تفـاصيل جزئية بل إلى مجمل ما حققه ، لأنه لا يمكن أن يقارن به أحد من الرجال " . ثم يضيف : " إني لا أخجل أن أنضـمّ إلى المعجبـين بالإسـكندر ، وإن كنـتُ قـد شـجبتُ بعـض أعماله ، إخلاصاً للحق ودعماً لمصلحة الخير العام " [٢٤] .

ومع آريان ، نرجّح نحن أيضاً هذا الرأي ، ونقول به .

الحواشي :

١ - RADET (G .) op . cot .,p 255 .

٢ - ALTHEIM (F.) , Alexandre et l' Asie , p .112

٣ - ISOCRATE , Panégrijue , § 151

٤ – PLUTARQUE , op . cit . S 54,3 .

٥ – ARISTOTE , Rhétorique , I , 1361 , A .

وكتاب " الخطابة " من أوائل مؤلّفات الستاجيري ، وكان من عادة المعلّم الأوّل أن يبدأ تعليمه به . والخطابة ، علاوة على ذلك ، من أسس التثقيف عند اليونان وبخاصة لملك عتيد ، ومن المؤكّد أنّ الإسكندر قرأ الخطابة على أرسطو . أمّا كاليستين فقد نال شهرة في هذا الفن كما هو معروف .

٦ – راجع أرسطو تلميذ أفلاطون وأستاذ الإسكندر الكبير في الفصل الثاني (الباب الأول) .

٧ – PLUTARQUE op . cit ., 70, 3 .

٨ – ARRIANO ,op . cit ., VII , 5 , 3 .

٩ – راجع الفصل الرابع : الإسكندر وفكرة السيطرة على العالم .

١٠ – لم يستطع الفاتح إنجاز المزج في الجيش دفعة واحدة للممانعة التي لاقاها عند فرق المشاة ، فبدأ بالفرسان في شوشن (سنة ٣٢٤ ق.م.) ، وأتمّ أمر الرجّالة بعد أشهر في بابل ، غبّ وصول بوسوتاس بعشرين ألفاً من الإيرانيين انضمت إلى الثلاثين ألفاً التي كانت قد التحقت بالفاتح في شوشن ، وبلغ المزج أشدّه في الكتائب الجديدة ، إذ ضُم إلى كل ٤ من المكيدونيين ١٢ من الآسيويين في كل صفّ في العمق .

١١ – ARRIANO , op . cit ., VII , 7,6 et 7,23 .

١٢ – لم يسبق ، على ما نعلم ، أن احتجّ الجيش على الإسكندر بالصياح وبالتلميح مثل هذه المرة ، بل كان يلوذ ، عند معارضته ، بالصمت المتعمَّد ، كما فعل في الهيداسب لمّا رفض الهبوط من السند إلى الهند ، فقام مُتقدمٌ بين الجنود ، عُرف بمكانته واتّزانه ، يبسط متوسلاً أمام الفاتح أسباب امتناع الجيش عن تلبية رغبة ملكهم ، وإذا كنّا قد عرفنا أسباب انفجار الجنود ، بناءً على ما فصّلناه في المقطع السابق من المتن ، فالإسكندر من جهته أصبح في سنواته الأخيرة لا يتحمّل المعارضة بسبب الإرهاق الذي اخذ يفعل فعله فيه ، واعتماده أكثر فأكثر أساليب حكم الفرس المطلق .

١٣ – ARRIANO , op . cit ., VII , 9 , 1 .

تبعنا " آريان " على العموم في هذا الفصل لأنه أورد تفاصيل مع نص الخطاب خلافاً لفلوتارخ الذي يوهم القارئ أنّ غضبة الجيش حدثت في شوشن ، معارضاً بقية المراجع .

١٤ - كانت و لم تزل هذه الجملة التي وردت عند آريان موضوع تفسيرات مختلفة بل متناقضة ، حتى إنّ بعض المؤرخين القدامى والمعاصرين فضّلوا إهمال هذا القول كلّه ، مثلما فعل فلوتارخ وهومو وجوغه ، أمّا كلوشه وراده فاحتفظا بلفظة الوئام وأهملا بقية الجملة ، بينما حصر ويلكن تطبيق المعنى على المكيدونيين والفرس دون سواهم ، وكان تارن قد جعل الجملة من السعة بحيث تشمل الإنسانية كلّها ، أمّا نحن فقد حاولنا نقل العبارة وتفسيرها على ما بدا لنا أكثر تماشياً مع فهمنا سياسة الإسكندر ، فعسى أن نكون قد وُفقنا .

١٥ - PLUTARQUE , op . cit ., § 71, 8 .

١٦ - PREAUX (C.) Le Monde Hellénistique , P . U . F ., 1978 .

١٧ - PLUTARQUE , op . cit ., § 28 ., 27 , 22 , 26 .

١٨ - بقيت أقوال النادبين في المأتم الذي أقيم للإسكندر في بابل ، ووصف العربة التي نقلت جثمانه إلى الإسكندرية ، موضوعَ تباري المؤرّخين والشعراء والكتّاب عبر العصور ، وتجدد عند المسعودي في كتاب مروج الذهب أقوالاً شبه خرافية بهذا الصدد .

١٩ - THÉODORET DE CYR , Thérapeutique ..., II , p. 332 .

٢٠ - راجع مقالة روجه بايرفيت في مجلة ماتش العدد ١٤٩٢ (٣٠ ك ١٩٧٧١) ص٤ ، حيث قدم للقراء أول جزء من مؤلفه " حياة الإسكندر " ، وقد أنهى كتابه سنة ١٩٨١ ، وهو يقع في ثلاثة مجلدات ضخمة (١٨٠٠ صفحة !!) ، وفيه صَوَّر الفاتح ، أخلاقياً ، على ما حلا له ، نقيض كل ما عرفناه عن الإسكندر عند فلوتارخ وآريان ، أوثق مؤرِّخي الفاتح ، والمعتمديْن أيضاً : عند المؤرخين الرصينين المعاصرين .

٢١ - انظر أيضاً : FRASER (P .) , Ptolomaïc Alexandria I ,pp . 15 ss .

ورد ذلك عند ديودور : المكتبة (١٨ ، ٢ ، ٤) . أما آريان فقد ذكر أمر الخاتم ولكنّه لم يذكر اسم يرديكاس :راجع تاريخ الإسكندر (٧ ، ٢٦ ، ٣) . ويرديكاس هذا تزوج شقيقة الإسكندر بعد موت الفاتح ، وقتل في مصر ، وممن ضَلَع في قتله سلوقس القائد مؤسس الدولة السلوقية العتيد .

٢٢ - RADET (G .) , op . cit ., p . 75 . : PLUTARQUE , op . cit ., S 21 , 22

٢٣ - WILKEN (V .) , op . cit ., p . 62 : WEIGAL (A) , p . 104

HOMO (L .) op . cit ., pp . 79 ss .

BASHAM (A .) , LA Civilisation de l' , Inde ancienne , p . 336 . sej — ٢٤

ARRIANO , op . cit ., VII , 30 .

الباب الثاني

فضل أفلاطون وأرسطو على العصر الهلنستي

فصوله :

الفصل الأول : منهجية مدرسة أرسطو وتأثيرها في العصر الهلنستي

الفصل الثاني : هل كانت مؤلفات أرسطو الخاصة مجهولة قبل أن ينشرها أندرونيكوس الرودسي ؟

الفصل الثالث : أرسطو في المنطق والماورائيات

الفصل الرابع : الإلهيات عند أفلاطون وأرسطو

الفصل الأول :

منهجية مدرسة أرسطو في العلوم وتأثيرها في العصر الهلنستي

من تأسيس الليقيون (٣٣٦ ق.م.) إلى نشر أندرونيكوس الرودسي مؤلفات أرسطو «الخاصة» (٦٠ ق.م.)

خَرَجَتْ المنهجية الأرسطية عن التفكير الافلاطوني وتميزت عنه ، فكانت خميرة تـألق العلوم في العصر الهلنستي عامة وفي الإسكندرية بنوع خاص .

ويمكننا إجمـالِ تأثـير أرسـطو في العصـر الهلنسـتي (٣٢٣ق.م ــ ٥٢٩ ب.م) بهـذا القول :

١ ـ كان تأثيره الفلسفي مَحْدوداً .

٢ ـ أما تأثيره العلمي فقد كان مُشعاً مثمراً ، نقول ذلـك مشيرين خاصة إلى قرنَـيْ العصر الهلنستي الأولَيْن .

ففي الفلسفة ، بقي فكر أفلاطون مسيطراً ، على العموم ، طوال تلك الحقبة ،ولسـنا نستغرب ذلك إذا تذكرنا أن المؤلفات التي نشـرها أرسـطو بذاتـه في شبابه (المؤلفـات العامة) ، كانت هي الرائجة وهي تحاكي – في مجملها – أفكار معلمه أفلاطون ، بينما بقيت مؤلفات الستاجيري الكبرى ، التي وضعها إبّـان نضوجـه (المؤلفـات الخاصـة) ، قليلة الانتشار ، وشبه محصـورة في الليقيـون وفي المـدارس الفلسـفية الأخـرى ، يُحتـذى بأصول منطقها ، ويَخرج أكثر من واحد ، حتى من تلامذة أرسطو ، على تعليمها .

أما تأثير أرسطو العلمي فكان على خلاف ذلك تماماً ، لا سيما عنـد الرعيـل الأول من تلاميذه ، إذ سار هؤلاء على الخطة التي وضعها أرسـطو لذاتـه ، وجعلهـا قـاعدة في مدرسته ، وهي جمع الأصول وتصنيـف كـل مـا كتـب سـابقاً في الموضـوع قبـل البـدء بالتأليف .

هكذا صنع أرسطو : فقد جمع قبل تأليفه " كتاب الشعر " كل المسرحيات التي نالت جائزة في المباريات اليونانية العامة ؛ وقبْلَ كتابه " التـاريخ الطبيعـي " صنّـف المعلومـات

المعروفة في عصره ؛ وقبلَ تدوين كتاب " السياسـة " جمع ١٥٨ دستوراً لمدن يونانية وغير يونانية ...

وهكذا فعل الرعيل الأول من تلاميذه بإيعاز وتخطيط وتقسيم العمل من المعلم الأول ؛ فقد قام هؤلاء بجردة تاريخية على العلوم والمعارف التي سبقتهم : فجمع تيوفراست (Théophraste) (المتوفى سنة ٢٨٧) " آراء الفيزيائيين "الذين سبقوه ، ووضع " تاريخ النبات " [١] في ٩ أجزاء ؛ وصنّف مينون (Ménon) " تاريخ الطب " وهو الأول من نوعه ؛ وألّف أوديم (Eudème) " تاريخ الهندسة والرياضيات وعلم الفلك " ؛ وبحث أريستوكسين (Aristoxène) في " تاريخ الموسيقى " (آلاتها ، مبادئها ، تعليمها) ؛ ووضع فانياس (Phanias) " تاريخ الشعر " و " تاريخ المدارس السقراطية " ، وألّف ديسيبيارك (Dicéarque) " حياة اليونانيين " وهو ضرب من تاريخ الحضارة .

كل هذه التواريخ كانت شبه تقويم لمكتسبات الماضي ، أُريدَ بها أن تكون متّكأً ينطلق منه الفكر إلى آفاق جديدة مبتكرة ، وهي فوق ذلك تؤلّف ، بمجتمعة ، دائرة معارف شبه كاملة ، يتتبّع فيها الباحث تحسسّات المفكرين السابقين وتطلعاتهم ، فيترك ما ثبت جدبه ، ويتابع السُّبُل التي أتت ببعض النتائج .

وفي هذه الحقبة بالذات ، قدّمت الأرسطية أعظم خدمة للعلم ، فقد أتحفته بمنهجية البحث العلمي التي كانت السبب الفعّال في تألّق العلوم بمدرسة الإسكندرية ، إبّان العصر الهلنستي .

ليست غايتنا الآن ، أن نستبق ما سوف نتوسع فيه في / المستقبل / عن نهضة مدرسة الإسكندرية العلمية وعن تألّقها الفريد ، إنما نريد أن نبيّن أن هذا الإشعاع العلمي كان من وحي أر سطو وتيوفراست وستراتون ، وهدفنا ، رفع ما يُلصق بالستاجيري عادة ، ولا سيما بين مريدي الفلسفة ، من إغراقه في التأمل والنظر ، والابتعاد عن الواقع المحسوس .

منهجية أرسطو في العلوم الطبيعية :

تُقدَّر الكتب البيولوجية ، عند أرسطو ، بقرابة ثلث مؤلّفاته [٢] ، مارس فيها المعلمُ الأولُ الملاحظةَ على أكمل وجوهها الممكنة آنذاك ، مستعيناً ببعض التجارب ومزاولاً التشريح أكثر من مرة . ويُجمع الباحثون على القول : إنّ إعجابنا بما توصل

إليه أرسطو يزداد كثيراً إذا تذكرنا ما كان ينقص المعلمَ الأول مما يحيط به الباحث نفسه اليوم : من ساعة لضبط الوقت ، وميزان لقياس الحرارة ، ومرقاب للرصد ، ومجهر للتدقيق ، إلخ ... بوقت لم تكن قد وضعت فيه المصطلحات التقنية للتعبير بدقة عن مفاهيم الفسلجة والتشريح وعلم الحياة والنبات والحيوان (٣) ؛ ويزداد إعجابنا كذلك إذا استرعى نظرنا أن العلم ، على زمن أرسطو ، لم يكن قد توصل إلى معرفة قوانين الجاذبية والضغط الجوي والظاهرات الكهربائية إلخ ... لكن وعلى الرغم من كل ذلك فقد توصل أرسطو إلى تصنيف قرابة ٥٤٠ نوعاً من الحيوانات حسب تدرّج الصورة فيها (٤) (على مذهبه) ، وفسّر ٥٠ نوعاً بالنظر إلى تكوينها .

لاحظ بعض العلماء الذين قمشوا مؤلّفات أرسطو الطبيعية ، أن المعلم الأول سلك فيها مسلكين متباينين (٥) : ففي فريق أول ، وهي المؤلّفات الصغرى مثل " نشوء الحيوان " و " أعضاء الحيوان " ، إلخ ... كان نهجه تعليمياً ، حرص فيه على تعليل ملاحظاته العينية ، أما في الفريق الثاني ، فقد اكتفى بالتصنيف دون ذكر الأسباب . وإذا كانت الزمرة الأولى مُعدّة للنسخ وللتوزيع على طلابه المداومين ، فالزمرة الثانية كانت ، بنظره ، مجموعة أوصاف ، وكأنها مستندات يرجع إليها ويُقتبس منها للدراسات الفرعية .

وقد دأب أرسطو ، إمعاناً في الواقع ، لا سيما مدة مكوثه في ميتيلين (لزبوس) ، على الإفادة من خبرة الأطباء والبياطرة ومربّي النحل والسمك والقصابين والقائمين على الأضاحي ، يصحبهم ويسألهم ، ليكون أقرب ما أمكنه من المعاينة الحسية .

ومما يدل على تشبّث المعلم الأول بالمشاهدة العينية ، أنه كان يوضح تعليمه عن الحيوان والنبات بمخططات توضيحية أحال إليها ، أكثر من مرة ، دارس كتبه (٦) وأربى على ذلك بوضعه كتاباً مستقلاً للرسوم التشريحية طلب مراراً ، في تضاعيف كتبه الأخرى ، الرجوع إليها (٧) . وقد ذكر ديوجين لا يرس هذا الكتاب بين مؤلفاته ، ولكنه لم يصل إلينا (٨) . هذا ما أتى به أرسطو في حقل الملاحظة والتوضيح ؛ أما في حقل التجربة والاختبار فقد شرَّح أكثر من حشرة وحيوان ، ووصف أعضاءها وترابط أقسامها . وكل الذين يدرسون كتاب الحيوان ، لا بد لهم من إبداء إعجابهم بما أتى به ، قبل ثلاثة وعشرين قرناً ، من دقة وتفصيل وطرافة في أكثر من موضع في هذا الكتاب .

ففي وصفه الزيز مثلاً ، نراه يراقب ويداور وينوّع المواقف تجاهه بإصبع ممدودة إليه ، ثم يحركها إلى اتجاهات مختلفة ويسجل ردّات فعل الحشرة (٩) . ويُشرِّح الخلد ، مستوضحاً أمر غياب حاسة النظر فيه ، فيقول : " إذا ما سلخنا جلد رأسه ، وهو غليظ ، وجدنا في المكان المعدّ لأعضاء الرؤية ، عينين ضامرتين ، لهما أقسام العين الحقيقية نفسها : القزحية وقسمها الداخلي المسمى البؤبؤ والجسم الغليظ المحيط بها " (١٠) . ويتضح ، من تضاعيف وصفه الحرباء ، أن أرسطو أجرى على هذا الحيوان تشريحاً حياً إذ يقول : " إذا ما شُق من أوّله إلى آخره يبقى تنفسه ،على حركة خفيفة جداً ، حول القلب " (١١) .

والآن يحق لنا أن نتساءل عن كيفية سلوك الستاجيري بعد أن كدّس تلك المجموعة الهائلة من الملاحظات الحسية على الحيوان .

قال جورج سرتون : " يُعَدّ أرسطو من العقول الأكثر جمعاً للمعارف التي وجدت " (١٢) ، ويتابع : " إن الباحثين في علم الأحياء في عصرنا الحاضر لتعروهم الدهشة ... لوفرة ما يجدون فيها من تفصيلات " . حقاً ، وإن دهشتنا لتزيد عندما نطلّع على الأسلوب العلمي الصرف الذي بلغه المعلم الأول ، ونأسف كل الأسف لأن الأيام لم تمهله ليستغل تمام الاستغلال تلك الكمية الضخمة من الحوادث والوقائع التي جمعها وصنّفها وبوّبها . ونكتفي بنص واحد ورد في كتاب نشوء الحيوان ، الذي يعدّ من أواخر مؤلّفاته (١٣) . استعرض أرسطو ، في مقطع طويل ممتع ، مختلف الفرضيات لشرح ولادة النحل ، مطبّقاً طريقة المساوقة في كل احتمالاتها . وبعد أن تتبع كل أوجه التلازم ، ولم تصل به إلى نتيجة علمية أكيدة قال : " هكذا تبقى الوقائع المتساوقة غير مرضية ، وإذا ما توصلنا يوماً ما إلى ذلك ، فعلينا أن نركن إلى الملاحظة الحية أكثر من ركوننا إلى البرهان (العقلي) ، واعتمادنا البرهان يكون على قدر توافق نتائجه مع الواقع الحسي " (١٤) .

لقد بلغ أرسطو بهذا النص ، في أواخر حياته ، بوادر ما سوف ينادي به ستوارت ميل بعده باثنين وعشرين قرناً (١٨٠٦ - ١٨٧٣) ، وقد هلل له معاصروه ، وكأنه وصل إلى أمر أنف لا عهد للعلم به !!!

ولكن أرسطو ، والحق يقال : لم يكن على شيء من هذه الدقة في الملاحظة الحية والاختبارات العينية في أول ما صنّف ونشر في شبابه ، بدءاً من سنة ٣٦٠ ، وكان قد ناهز الخامسة والعشرين من عمره . وإن الطريق التي قطعها بين أول ما ألّف وآخر ما

كتب ، كانت طويلة وصعبة ، تمكّن في آخرها من التمييز والفصل بين الأسلوب الوضعي والأسلوب الماورائي . وبوسعنا ، بشيء من الجلاء والوضوح ، أن نرسم الخط البياني للتطور الجذري الذي قطعه خلال إنتاجه الفكري : بين سنة ٣٦٧ ـ ٣٤٧ ، عهدَ مكوثه في الأكاديمية ، تلميذاً لأفلاطون ، ثم أستاذاً في الخطابة ولربما في المنطق ، كان متجاوباً ، تمام التجاوب ، مع آراء معلمه ونهجه ، المبعد طلاب الأكاديمية عن معطيات الحس . نقول ذلك ، تعميماً ، إذ ظهرت ـ في أواخر سني تلك الحقبة ـ بوادر تحرر وانتقاد للمُثُل الأفلاطونية ، ألمحنا إليها في فصل سابق .

وبين ٣٤٧ـ ٣٤٤ ، تفتح أرسطو في أسوس على معطيات الطبيعة ، مع بقائه في جو مشبع بروح الأكاديمية ، مع رفاق له من طلاب أفلاطون .

وبين ٣٤٤ ـ ٣٤٢ ، في لزبوس ، (ميتيلين) وتتسم هذه الفترة بأهمية كبرى في حياة أرسطو ، إذ عمل جاهداً على التخلص ، مع تيوفراست تلميذه وصديقه ـ من أسلوب النظر المجرد ، متجهاً ، أكثر فأكثر ، إلى ملاحظة وقائع الطبيعة ودرسها .

بين ٣٤٢ ـ ٣٣٥ ، وهي فترة مكوثه في مكيدونية ، معلماً للإسكندر ثم مستشاراً ومشرعاً ووسيطاً ديبلوماسياً للملك فيليبس [١٥] ، بعد انتصاره في خيرونة (٣٣٨) وقيام حلف كورنتيه ـ في العام نفسه ـ وما نتج عنه من مشاكل في التطبيق ، من تعديل في الحدود بين الدويلات المنضمة إلى الحلف ، وتعيين الحقوق والواجبات ، سواء فيما بينها ، أو مع الدولة المكيدونية .

وفي هذه السنوات ، خبر أرسطو أهمية السياسة الواقعية والعملية وكسب انفتاحاً كبيراً على غير العالم اليوناني .

بين ٣٣٥ ـ ٣٢٣ ، في أثينا مجدداً ، حيث أقام مدرسته ، الليقيون ، ونضج تفكيره وضبط زمام التمييز بين أساليب فروع المعرفة ، فاحتفظ بالتأمل والنظر للماورائيات ، واختص العلوم الطبيعية بالملاحظة والاختبار واضعاً بذلك الأسس النهائية لمنهجية العلوم الطبيعية .

دور تيوفراست (رئيس الليقيون من ٣٢٣ الى ٢٨٧) :

كان تيوفراست خير من يتابع طريقة المعلم الأول في مدرسة الليقيون ، إذ ظل ملازماً أرسطو قرابة ثلاثين سنة ، طالباً ومعاوناً وصديقاً . وبعد موت الإسكندر المفاجئ (١٣ حزيران ٣٢٣) ووصول النبأ إلى أثينة (أوائل تموز ٣٢٣) ، ثار سكانها ، وعلى رأسهم ديموستين ، وطردوا المكيدونيين ، وأخذوا يضيّقون الخناق على

كل من يمتّ إليهم بصلة . وشعر أرسطو بالخطر ، فاضطر أن يترك أثينة خلسة إلى خلكيدونية (أوبه) مسقط رأس أمه ، وقد بقيت معقلاً للمكيدونيين ، بعد أن عهد إلى تيوفراست بإدارة الليقيون ، تاركاً له مؤلّفاته ومكتبته .

لا نريد الآن أن نتناول ثقافة تيوفراست الشاملة ، وقد أحصى له ديوجين لايرس قرابة ٢٤٠ مؤلّفاً ، [١٦] تناول فيها خليفة أرسطو الماورائيات والمنطق والطب والشرائع والسياسة والخطابة وطبائع الإنسان ، بل نود أن نحصر كلامنا في مدى إسهامه في المنهجية العلمية .

وضع تيوفراست مؤلّفاً ضخماً في آراء الفيزيائيين (١٨ كتاباً) ، كان فيما بعد ينبوع كتب كثيرة من نوعه عبر العصور [١٧] وتاريخ النبات (٩ أجزاء) ، وأسباب نمو النبات (٦ أجزاء) . ولم يكتف في المؤلّفين الأخيرين بالوصف والتصنيف بل زاد على ذلك معلومات تناولت زراعة النبات وأمراضه واستعماله وتوزعه الجغرافي ، وعُدّت كتبه هذه أجود ما أتى به العصر القديم في هذا الموضوع ، وعُدّ مؤلّفها مؤسسَ علم النبات .

وبعد نتاج معلمه أرسطو تخطت مؤلّفات تيوفراست النباتية عاديات الزمن ، فوصلت إلينا كاملة ، وهو مصير نادر ، لم يكتب مثله إلا لقلة من المؤلّفات القديمة ، كما أن الأمر يشير ، بلا مراء ، إلى التقدير الكبير الذي حظيت به هذه المؤلفات عبر العصور .

لم يكن أحد يجيد معرفة مؤلّفات أرسطو بتفاصيلها مثل تيوفراست [١٨] ، فقد تتبع ، مع معلمه ، ولادتها ونموها يوماً بعد يوم ، ومن الطبيعي أن يكون صحب مراحل التطور الجذري الذي طرأ على أسلوب الستاجيري في منهجيته ، ولربما وقف على تطلعات مستقبلية لم يحققها أرسطو إذ توفي بعد أشهر قليلة من موت الإسكندر وتركه أثينة (أواخر ٣٢٣ أو أوائل ٣٢٢) كما مر بنا .

كان أول ما قام به تيوفراست أنه فصل عالم الحيوان عن عالم النبات ، وكان أرسطو قال بالتشابه والتسلسل المتصل بين النوعين . ثم أبطل الأخذ بالعلّة الغائية التي كان يستعين بها المعلم في بعض شروحه ، لأنه ، فضلاً عما لهذه العلّة من رنّة ما ورائية ، تنطوي على معطيات يجب على الملاحظة العينية ألا تأخذ بها . ولم يحتفظ تيوفراست من العلل الأربع ، المعروفة لدى أرسطو ، إلاّ بالعلة الفاعلة ، لقناعته بأنها وحدها ، تمتّ إلى العلوم الطبيعية بصلة أكيدة ، ويمكنها ، بمفردها ، أن توصل هذه العلوم إلى غايتها المرجوة يقيناً . على أن تيوفراست لم يستطع بدوره أن يتخلص مما ورثه عن

أرسطو ، من تحفظ تجاه التجربة المستحدثة ، مع ما ذكرنا من استعانة الستاجيري بها ، إذ كان يخال إليه أن التجربة ، يشوبها تكلّف واصطناع يشوّشان على الطبيعة سيرها المعتاد ، فلا يمكن ، والحال هذه ، الاعتماد عليها كلياً [١٩] .

دور ستراتون اللمبسكي (رئيس الليقيون من ٢٨٧ - ٢٧٠) :

يكاد ستراتون أن يكون الأوحد بين تلاميذ تيوفراست الذي اتّبع الخط المنهجي الذي نحن في صدده [٢٠] ، وإليه يرجع ، ولا شك ، البلوغ بالمنهجية العلمية " الارسطية ـ التيوفراستية " إلى آخر مراحلها بنجاح .

أُطلق عليه لقب " الفيزيائي " لطول باعه في هذه العلوم ، ولما أتى به من نظريات وتطبيقات جديدة في هذا المضمار : لقد كان المجلي الأول في العصور القديمة ، الذي قال بجلاء : إن الإحساس ينتقل إلى العضو المركزي ، وهو الدماغ ، ومنه يتجه الفكر إلى المكان المنفعل ، فيعين الطرف الذي تم فيه الانطباع الحسي . على أن ستراتون بالغ في اندفاعه في العلوم الطبيعية ،، فلم يعد يسلّم إلا بالقوانين الفيزيائية والميكانيكية لشرح كل الأمور . ومن المرجح أنّ الذي قاده إلى ذلك خلوُّ نظرية أرسطو من الوضوح ودقة الشرح والتعليل ، عن الصلة القائمة بين المادة والصورة (على مذهبه) . ومهما يكن من هذا الأمر ، فإن ستراتون أفرط في نزعته ، فتخطى بها العلوم إلى كل مجالات المعرفة ، فقاده ذلك إلى إنكار خلود النفس والقول بنوع من وحدة الوجود الطبيعية [٢١] ، فاتهمه معاصروه بالإلحاد ، مع انه بقي ، في هذا المضمار ، على خلاف عميق مع ديموقريط ، في شرح هذا الأخير الطبيعة شرحاً ميكانيكياً صرفاً .

وحقق ستراتون أكبر خدمة للمنهجية العلمية ، ذلك انه بدّد تحفظ أرسطو وتيوفراست تجاه استحداث التجارب الفيزيائية ، لا بل جعلها أسلوبه المفضل في تعقّب الظاهرات الطبيعية ، وطريقته المثلى لتوضيح وإثبات آرائه ، فكان السبّاق في علم الفيزياء التجريبي ، على نحو قريب جداً مما نسير عليه اليوم .

أجرى أبحاثاً في الخلاء ، واختبارات في قوة الضغط مستعملاً الهواء في الأنابيب ، وهذه وتلك مهّدت السبيل لما سيقوم به فيلون (Philon) من بيزنطية (أواخر القرن ٣ ق.م.) وكتيزيبيوس (Ctésibius) (٢٨٥ ـ ٢٢٢) حتى هيرون (Héron) الإسكندري (القرن الأول ب.م.) من تطبيقات واختراعات قيّمة ومثيرة ، كما سنفصّله في حينه . ويقول شوفاليه [٢٢] إن تأثير ستراتون في الميكانيك وعلم الفلك

والطب امتد حتى عهد ليبنيتز (Leibnitz) (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) وإلى مطلع القرن الثامن عشر .

ومن أكبر دواعي فخر المدرسة الارسطية إسهامها الفعّال في إذكاء الحضارة الإسكندرانية في عهد البطالسة ، بنقلها المنهجية العلمية من أثينة إلى الإسكندرية ، على يد ستراتون ، والحض على توفير مراكز العلم والتبحّر والرعاية ، بمساعي ديمتريوس الفاليري .

دور ديمتريوس في نقل وسائل العلم إلى الإسكندرية :

كان ديمتريوس الفاليري (٣٥٠ ـ ٢٨٣) فيلسوفاً ومشرعاً ورجل دولة ، وإلى جانب ذلك ، خطيباً مجدداً في الإنشاء الأتيكي الرائع (٢٣) . كانت نزعته في السياسة مكيدونية ، وفي الفلسفة والعلوم أرسطية ، عينّه كاساندر ، عاهل مكيدونية ، حاكماً على أثينة سنة ٣١٧ ، فأجرى فيها إصلاحات تشريعية لصالح الطبقة الوسطى ، حسب تعاليم الستاجيري . ونعمت أثينة ، في زمنه ، بفترة سلم فتحسنت أحوالها ونما ازدهارها .وأحبه الشعب حباً جماً ، فأعاد انتخابه تسع مرات متتالية ، وأقام له ٣٦٠ تمثالاً تخليداً لمبرّاته . والذي يهم موضوعنا أنه هو الذي منح الليقيون شخصية معنوية ، إبّان حكمه (٣١٧ - ٣٠٧) ، وساعد معلمه تيوفراست على اقتناء قطعة من الأرض لإنشاء مركز ثابت للمعهد ، ولرصد مداخيل ثابتة له . وحقق تيوفراست ما كان يصبو إليه من مدّ الليقيون بملحقات تربو عما كانت عليه أكاديمية أفلاطون ، من أروقة وردهة توضع فيها خارطات أرسطو (٢٤) وقاعات لنسخ مؤلّفات المعلم الأول وشرحها ، ومكتبة ضخمة لإكمال البرنامج الذي وضعه الستاجيري للتبحّر وللسير قدُماً في الأبحاث وجمع المستندات التاريخية والعلمية .

وعندما احتل ديمتريوس (ابن أنتيغون) ـ الملقب بمستلب المدن ـ أثينة سنة ٣٠٧ ، ترك ديمتريوس المدينة ، ثم هجر بلاد اليونان ملبياً دعوة صديقه القديم بطليموس الأول (سوتير) ، وأصبح من أعزّ المقرّبين إليه .

وعندما أعلن بطليموس نفسه ملكاً على مصر (٣٠٥) أسوة ببقية خلفاء الإسكندر ، كان ديمتريوس خير مساعد له في الإدارة والتشريع ، وخير مؤازر ومشير في كل ما يطمح إليه ، فجعل من الإسكندرية أثينة جديدة ، ومركزاً عالمياً للفلسفة والعلوم والفنون . وأشار ديمتريوس على بطليموس بإنشاء مكتبة تُجمع فيها كنوز

معارف العصور والأمم السالفة ، ومعهد أبحاث (موسيون) على غرار الليقيون ، فاستحسن الملك ذلك وأمر بتنفيذه ، مستفيداً من خبرة ديمتريوس ومما حققه ، مع تيوفراست ، في المدرسة الارسطية في أثينة ،كما مرّ بنا .

لسنا نريد الآن أن نتوسّع في وصف المؤسستين العظيمتين ، مكتبة الإسكندرية وفروعها ، ومعهد الدراسات العالية (المتحف) وما امتازت به عن سابقاتها ، بنظامها ونشاطها ورحالاتها وتأثيرها الحضاري ، فسوف نتناول ذلك عند كلامنا عن حضارة الإسكندرية ، إنما نكتفي الآن بالقول : إنّ طموح بطليموس الأول ومآربه السياسية وحبه للشهرة والمجد ورغبته في أن يحذو حذو الإسكندر ، كل ذلك جعله يغدق المال دون حساب في تحقيق أمنيته ، وإن ما حققه في هذا المضمار يفوق بأشواط كل ما عُرف قبله في العصور القديمة .

وكانت أُمنية بطليموس أن يجمع في الإسكندرية ما أمكن من فلاسفة وعلماء وشعراء : دعا تيوفراست لممارسة نشاطه العلمي في الإسكندرية فاعتذر ، لانشغاله بإدارة الليقيون ، ولربما كان ذلك سبباً لانحدار ستراتون ، بعد ديمتريوس من فالير ، إلى الإسكندرية ومكوثه فيها من سنة ٣٠٠ إلى ٢٨٨ ، لتثقيف الأمير وليّ العهد (وهو الذي سيعرف باسم بطليموس الثاني فيلادلف ، ٢٨٥ ـ ٢٤٦) .

إن انتقال المنهجية الأرسطية العلمية إلى الإسكندرية ، مع ستراتون ، لحدث بالغ الأهمية في تاريخ الحضارة البشرية . وإذا لاحظنا من جهة ، أن ستراتون كان قد بلغ بهذه المنهجية أتمّها وأكملها ، وأن أوكليد وهيروفيل ، والفلكيّيْن أريستيل (Aristylle) وتيموخارس (Timocharis) كانوا من جهة أخرى أول نزلاء معهد الدراسات العالية في المدينة نفسها ، وتذكّرنا أن اوكليد (حول ٣٣٠ ــ ٢٦٠) علّم الرياضيات في المعهد ، على زمن بطليموس الأول (سوتر) ، وأسّس فيه فرع الرياضيات [٢٥] ، ممهداً بذلك الطريق لأرخميدس (٢٨٧ ـ ٢١٢) وأبولونيوس (Apollonios) (٢٦٠ ـ ١٨٠) ، وأن هيروفيل كان صديقاً لستراتون ، وكان تأثير أسلوب هذا التجريبي عليه حاسماً ، وأنّه هو بدوره مؤسس مدرسة الطب [٢٦] في الإسكندرية ، أكبرنا ولا شك حظ علماء الإسكندرية ، وما أسدى إليهم ، عند تأسيس معاهدهم ، وهي الفترة الحاسمة في اتجاهاتها العتيدة ، وأنهم جنوا ثمار المنهجية العلمية الأرسطية ، في أسلوب سديد وطريقة رشيدة ، فضلاً عن التسهيلات المغرية التي وفّرها البطالسة للباحثين الذين انصرفوا ، دونما اهتمام بالأمور المعاشية ، إلى التنقيب العلمي .

واضطر ستراتون أن يغادر الإسكندرية بعد وفاة تيوفراست (٢٨٨) ، إذ عُيّن لإدارة الليقيون ، وفي هذه الحقبة الأخيرة من حياته التي دامت قرابة عشرين سنة ، حاول أن يوجّه طلاب المعهد الارسطي في أثينة إلى دراسة القوانين الفيزيائية والميكانيكية . والظاهر أنه لم يفلح ، وكأني بمدرسة أرسطو أبَت أن تسير على المنهجية العلمية بعد أن سلّمتها ، وديعة ثمينة ، إلى معاهد الإسكندرية التي سوف تجيد استعمالها فتجعلها من مقومات ذلك الإشعاع العلمي الذي نقف حتى اليوم أمامه مشدوهين .

و لم يتعزّ ستراتون ، قبل موته ، بنبوغ أحد تلامذته :" أريستاك الساموسي الفلكي (٣١٠ ـ ٢٣٠) الذي يكاد أن يكون الفرد الفريد القائل بوضوح إن الأرض تدور حول محورها ، كما تدور حول الشمس الثابتة . و لم يستطيع اريستاك إثبات نظريته بالبراهين القاطعة ، فعارضه فلاسفة ذلك العصر وعلماؤه ، واُتهم بالإلحاد . ويعزو برونه [٢٧] الأمر إلى أن فلكيي ذلك العصر ، الذين كانوا يسلمون بفرضية الحركة الدائرية المتّسقة للكواكب ، كان من الصعب عليهم أن يتأكدوا من الأمر بالأرقام ، ويزيد نيغباور [٢٨] (Neugbauer) " أن فرضية الحركات الدائرية أكثر توافقاً مع الظاهرات المرئية عند المفكرين العقلانيين في العصر القديم " . وهكذا بقيت نظرية دوران الشمس حول الأرض رائجة حتى عصر كوبرنيك .

دام ، إذاً ، تألّق العلوم بين رحالات الليقيون قرابة ثلاثة أرباع القرن ، أي منذ تأسيسها (سنة ٣٣٥) حتى موت ستراتون اللمبساكي (سنة ٢٦٨) .

وعُهد برئاسة المدرسة الأرسطية ، بعد ستراتون ، إلى ليكون الطروادي (٢٦٨ ـ ٢٢٤) ، وبقي قائماً على إدارة مقدراتها قرابة ٤٤ سنة .

كان ليكون خطيباً مفوّهاً ، مدحه معاصروه بتأنق عبارته أكثر مما قالوا في غزارة معاني خطاباته [٢٩] . وكان غنياً ، عاش على بذخ من العيش أين منه قناعة الفيلسوف ؟ ونال حظوة أنتيغون ، ملك مكيدونية ، وكذلك لدى عاهل دولة برغامة ، فانجرف منصرفاً إلى الشؤون السياسية ونسي أن عليه – بحكم مسؤولية وظيفته – الانقطاع إلى تحصيل العلم والاهتمام بإنماء أمور المعهد ، فكانت الكارثة . وهبط في زمنه عدد طلاب المعهد إلى أدنى مستوى عرفه منذ تأسيسه (بعد أن بلغ الألفين على عهد يوفراست) وأضحت الليقيون مدرسة منطق وخطابة أكثر منها مركز تعليم وأبحاث فلسفية وعلمية . وكأن رحالات الرعيل الثاني ، من تلاميذ أرسطو حفلوا من ثقل التراث الأرسطي وعبء الالتزامات العلمية المترتّبة عليهم ، فجنحوا إلى

الأسـهل وانزلقـوا إلى المادينة . زد علـى ذلـك مزاحمـة المـدارس الجديـدة النشـأة ، مثـل الابيقورية ، وبنوع أخص الرواقية ، فتقوقعت الليقيون ونامت في سبات عميـق إلى أن عاد إليها شيء من ازدهارها القديم ، بعد نشر اندرونيكوس الرودسي مجموعة مؤلفـات أرسطو " الخاصة " حول سنة ٦٠ ق.م. وهي التي بين أيدينا حتى اليوم .

وسوف تطلّ علينا ، في هذا العهد الجديد ، جمهرة مـن مفسـري أرسـطو وشـرّاحه ، يعيدون إلى الستاجيري بعض مكانته ، وسوف يكون لهم الأثر الفعّال في إعطاء الفلسفة المشائية لوناً جديداً ، قبل انتقالها إلى السريان في الرهـا ، منـذ القـرن الرابـع المسيحي ، وقبل أن تنقل على يدهم ، بعلاّتها ، إلى الفرس ثم إلى العرب .

الحواشي :

١ - Pirre Louis , Reuve de Philologie , 1955 , pp . 39 ss .

كانت لفظة " تاريخ " عند يونانيي تلك العصور تعني مجموعة الأبحـاث والتحقيقـات العينية في موضوع معين.

٢ - Pierre Louis Aristote : Traité sur les parties des amimaux (Coll , Budé) p .156 .

٣ - ج . سرتون ، تاريخ العلوم ، الجزء ٣ ، ص ٢٦٦ (طبعة المعارف بمصر) .

- Pierre Rousseau , Hist . de la Science ,Fayard , p . 71 .

- W . Durant , Vies et doctrines des Philosophes , Payot , pp. 71 ss .

٤ - S . F . Mason , Histoire des sciences , Colin , p . 30 .

٥ - Pierre Louis , Aristote : H . des animaux I , (Coll . Budé) , Introd . p . XI

٦ - جاء في تاريخ الحيوان ، الكتاب ٥ ، المقطع ١٨ ، إشـارة واضحـة إلى المخطـط التوضيحي بأحرف الأبجدية : آ البيضة ؛ ب + ج العينان . د الحُبّار (النص المذكور في ص ٣٦ من المجلد ٢ في طبعة بوده) .

٧ - Pierre Louis , Aristote : H , des animaux I , n . 5 . (Coll . Budé) , Introd . p . IX

٨ - Diogène Laërce , Vie doctrines ... I (Garnier - Flammarion) p . 237

٩ - تاريخ الحيوان ، الجزء ٥ ، المقطع ٣٠ (ص ٥٥ من المجلد ٢ في طبعة بوده) .

١٠ - تاريخ الحيوان ، الجزء ٤ ، المقطع ٨ (ص ١٤١ من طبعة بوده) .

١١ - تاريخ الحيوان ، الجزء ٢ ، المقطع ١١ (ص٥٢ من طبعة بوده) .

١٢ - جورج سرتون ، تاريخ العلم ، الجزء ٣ ، ص ٢٥٣ (طبعة المعارف بمصر) .

١٣ - يجزم بذلك بيار لويس ونويانس اللذان يُعدّان أفضل مَن دقّق في مؤلّفات أرسطو البيولوجية . راجع نشوء الحيوان ، المقدمة ، ص ١٠ ، والحواشي (طبعة بوده) .

١٤ - نشوء الحيوان ، الجزء ٣ ، المقطع ١٠ (ص ١٢٧ من طبعة بوده) .

١٥ - . Jean Aubonnet , Aristote :Politique , (coll . Budé) , Introd . p . L. V. I

١٦ - Diogène L , op . cit ., p . 244.

١٧ - L. Robin , La Pensée grecque , (Coll . Évolution de l' Humanité) , pp . 13 - 15 .

١٨ - إذا استثنينا أوديم الرودسي ، تلميذ أرسطو ، والذي بقي الأكثر أمانة لتعليم الستاجيري من كل مدرسته .ولربما كان أوديم أكبر سناً من تيوفراست ، إذ الأرجح أنه توفي قبله . وقد ورد ذكره في المتن بين أصحاب مؤلفي تواريخ العلوم . حُسِبَ ردحاً من الزمن مؤلف كتاب " اخلاق أوديم " ، غير أن التقميش العلمي الأخير أرجع المؤلّف إلى أرسطو ، عادّاً الكتاب من وضع المعلم الاول في شبابه .

E , Zeller - Mondolfo , La filosofia dei greci , parte II , vol ,,. VI , p . 444

١٩ - P.Brunet , H . de la Science , (Encycl . Pléiade) . p. 230

٢٠ - E . Zeller - Mondolfo . La Filosofia dei Greci , Parte II , vol ,. VI , p . 493

٢١ - idem , p . 498 .

٢٢ - Jaeques Chevalier , H . de la Pensée , Flammarion , I , p . 412 et III , pp . 383 et 732 .

٢٣ - A . et M. Croiset , H. de la littérature grecque , Tome V , éd Baccard , p . 85 .

٢٤ - Diogène L . op . cit ., p . 246

٢٥ - يشك سرتون في الأمر : تاريخ العلم ، الجزء ٤ ، ص ٨٣ ، بينما يؤكد ذلك كل من دوماس وبرونه . (Dumas , Brunet) .

٢٦ - راجع ايضاً : Hist , de la science (Encycl . Pléiade) pp. 15 et 245

- Jean Laloup , Dict de la Litt . Grecque et Latine , S . V .

- Al . Rivaud , Les grands courants de la Pensée Antique , Colin P . 190 .

٢٧ - Hist de la Science , (Pléiade) p . 240 .

٢٨ -Hist . Générale des sciences , Taton , I , p . 314 (P.U.F) .

٢٩ - Zeller - Mondolfo : op . cit ., p . 520 .

الفصل الثاني :

هل كانت مؤلفات أرسطو الخاصة مجهولة قبل أن ينشرها أندرونيكوس الرودسي؟

يقول روبان : " بلغ نتاج أرسطو ، استناداً إلى تقليد جيد ، الألف ، ما بين كتاب وأجزاء مؤلفات "(١) . وتقوم اليوم طبعة أكاديمية برلين ـ وهي من أهم الطبعات المعتمدة لمجموعة مؤلفات أرسطو التي بين أيدينا ـ على خمسة أجزاء فقط من الحجم الكبير ..وإذا كان القسم الأكبر من مؤلفات الستاجيري قد ضاع ، فقد بذل العلماء جهدهم ، منذ أكثر من قرن ، لجمع الشذرات الواردة لدى الكتّاب والشرّاح المتعاقبين، وضم لوائح عناوين كتبه بعضها إلى بعض ؛ عساهم أن يستكملوا آفاق أرسطو العلمية.

وصلت إلينا ثلاث قوائم لمؤلّفات مؤسس الليقيون :

الأولى ، عن ديوجين اللاريسي ، وتحوي ١٤٦ عنواناً ، والأرجح أنها مأخوذة عن أريستون الكيوسي ، الذي رأس الليقيون بين أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الثاني ق.م. ويقول ديوجين ، في القسم الأخير من سيرة الستاجيري : " ألّف أرسطو في كل المواضيع ... كما هو ظاهر من الكتب التي ذكرتها له ، وتبلغ أربعمائة ، ولا يُشك في نسبتها إليه ، كما أن هناك غيرها ذُكرت له و لم تحفظ " (٢) . وعليه يمكن اعتبار هذه اللائحة أقدم ما وصل إلينا .

الثانية ترجع إلى إيزكيوس الميلي (القرن السادس ب.م.) وتُعرف أيضاً بلائحة ميناج (Ménage) ، على اسم ناشرها وفيها بلغت عناوين المؤلفات ١٣٩ ، وضَمّ إليها ملحقاً حوى ٥٧ غيرها . فمن المجموع ١٩٦ ، نجد ١٣٢ عنواناً ورد لدى ديوجين . وإذا كان القسم الأول من هذه اللائحة يرجع إلى أريستون (اللائحة الأولى) ، فالملحق يمتّ بصلة أكيدة إلى نشر (طبعة) أندرونيكوس الرودسي.

الثالثة المنسوبة إلى بطليموس الغريب ، وهي الأكثر تماشياً مع الكتب التي بين أيدينا ، إذ قد أخذت عن نشر الرودسي .

أما بطليموس هذا الغريب (٣) ، فهو تلميذ بمليخوس الأفلوطيني (٢٥٠ ـ ٣٢٥ ب.م.) الذي وضع سيرة لأرسطو ، فيها لائحة مؤلفاته التي نقلت إلى السريانية ومنها إلى العربية ، وأوردها القفطي (+ ١٢٤٨) وابن أبي أصيبعة (٤) / (ت ٢٦٩) .

ومن حسن الحظ أن أكثر المؤلفات الضائعة تمثّل مؤلّفات شباب أرسطو ، أو مجموعات المستندات والمراجع التي بنى عليها أرسطو تعليمه ، ولذا يمكننا الترجيح أن آثار الستاجيري الأكثر أهمية قد وصلت إلينا (٥) .

وعادة ما تقسم كتب أرسطو إلى فئتين (٦) :

الأولى ، وتُعرف بالمؤلفات العامة ، وهي تضم ما نشره أرسطو بنفسه ، منذ بلوغه الخامسة والعشرين ، إبّان مكوثه في الأكاديمية ، وبعض ما نشره أثناء تنقله على سواحل شمالي بحر إيجه . وقد سبق أن قلنا : إنه لم يبق من أغلب هذا النتاج سوى شذرات .

أما الفئة الثانية ، وهي المؤلفات الخاصة ، فتضم – في مجملها – ما نشره أندرونيكوس الرودسي ، حوالي سنة ٦٠ ق.م. .

وخلال أكثر من قرنين ، وهو الزمن الممتد بين موت تيوفراست / (+ ٢٨٧) خليفة أرسطو على الليقيون ، ونشر الرودسي ، عانت مؤلفات أرسطو الخاصة من الحدثان ما يشبه الأساطير .

وتختلف الروايات (٧) التي تسرد لنا تفاصيل الوقائع ، إلا أنها تتوافق في خطوطها الأساسية :

عَهِد أرسطو إلى تيوفراست بمؤلّفاته ومكتبته ، وتركها هذا بدوره إلى نيلوس ، ويقال أن ورثة هذا الأخير ، عن جهلٍ قيمة ما عندهم ، أو خوفاً على ما بحوزتهم ، أخفوا المؤلّفات في قبو فأتلفت منها الرطوبة ما أتلفت . وبعد زمن ، بيعت إلى أبيلليكون ثم صادرها سيلاّ القائد الروماني ، سنة ٨٤ ق.م. بعد دخوله بلاد اليونان ، – أثناء حربه ضد مثريدات – وحُملت إلى رومة ، فبيعت مجدداً إلى تيرانون ، واقتناها أخيراً أندرونيكوس الرودسي المشائي فرتبها ونشرها .

وكما تعددت الأيدي التي وُضعَت عليها ، كذلك لم تبقَ المجموعة ، على ما قيل ، في مكان واحد : فقد نُقلت من اثينة إلى سكبسيس (في ميزيا ، آسيا الصغرى) وأرجعت إلى أثينة ، إلى أن استقرت في رومة .وهناك رواية تدّعي أن أطال ، عاهل برغامة ، اشترى قسماً منها ، وتذهب غيرها إلى أن بطليموس فيلادلف ، ملك مصر ، كان قد

سبقه إلى ذلك ؛ والاحتمالان [٨] واردان ، إذ أن العاهلين اشتهرا بشغفهما المفرط باقتناء المخطوطات النادرة وبذل الغالي والنفيس دون ذلك .

ويتسرّع الكتبة ، استناداً إلى هذه الروايات التي لا تخلو من عناصر تاريخية صحيحة ، فيقول بعضهم " إن مؤلفات أرسطو (الخاصة - السمعية) بقيت قرنين غير معروفة ، قبل أن ينشرها اندرونيكوس الرودسي ، ويغالي غيرهم حازماً " بأن أرسطو الذي نعرفه اليوم غير أرسطو الذي عرفه الأقدمون " .

إن مثل هذه الأقوال تعارض إثباتات وردت عند كبار الاختصاصيين بنصوص أرسطو ، وقد استعنا بها ، وأضفنا إليها ما رأيناه يدعم وجهة نظرنا في هذا الموضوع :

أولاً - يستحيل التسليم أن الليقيون وفروعها ، في بلاد اليونان ، كانت ، وهي تُدرّس مذهب المعلم ، خالية من نصوصه ، وماذا القول ، مثلاً ، عن فرع الليقيون ، الذي أنشأه أوديم [٩] في رودس ، وهو ، على ما عهدناه ، من إتقانه تعاليم معلمه ، وتمسكه أكثر من كل تلاميذ أرسطو بمذهب الستاجيري ؟ وماذا أيضاً عما يؤكّد عنه ، أنه حقق أول ترتيب أُخضعت له أجزاء مؤلفات أرسطو المبعثرة ؟

ثانياً - لا يحق لنا إهمال التقليد المتواتر القائل إن مكتبة الإسكندرية حوت مؤلفات أرسطو . خاصة ، إذا تذكرنا أن ديمتريوس الفاليري (٢٨٣ +) ، تلميذ تيوفراست ، كان قد حكم أثينة فترة عشر سنوات ، دأب خلالها على حماية الليقيون ، ثم انتقل إلى الإسكندرية ، وكان مقرباً جداً إلى بطليموس سوتر ، وأنّه بمشورته قامت ، على غرار ليقيون اثينة، موزيون الإسكندرية ، وفيها أنشأ نواة تلك المكتبة التي صارت أعظم محطّ لإنتاج الفكر البشري في العصر القديم . ونزيد على ذلك أن ستراتون اللمبساكي (+ ٢٦٨)، وهو تلميذ آخر لتيوفراست ، قد أقام مدة طويلة في مصر ، ناقلاً إليها المنهجية الأرسطية في العلوم كما مرّ بنا [١٠] .

ثالثاً - يناقض هذا القول كل ما نعرفه عن أسلوب التعليم المتّبع في الليقيون ، وهو يمتاز بوضع النصوص في متناول طلاب التعليم الخاص [١١] .يضاف إلى ذلك أن تيوفراست ، الذي بقي ، بعد أرسطو ، في رئاسة الليقيون طوال ٣٥ سنة ، علّم وشرح " الماورائيّات " [١٢] و " السياسة " لأرسطو ، وألّف عدة كتب في السياسيات وغيرها ، طابق عناوين بعضها عناوين مؤلّفات أرسطو ، ونشر كتاب " السياسة " للستاجيري ؛ والمرجّح أنه اشترك ، مع نيكوماخ بن أرسطو ، في نشر كتاب " الأخلاق " [١٣] باسم هذا الأخير .

ومعلوم أن الليقيون بلغت الأوج على زمن تيوفراست ، ونيّف عدد طلابها على الألفين ؛ كل ذلك ضَمِنَ ولا شك انتشاراً واسعاً ، أقلّه بين طلاب التعليم الخاص ، لمؤلّفات أرسطو التي نحن بصددها .

رابعاً ـ يقول أصحاب الاختصاص إن هناك نصوصاً وآراء وردت عند مؤلّفين ابيقوريين ورواقيين ، لا يمكن فهمها دون افتراض معرفة المؤلّفات الارسطية الخاصة (١٤) عندهم .

خامساً ـ انتشرت لائحة أرستون ، التي مرّ ذكرها ، وفيها ترتيب مؤلّفات أرسطو على نحوٍ مغاير لما تبنّاه الرودسي فيما بعد ، وهي تشير إلى أن نصوص أرسطو كانت معروفة ومتداولةً بين العلماء آنذاك ، فأريستوفان البيزنطي (وهو من القرن الثاني ق.م.) وضع مختصراً لكتاب " تاريخ الحيوان " للستاجيري والمؤلّف الارسطي الكبير المعروف بالدساتير ، وقد بلغت ١٥٨ وكانت شائعة ومتداولة في العصر الهلنستي ، يؤيد هذا ذلك العدد الوافر من الشذرات التي وصلت إلينا من ذلك العصر (١٥) . وفي كتاب " مأدبة السفسطائيين " ، من تأليف أتينه (Athénée) النقراطيسي (وهو من القرن الثالث ب.م.) ، أحصى فيه دورينغ (١٦) أكثر من مائة استشهاد أخذت عن كتب أرسطو المتعلقة بعلم الحيوان ، وقد أكد ، بعد درس هذه النصوص وتقميشها ، أنها مغايرة بعض الشيء لما نشره الرودسي ، الأمر الذي يدل بوضوح على وجود نصوص أرسطية غير التي نشرها الرودسي ، بقيت متداولة قبله وبعده . هذا مع استرعاء الانتباه إلى أنه ليس مستغرباً أن توجد نصوص مختلفة للمؤلّف الواحد ، حتى في الكتاب الواحد ، لأن الأقدمين ، كما يلاحظ لويس (١٧) ، لم يكونوا يعرفون ثبوت النص ، كما ألفناه اليوم بفضل المطابع . ولنا ، علاوة على ذلك ، بعض تفاصيل إضافية عن الأسلوب الذي اتبعه أرسطو في التأليف ، سترد في سياق العرض .

سادساً ـ إن القائلين بالرأي المعارض يستندون ، بنوع خاص ، إلى الفقرة ٢٦ الواردة في حياة سيلاّ عند فلوتارخ (١٨) .ولقد اتضح لنا أن فلوتارخ ، في هذا النص ، لم يقصد قط التعميم ، بل ضمّن كلامه أكثر من تحفظ ، وحصره في فئات ميّز بصورة جلية بعضها عن بعض . يقول فلوتارخ : " واختص سيلاّ مكتبة أبيلليكون الكيوسي لذاته ، وفيها أكثر كتب أرسطو وتيوفراست التي لم تكن معروفة تماماً عند الجمهور " ؛ ويتابع بعد ذلك : " من المؤكد أن المشائين القدماء ، وهم ذووأفكار نيّرة وأصحاب

علم ، لم يكن بين أيديهم الكثير من مؤلّفات أرسطو وتيوفراست ، والنصوص التي عندهم لم تكن منقحة " . (كذا ! وهو من باب دعاية الناشرين كما في عصرنا ...) .

فمن هذين النصّين يمكننا استنتاج ما يلي :

أ) يميّز فلوتارخ بين الجمهور (المثقف) والمشائين .

ب) إن هذا الجمهور (المثقف) كان على معرفة ناقصة بمؤلفات أرسطو وتيوفراست .

ج) يؤكد فلوتارخ وجود كتب لأرسطو وتيوفراست عند المشائين القدماء ، على أنها لم تكن كثيرة ، والموجودة لم تكن مضبوطة ...

والآن ، بعد كل ما أسهبنا فيه ، نعتقد أنه يمكننا تأكيد ما يلي :

أولاً ـ لا يصحّ القول بتاتاً : إن أرسطو الذي نعرفه اليوم ، خلال المؤلّفات الخاصة ، كان مجهولاً طوال قرنين وأكثر .

ثانياً ـ إن ما نشره أندرونيكوس قد أضاف نصوصاً وكتباً إلى ما كان يُعرف ، وأعان أكثر فأكثر على ضبط النصوص .

ثالثاً ـ وإذا تراءى لنا ، مداعبةً ، أن يُحتفظ بالعبارة المعارضة ، وجب علينا أن نعكس مضمون معناها . فإذا قلنا : " إن أرسطو الذي نعرفه اليوم غير أرسطو الذي عرفه الأقدمون " ، فهمنا بذلك : إننا اليوم نجهل مجمل مؤلّفات عهد شباب الستاجيري التي نشرها بنفسه ، والتي كانت شائعة في العصر القديم ، ولم يصلنا منها سوى شذرات (المؤلفات العامة) . بينما نجد بين أيدينا اليوم قسماً من مؤلّفاته الخاصة ، كان الرودسي ، ولا شك ، أهم ناشريها ومروّجيها . فبهذا المعنى فقط تستقيم ـ بنظرنا ـ فحوى العبارة وتصحّ تاريخياً .

لقد لاحظ القارئ ولا شك أن فلوتارخ (٤٦ ـ ١٢٠ ب.م.) وصف المشائين القدماء " بذوي الأفكار النيّرة وأصحاب علم " ، على أنه من الخطل اعتبار الزمن الممتد بين تسلّم تيوفراست مقدرات الليقيون (٣٢٣ ق.م.) ونشر الرودسي مؤلّفات أرسطو الخاصة (٦٠ ق.م.) ، وهو زمن أربى على القرنين ونصف القرن ، حقبة متجانسة ومن نسيج واحد ، سارت فيها أمور العلم والتعليم في الليقيون على وتيرة واحدة . لم يكن الأمر هكذا ، بل كانت هناك فوارق ، وبعضها كبير ، بين أرسطو ورعيل طلابه الأولين ، زادت مع الرعيل الثاني (تلاميذ تيوفراست) ، حتى غدت الأرسطية مع ليكون ، خليفة أرسطو الثالث (٢٦٨ ـ ٢٢٤ ق.م.) ، غريبة عن روح المؤسس

وأهدافه ، ولا عجب ، إذ انصرف هذا الأخير، كما قلنا في الفصل السابق ، إلى الكلام المنمق ، و لم يحاول أن يساوق روح الستاجيري ، أو على الأقل أن يوفّق بين مذهب المعلم والنزعة العلمية التي طغت في ذلك العصر مع المدرستين الجديدتين ، الأبيقورية والرواقية ...وأهملت الليقيون النظر في الأسس الفلسفية التي أرسى عليها أرسطو الفصل بين أساليب التأمل ومنهجية العلوم ، فنتج من ذلك إهمال مؤلّفات الستاجيري النظرية أكثر فأكثر ، بينما بقيت مؤلّفاته المنطقية والخطابية والأخلاقية والطبيعية متداولة في المعاهد اليونانية ، رغم تعدد مذاهبها ، وعلى مجال أضيق ، عند الجمهور المثقف .

وبتتابع السنين ، انجرفت الليقيون ، شأنها في ذلك شأن الأكاديمية وبقية المدارس الفلسفية ، في التيار الانتقائي ، بل التلفيقي ، وأخذت تغيب ، رويداً رويداً ، فوارق المعالم المميزة لكل مدرسة ، مع طفو الروح الريبية في مقدرة العقل ، وطفرة قوية من اللاعقلانية . وهذا ما سنتفرغ لوصفه ، مع شيء من الإسهاب ، عند تناولنا مقوّمات الفكر في القرون التالية .

وأخيراً ذكرنا فيما سبق أنه وجدت ، كما كان الأمر مألوفاً ، نصوص متباينة فيما بينها ، لمؤلفات أرسطو . ونعتقد أن هذا الأمر ينطبق على الستاجيري أكثر من غيره :

أولاً ـ كانت أكثر مؤلّفاته ، لا سيما المهمة منها ، مثل الماورائيات والسياسة ، ثمرة تفكير طويل رافق حياته كلها ، فكانت عرضة لتغييرات متتالية . فكثيراً ما كان يعمد إلى تحوير نص كان قد فرغ منه ، إذا تكشفت جوانب جديدة له .

زد على ذلك أنه كان يُعلّم المواضيع التي كان يؤلّف فيها ، وأن تعليمه ،على ما نعلم ، كان أشبه بحوار ، منه بسرد أمثولة مُقَولبة ، فكان عليه ، بعد كل درس ، أن يعيد النظر فيما كتب ، في ضوء ما تجلى له أثناء النقاش الموجّه ، من نقص أو توضيح . ويذهب بعضهم (١٩) إلى أن أرسطو كان يسبق ويوزع على طلاب التعليم الخاص ملخص ما سيلقيه ، ليتمكنوا من إغنائه بما يأخذونه عنه ، وأنه كان ينصرف ، بعد ذلك ، إلى ضبط نص يحفظ في مكتبة الليقيون .

ثانياً ـ كانت بعض مؤلّفاته الأخرى ، بطبيعتها ، قابلة للزيادة والنقصان ، مثل كتبه في الطبيعيات وعلم الحيوان ، فقد يضطر إلى إعادة النظر فيما كتب ، عند حصوله على نماذج أو عينات جديدة تمد بسعة أفقه حتى يأتي بنتائج مغايرة بعض الشيء إلى ما سبق أن تبناه .

ثالثاً ـ وبالمقابل ، إن كل ما نشره أرسطو بنفسه (التعليم العام) ، كان غالباً جيد الحبك ، متين السبك ، مع جودة في الإنشاء ، كما يليق بمن علّم الخطابة . وحسبنا ، في هذا الصدد ، شهادة شيشرون الذوّاقة بعذوبة الإنشاء ، فقد شبّه مؤلّفاته " بنهر من تِبْر " . أما ما نشره أندرونيكوس الرودسي (التعليم الخاص) فكان ــ على العموم ــ أشبه بروؤس أقلام أو ملخصات للتدريس ، توسّع المعلم قليلاً أو كثيراً في بعض أقسامها . وقد يحدث له ، كما هو محتمل ومألوف ، أن يبدّل مواضع الدروس أو يغيّر أو يضيف على النصوص ، فيقع تعارض في الأفكار ، أو اختلال في التسلسل ، أو ارتباك في الأقسام ، ويبقى كل هذا على ما هو عليه ، بانتظار رتق السدى وإعادة اللحمة قبل النشر . ولم تتح الأيام لأرسطو أن يحقق ذلك ...

رابعاً ـــ ولاحظ أصحاب الاختصاص ، بعد سنين من التبحّر وتمحيص النصوص ودرس مواضع أقسام المؤلفات ، أن تتابع الفصول في الكتاب الواحد قد لا يرجع إلى ترتيب أرسطو ، بل هو ، على الأرجح ، من تنسيق الرودسي الذي جمع ، أحياناً ، دونما تمعّن كاف في محتويات النصوص ، أقساماً رآها ترجع إلى الموضوع الواحد ، ودليلهم القاطع على ذلك ، ما حوته بعض المتون من إحالات فيما بينها ، أو ما وعد أرسطو طرقه من موضوع صنّفه الرودسي مقدّماً...

إن تتابع الفصول ، في بعض كتب أرسطو التي بين أيدينا اليوم ، لا يشير كذلك بالضرورة إلى تسلسل الأفكار في الموضوع منطقياً ، فبعض الذين قاموا بطبعات عصرية علميّة لكتاب السياسة ، مثلاً ، جعلوا الجزأين السابع والثامن مباشرة بعد الثالث ، ورأوا الموضع المنطقي للجزء السادس أن يأتي مباشرة بعد الرابع (٢٠) .

خامساً ــ توغل النقاد في نسيج النصوص الأرسطية ، فرأوا في بعض أقسام الاورغنون ، وتاريخ الحيوان ، وكتاب النفس ، إلخ ... طبقات مختلفة يرجع بعضها إلى حقبة أسوس ـ ميتيلين ، أُكملت في الليقيون . ويعتقد دورينغ أن كتاب أعضاء الحيوان يحوي ثلاث طبقات ، تمشياً مع تجدد المعلومات التي كان يحصل أرسطو عليها تباعاً . أما أقسام ما ندعوه اليوم بالماورائيات ، وكتاب السياسة ، فقد بقي أرسطو ينحت ويعيد النظر فيها إلى آخر حياته ، دون أن يتم ترتيب أقسام الأولى أو ينتهي من إكمال الثاني .

الحواشي :

١ - L . ROBIN , La Pensée Grecque , coll . " Evol . de l' humanité " , Albin Michel , p . 292

٢ - -DIOGENE LAERCE . Vie , I , Garnier - Flammarion , p . 240 .

٣ - J. AUBONNET , Aristote , Politique , I , coll , " Budé " , p . 98 , notes .

NALLINO , Raccolta ... vol . V , Roma , 1944 , p . 136 .

٤ - راجع عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ١٠٣ وما بعدها ، مع الانتباه لما جاء في هذه الطبعة ، ص ٧٦ ،حاشية ٣ ، من خلط بين بطليموس صاحب المجسطي المعروف (القرن ٢ ب.م.) وبطليموس الملقّب بالغريب ، المذكور هنا ، تلميذ يمليخوس (القرن ٤ ب.م.) .

٥ - المرجع نفسه . كذلك ، L . ROBIN , op . cit ., p . 293

٦ - نحتفظ بهذا التقسيم الثنائي التقليدي لشيوعه ، وإن كان النقد الحديث قد عافه متجهاً أكثر فأكثر إلى تقسيم ثلاثي جديد توصل إليه الباحثون بعد مناقشات مستفيضة وهو يميّز ١ً - مؤلفات أرسطو ذات المسحة الأدبية ، منها المحاورات ؛ ٢ً - المؤلفات العلمية ، مثل كتاب أعضاء الحيوان ، وقد نشر الستاجيري على الأرجح بعضها ؛ ٣ً - المجموعة الأرسطية التقليدية وتضم - إلى جانب المؤلّفات التي لم تنتشر - مجموعات من التحقيقات والاستشهادات التي أسهم فيها طلاب المعلم الأول طبق توجيهاته وتحت مراقبته . راجع :

P . LOUIS , Aristote : Les parties des animaux , coll . " Budé " , intro ., p . 20 .

٧ - فلوتارخ ، السِيَر : سيلاّ ، طبعة بوده ، المقطع ٢٦ ؛ سترابون ، طبعة بوده ، الجزء ١٣ ، الفصل ١ ،المقطع ٥٤ .والمرجّح أن فلوتارخ أخذ القول عن سترابون المؤرخ .

٨ - أسس بطليموس الثاني ، الملقب فيلادلف (٢٨٥ - ٢٤٦) في الإسكندرية ، اعظم مكتبة عرفها العالم القديم ،وأطال الأول (٢٤١ - ١٩٧) ملك برغامة جمع هو أيضاً مكتبة نالت شهرة واسعة ، وان كانت دون مكتبة الإسكندرية .

٩ - Histoire de la philosophie , I , la pléiade , pp . 624 , 625 .

١٠ - راجع الفصل السابق (الأول من الباب الثاني) .

١١ – ARISTOTE . Politique , I , coll . " Budé " , intro ., pp . 96 . 97 et nn . 1 + 3 .

١٢ – Ency . Universalis , t . 10 , art . Lycée , p . 195 , col . . 3 .

١٣ – ARISTOTE , op . cit ., p . 115 et n . 3 + p . 125 + p . 129 et n . 2 .

L . ROBIN , op . cit ., pp . 311 , 373 .

١٤ – Histoire de la philosophie , I , La Pléiade , p . 625 .

١٥ – فُقدت هذه المجموعة الثمينة في أواخر العصر الروماني كما هو معروف ، وكانت تحوي دراسات للأنظمة الدستورية للدويلات اليونانية وغيرها . وفي سنة ١٨٩٠ عثر فريدريك كينيون ، على بردية ، محفوظة اليوم في المتحف البريطاني ، حوت القسم المتعلق بتطور نظام أثينة الدستوري ، يكاد أن يكون كاملاً . تعددت طبعات هذا النص ، وفي السنوات الأخيرة ، أعيد طبعه أكثر من مرة نظراً لأهميته ، مع نقل إلى الفرنسية في مجموعة بوده ؛ وحامت حوله دراسات عديدة كشفت عن بعض جوانب تفكير المعلم الأول وأسلوبه ، كانت مجهولة ، أوردها ناقل النص ،جملة ، في المقدمة من السلسلة المذكورة .

CF . ARISTOTE , Constitutions d' Athènes , coll . " Budé " . 5 . éd ., 1958 .

١٦ – ARISTOTE . Histoire des animaux , I , coll . " Budé " , intro ., p . 9 .

٧ – ARISTOTE , Parties des animaux coll . " Budé " , intro ., p . 27 .

١٨ – PLUTARQUE , Vies ... Sylla , coll . " Budé " , p . 26

١٩ – ARISTOTE , Politique , I , intro ., p . 97 et notes 1,2

٢٠ – Ibid , intro ., p . 107 .

الفصل الثالث :

أرسطو في المنطق والماورائيات

ليست غايتنا دراسة فلسفة أرسطو ، فإن كتب تواريخ الفلسفة ملأى بها ، إنما نريد أن نتناول بعض أقسام هذه الفلسفة ، فنلقي نظرة عجلى عليها ، محاولين معرفة إسهامها في تطلعات الفكر ونتتبع تأثيرها عبر العصور دونما إسهاب .

هي محاولات للتقرّب من فهم العصر الهلنستي ، ذي الأوجه المتعددة ، الغني والمعقّد معاً ، الذي كان له التأثير الكبير ، عند انتقال الفلسفة اليونانية إلى الشرق ، ودخولها ، عبر الوثنية ، الأديان الموحدة : النصرانية فالإسلام ، ثم على مدى واسع ، اليهودية [١] .

وكان حتماً علينا ، أكثر من مرة ، عند دراسة الستاجيري ، أن نقارن بعض أوجه فلسفته بمذهب أفلاطون ، لمعرفة مدى تأثير المعلم على تلميذه ، وللتركيز على الفوارق بينهما .

إننا نعتقد أنه ، بهذه الطريقة ، يُمَهّد أحسن تمهيد لفهم العصر الهلنستي والعصور المتعاقبة التي غالباً ما برحت حتى اليوم ، تتأرجح بين هذين القطبين ، لأنه يصعب أن تجود الطبيعة بنظير لهما ....

يبلغ عدد مؤلفات أرسطو " الخاصة " ، المعروفة معرفة مقبولة ، قرابة أربعمائة ، لم يصلنا منها سوى ٤٧ ، وهي حصيلة فكر العصر القديم ، وتكاد تؤلف دائرة معارف كاملة ، إذا استثنينا الرياضيات ، وتُعتبر أوسع مجموعة استطاع رجل فكر أن يحققها منفرداً ، إذ تناولت المنطق والماورائيات والتاريخ الطبيعي ، بمفهومه القديم الواسع ، وعلم النفس والسياسة والشعر والخَطابة .

فمن هذه العلوم ما يُعتبر أرسطو مؤسساً لها ، مثل المنطق والماورائيات وعلم التشريح ـ الفسلجة المقارَن ، وفلسفة التاريخ ، والحقوق الدستورية المقارنة . اتجه الستاجيري ، في أكثر هذه العلوم ، اتجاهاً جديداً ، فوضع مصطلحات وتعابير تقنية ، معطياً عدداً منها مفاهيم جديدة ، فأغناها ، وتركها للأجيال المتتابعة لإكمالها ، وما نزال نستعمل الكثير منها إلى اليوم ، قولاً وكتابة .

ومن هذه العلوم ما يرجع إليه الفضل في ترتيبها وتنسيقها وإعطائها شكلها العلمي المتوارث ، كما صنع في العلوم الأخلاقية والسياسية ، حتى قيل : إذا لم يكن أرسطو مؤسسها ، فهو ولا شك من أعظم مَن أسهم في تقدمها [٢] .

ومنها ما دحض المغالطات حول مفاهيمها ، وانتقد الممارسات المشوهة فيها ، فأبطل أكثرها ، وميزّ بين الغثّ والسمين في تطبيقاتها ، معتمداً أعمق نزعات النفس البشرية في توضيح سبلها ، وأتحفها بمقاييس مبتكرة فتحت لها آفاقاً جديدة ما فتئنا ، إلى اليوم ، نأخذ بقدر وافر منها ، كما كان شأنه في الشعر وبنوع أخص في الخطابة .

ومما يلفت نظر كل من ألمّ بأمهات مؤلفات أرسطو ، أن كل المواضيع التي تناولها الستاجيري ، قد عالجها بنزعة مزدوجة كفيلسوف وكعالم في الطبيعيات ، يَصدق ذلك فيه حتى في مؤلَّفَيْه : الشعر والخطابة : لقد جعلته الفلسفة يحلل ويعلل ، وحملته نزعة الطبيعيات على أن يشرح ويصنّف ، وذاك ديدنه في كل موضوع يطرقه ، جمع الأصول صعُداً إلى الينابيع ، حتى إذا مكّنه هذا التبحّر من تحقيق النظرة الشاملة ومعرفة مراحل التطور ، اتضحت أمامه الفوارق بين الأسس والفروع ، وعلى مثل هذه الأرضية الممهدة ، كثيراً ما أتت عبقرية الستاجيري برأي أُنُف ، يعطي الموضوع جدة وآفاقاً مستقبلية غنية . هذا ما فعله مثلاً عندما ؟ أرجع إلى الشعر مكانته بفضل نظرية " التنقية " [٣] ، بعد أن أقصاه أفلاطون ـ باسم الأخلاق والحقيقة ـ عن مدينته ، فردّ إلى الشعر اعتباره قائلاً فيه " إنه أكثر فلسفةً وأكثر سموّاً من التاريخ " [٤] .

تصنيف العلوم :

كانت الغائية من أهم مبادئ الفلسفة الأرسطية ، لذا اعتمدها الستاجيري في تصنيفه العلوم .. نظرأرسطو إلى أعمال الذهن فقال : إذا كان هدف العلم المعرفة ، كان هذا العلم نظرياً (THÉORIN) وفيه ثلاث درجات من التجريد : فالعقل إما أن يرجع إلى الواقع في فرديته ، كما في العلوم الطبيعية ، أو أن يركز النظر في المقدار والعدد ، كما في الرياضيات ، وإما أن يتفحص الوجود من حيث هو وجود ، فيسلك طريقة النظر كما في العلوم الماورائية .

أما إذا هدف إلى العمل (PRATIN) في العلم ، فإما أن يتعهد أعمال الإنسان ، كما في التدبير والأخلاق والسياسة ، وإما أن ينظر إلى العمل ، على مقتضى ما يريد أن

يحققه (PiN) في موضوع العلم ، فينتج منه ما هو تقني (بمعنى اللفظة اليونانية) أي الفنون والتقنيات ، مثل الخطابة والشعر .

يلاحَظ أولاً أن أرسطو لم يأت على ذكر المنطق بين أقسام العلوم النظرية والعملية ، لأن المنطق في نظره لَيس سوى آلة مِعْوان ،ومجموعة قواعد سلوك الفكر ، وليس لهذا العلم موضوع وجودي . ولا بد من لفت النظر ثانياً إلى أن لفظة " منطق " لم ترد عند الستاجيري ، بل ذُكرت دراية هذا العلم تحت تسمية " العلم التحليلي " ، وكان الافروديسي في شرحه ، أول من استعمل لفظة " منطق " للدلالة على العلم الذي يعصم تفكير صاحبه من الخطأ ، كما نفهمه اليوم .

لا يمكن إنكار إسهام المدرسة الإيلية والسفسطائيين (٥) ، رغم شطط هؤلاء ، في تطويع اللغة اليونانية وتهيئة المصطلحات في ممارستهم الجدل ؛ كما أن أرسطو يُقرّ بأنه اخذ عن سقراط أمرين :التحاديد الكلية والعبارة الاستقرائية . أما أفلاطون فقد مهّد – ولا شك – لمنطق أرسطو فيما انتهجه من أسلوب أساسه الحوار والجدَل الذي لا مناص فيه من اعتماد عدد من المفاهيم والطرق المنطقية . وقد لاحظ أكثر مورخي الفلسفة أن معلم أرسطو استعمل مصطلحات منطقية كثيرة مثل : الجوهر ، والكم ، والكيف ، والذات ، والوجود ، عدا التشابه والتباين ، إلخ ...

ولكن كل هذه المفاهيم وردت عند أفلاطون مبعثرة ، على ما اقتضته متطلبات المناقشة وانبساط الحوار ومستلزمات التدقيق في المعاني ، لتبيين الفروق وإفحام الخصم .

زدْ على ذلك أن هذه المواضيع ــ وهي قلّة إذا ما قيست بغنى مادة المنطق الأرسطي ــ لم تُبحث طبق منهجية ، فلم تُردَّ إلى مبادئ أولية ، ولم تُسرد بطريقة متسلسلة .

كل هذه الحسنات يصغر شأنها أمام ما حققه أرسطو بوضعه أقسام المنطق (الأرغنون) . وهنا كذلك لا مناص من المقابلة بين جبّارَي الفكر اليوناني ، إذا أردنا توضيح فضل أرسطو في " منطقه " على توجيه الفكر وتثبيت العلم .

العلم عند أفلاطون وأرسطو :

كان أفلاطون وأرسطو على وفاق في السعي بشغف وراء العلم ، إلا أنهما كانا يختلفان في تعيين موضوعه والأساليب الواجب الأخذ بها للوصول إليه . ومشكلة المعرفة

كانت ، و لم تزل ، أدق معضلة يعالجها الفلاسفة ، إذ تتناول العلاقة بين الذات المدركة والموضوع المدرَك ، أو قُلْ ، البحث عن درجة التطابق بين التصور الذهني والموضوع الواقعي ، وفي آخر المطاف ، عن قيمة التصوّر والتصديق .

وكان موقف أفلاطون حريفاً ، فقد أكّد في حوار الفيدون : " إذا كنا سنتوصل يوماً ما إلى معرفة شيء بصورة أكيدة ، فعلينا أن نتحرر من الجسد ، متمسكين بالحقائق الراهنة (أي المُثُل) بواسطة الفكر وحده " (٦) ، لأن المحسوسات ، بزعم مؤسس الأكاديمية ، ظواهر وظلال ، حاشا لها أن تكون موضوع معرفة وعلم .

و لم يكن موقف أرسطو أقل جرأة في مجابهة معلمه ، عندما أنكر عليه وجود المُثُل وجوداً ذاتياً ، وأكّد واقعية الطبيعة وموضوعية الحركة فيها (بمعناها الواسع) ، والتي تنطلق منها كل معرفة ، مقرراً أن لا صورة في الذهن دون الانطلاق من المادة ، وان لا شيء يبلغ حد المعقول دون أن يكون سبق وجوده في المحسوس .

فأرسطو قد بيَّن - ولا مشاحة - بموقفه هذا صحة الإدراك وحدوده ، ونبذه المُثُل الأفلاطونية ، كما أكد إمكانية وصول الإنسان إلى علم واقعي حقيقي .

وفي تضاعيف الأورغنون ، أمعن في توضيح الفارق بين الواقع والفكر ، فميّز - مبدئياً - بين قسمَي المنطق الصوري والمادي ، لأنه إذا كان الأول يسعى إلى توافق الفكر مع ذاته ، فالثاني يرمي إلى توافق الفكر مع الواقع الوجودي .

المنطق الصوري والمنطق المادي :

بلغ أرسطو الذروة بالمنطق الصوري ، فقد دلّل على أنه بمقدور الفكر أن يجعل تفكيره ذاتَه موضوعاً لتفكيره ، وانطلق من المفاهيم - بوصفها حصيلة الفكر وتعبيراً طبيعياً - يدلي بها العقل عفوياً غب التجريد ، معلناً أن المقولات ليست سوى تصنيف لهذه المفاهيم ، وأن المقولات وُضعت لتوضيح المعاني المختلفة القائمة بين المُسند إليه والمسند أو المبتدأ والخبر ، كما يقال في علم اللغة . وغاية الستاجيري ، من كل ذلك ، شرح الطبيعة وحصرها ، إذ أن الكم والكيف والوضع والزمان والمكان إلخ ... ليست سوى تسميات لتصنيفات مختلفة يقوم بها الذهن لترتيب أنواع المطابقات التي حققها بينه وبين ما يصل إليه عن طريق الحواس .

إن الستاجيري بموقفه هذا - الذي لم يدرج فيه على المذهب الحسي ولا على المذهب المثالي - قد أعطى الحواس الأسبقية النفسية ، بينما ترك للمفاهيم الأسبقية الذهنية . وفي

مذهب أرسطو الجديد ، نجد قدراً من الكمون وقدراً من المجاوزة والتعالي ، ولسنا نعجب من هذا عند أرسطو ، وهو القائل بالاعتدال وبالوقوف الموقف الوسط ، وقد كان مذهبه وسطاً بين مادية المدارس اليونانية واسْميّة الشكّاك والسفسطائيين ومثالية أفلاطون .

وكان ما وضعه أرسطو من قواعد المنطق الصوري خصباً ، إذ قامت بمحاذاته وتحت تأثيره أشكال حديدة منها المنطق الرياضي والمنطق الجبْري ، الخ ... وفي مؤتمر جنيف ١٩٠٤ ، اتفق المنطقيون على توحيد التسمية لهذه الأشكال تحت اسم المنطق الرياضي (Logistique) ؛ ويُفضل العلماء المعاصرون اليوم ترك هذه التسمية الأخيرة ـ وقد غدت عتيقة ـ والاستعاضة عنها " بالمنطق الرمزي " أو " البديهي " ، بسبب التداخل المتزايد بين المنطق والرياضيات ، حتى قال برتران روسل بهذا الصدد : " لقد نزع المنطق إلى الرياضيات والرياضيات إلى المنطق أكثر فأكثر ، حتى اصبح من المتعذّر تعيين الخط الفاصل بينهما ، وفي الواقع اصبح العلمان علماً واحداً " .

أما المنطق المادي الذي يعتمد الملاحظة والاستقراء والفرضية والتجربة ، فمن التجنّي القول إن أرسطو لم يطرقه . لذلك نرى أن ما قاله ستوارت ميل (+ ١٨٧٣) ، مدعياً أنه أصلح منطق أرسطو ، غير ذي موضوع [٧] ، لأننا نجد ما عناه ، إما في كتاب التحليلات الثانية (شروط المعرفة العلمية والبرهانية) ، أو في غيره من أقسام منطق الستاجيري .

ومن مقومات منهجية أرسطو ، ترديده بأنه لا يمكن الوصول إلى ضابط واحد لجميع فروع العلم ، لأن المواضيع المختلفة تتطلب أدلّة متنوعة : فالأسلوب الرياضي يختلف عما يجب أتباعه في العلوم الطبيعية ، لأن موضوع الأول مجرد ، والثاني مشخص ، وفي هذا لا يمكن الوصول إلى نتيجة مرضية إلا بالملاحظة والتجربة .

نجد ذلك ، عند المعلم الأول ، في أكثر من توطئة لفروع العلوم التي عالجها .

وفي الأرغنون نجد القياس [٨] (التحليلات الأولى) ، وهو من استنباط الستاجيري ، وقد أفرد له دراسة قيّمة ، وحلل أشكاله وقواعده ، معتبراً إياه من أنجع وسائل إنماء العلم [٩] .

وفي تسنّم معارج البرهان (التحليلات الثانية) ، لاحظ أرسطو أنه لا مندوحة للعقل أن يبلغ ما لا يمكن البرهنة عليه ، أي البديهيات ، وعليه أن يسلم بها لأنها بيّنة بذاتها ، ولا مناص للعقل من أن يعتمدها ، وقَبْل أية انطلاقة ، من أن يستند إليها .

وأكمل أرسطو في " الطوبيقا " ، وبنوع أخص في " السفسطة " ما بـدأ بـه سقراط وحذا حذوه فيـه أفلاطـون ، مـن كشـف أسـاليب التمويـه والمغالطـة ، المتجلببـة بـرداء شفاف من الصواب ، صوناً للعقل ، وحفاظاً علـى العلـم الصحيـح ، وتوضيحـاً للبـون الشاسع بين الجدل والجدال .

الأورغنون في الشرق :

وانتشر الاورغنون انتشاراً واسعاً ، وبقي خلال ٢٢ قرناً مقبولاً في جوهـره ، وسيّد المؤلفات المنطقية بلا منازع ، وكان يُحسب ، حتى منتصف القرن التاسـع عشـر ، انـه خرج كاملاً من يد أرسطو ...

والحقيقة ، أن تيوفراست ، تلميذ أرسطو ، كان قد زاد عليه بعض أشكالٍ وضـروبٍ جديدة ، أخذ بها ، على مجال واسع ، في العصـور التاليـة ، وتناولـه خريزيـب الرواقـي (+ ٢٠٥ Ghrysippe) ، فأدخل عليه بعض التكميلات فاعتُبر ، بين معاصريه ، كأنـه صنو المعلم الأول . وعـمّ تعليـم منطـق أرسـطو ، علـى الأقـل بعـض أقسـامه ، في كـل المدارس الفلسفية خلال القرون الهلنستية ، وإن كانت هذه العصور تميّزت بقلّة اطلاعها على أمهات المؤلفات الأرسطية .

وبعد نشرة الرودسي (٦٠ ق.م.) بدأ عهد جديد برواج مؤلفات أرسـطو ، عُـرف بعهد الشروحات والتعليقات على كتب أرسطو ، افتتحها نقولا الدمشـقي (٧٤ ق.م. ـ ٢٠ ب.م.) ، ولنا عودة إلى هذا الموضوع في حينه .

ولما كانت الفروق بين المدارس الفلسفية قد تضاءلت وعمّ سوق الانتقـاء والتلفيـق ، غدا من المألوف أن يعمد كبار الفلاسفة ، رغم انتمائهم إلى مدارس متنافسة ، إلى وضع الشروح على أهم مؤلفات كلٍّ من أفلاطون وأرسطو معاً .

ويهمنا الآن أن نذكـر علـى الأقـل فرفوريـوس الصـوري (٢٣٤ ـ ٣٠٥) ، تلميـذ أفلوطين ، الذي وضع مقدمة للمقـولات الأرسـطية ، عُرفـت باسـم الإيسـاغوغي ، أي المدخَل ، وقد لاقى هذا المؤلّف رواجاً منقطع النظـير ، لدرجـة التصـق معهـا بـاورغنون الستاجيري التصاقاً ، فبدا كما لوكان قسماً من الأورغنون لا يُدَرّس بدونه .

وغدا لا مناص أن تنتقل الإيساغوغي بدورها ، مع أجزاء من الفلسفة اليونانيـة ، إلى السـريان ، وإلى الأرمـن ، فكـانت تُعلّـم في أديرتهـم ومدارسـهم ، مـع بعـض أجـزاء الأورغنون المعروفة عندهم ، خلال قرون ، ثم نقلها من السـريانية إلى العربيـة كـل مـن

أيوب بن القاسم الرقي وأبي عثمان الدمشقي ، على ما ورد في الفهرست ، وشفعها بشرح قيّم ، ابن زرعة وابن الخمار وغيرهما ، حتى إذا اكتملت أجزاء الأورغنون عند العرب ، أصبح يُعرف على تسعة أقسام ، بعد أن أُضيف الايساغوغي إلى أول المجموعة ، وكتابا الخطابة والشعر إلى آخرها .

الأورغنون في الغرب :

هذا ما كان في الشرق ، أما في الغرب فقد نقل بويس (+ ٥٢٤ Boèce) ـ وهو واحد من قلّة بقيت تجيد اليونانية بعد اجتياحات البرابرة ـ إلى اللاتينية بعض كتب الأورغنون مع الإيساغوغي . وقد اعتُبر كتاب فرفوريوس ، شأنه في الشرق ، المدخل الطبيعي لإتقان الجَدلَ والفلسفة والإلهيات . وإذا تذكرنا أن المؤلّف زاد على كليات أرسطو الأربعة " النوع" ، فجعلها خمسة ، وترك عمداً ، وهو الأفلاطوني ، قضية وجود الكليات تتأرجح بين الوجود الواقعي والذهني ، فهمنا الجدَل الصاخب الذي آثاره موضوع الكليات الخمس (Question des Universaux) في المدارس والجامعات الأوربية ، من القرن التاسع إلى منتصف القرن الثالث عشر ، وقد أسفر عنه ظهور ثلاثة مذاهب ، الواقعي والتصوري والاسمي .

وكان من نتائج هذا الجدل المحتدم بين المدارس ،تحسين المنطق الأرسطي تحسيناً كبيراً على يد ألبرتوس الكبير (+ ١٨٢٠) وتلميذه الاكويني (+ ١٢٧٤) وسيجر دي برابان (+ ١٢٨١) زعيم الفلاسفة ذوي النزعة الرُشْدية .

ويدهشنا حقاً غنى القرن الثالث عشر من العصر الوسيط ـ خلافاً لما يعتقده جهل العامة ـ برجالاته الكبار . ودون أن ندع حقل المنطق ، لا بد لنا من ذكر ريمون لول (+ ١٣١٦) الذي حاول صنع " آلة للتفكير " فسبقت محاولته بسبعة قرون ما توصلنا إليه اليوم بالناظمة الآلية (Ordinateur) .

ثم انزلق المدرسيون ، وقد أفل عصرهم الذهبي ، إلى الجدال ، دون الجدل المثمر ، فقالوا بالتقسيمات والتمييزات والتفريقات ، حتى كاد أن يطمس الجدال الفلسفة كلها . وكان من طرائف الأمور أن يُعزى كل شطط إلى منطق أرسطو ، فقد نادى روجه بيكون (+ ١٢٩٤) مثلاً إلى حرق كتب أرسطو كلها ...

وإبان النهضة ، سعى فرنسيس بيكون (+ ١٦٢٦) وبعده ديكارت (+ ١٦٥٠) إلى إنشاء منطق أكثر توافقاً مع الواقع والتجربة . وحوالي منتصف القرن السابع عشر ،

نشر دير " بور ـ رويال " المنطق المعروف باسمه ،وهو تأليف مشتَرَك قام به الرهبان ، محاولين التوفيق بين الأورغنون الأرسطي والأفكار الجديدة . وأشهر ما أتى به هذا المنطق قانون الشمول والتضمن ، المعروف بقانون نيكول ـ أرنو (Nicole - Arnauld) [١٠] .

وأوحت كتابات فرنسيس بيكون وديكارت إلى الفيلسوف الألماني كانت (+ ١٨٠٤) .بما يُعرف بالمنطق المتعالي ، وهو ما حوّله هيغل (+ ١٨٣١) إلى المثالية المطلقة .وكان ليبنز (+ ١٧١٦) أشهر مَن شذّ عن إهمال منطق أرسطو ، فقد حاول الجمع بين المنطق التقليدي والدقة الرياضية ، فلم يفلح . وقد ألمحنا سابقاً إلى ما توصل إليه المعاصرون من المنطق الرمزي .

وخلاصة القول أن أرسطو أعطى العقل البشري في الأورغنون قاعدته الذهبية ، وهو الذي استنبط القياس والبرهان ، وصاغ قواعد الاستقراء والجدل ، وكشف عن مغالط السفسطة ، وجعل من كل هذه الطرق علماً له أصوله وقواعده وأشكاله .

وإذا استطاعت جماعة المفكرين الذين أتوا بعده في العالم كله ، منذ ٢٣ قرناً ، أن يزيدوا أو يكمّلوا أو يأتوا بتطبيقات جديدة في بعض نواحي المنطق ، فما برحت الأسس التي وضعها الستاجيري باقية بقاء الفكر ، وسيظل أرسطو أستاذ كل عقل يسعى إلى الصواب ويتحاشى الخطأ ، ومعلم قوانين الذهن التي عليها تقوم كل معرفة رصينة .

الماورائيات عند أرسطو :

هذا ، والمنطق عند أرسطو يقودنا ـ بلا مراء ، إلى الماورائيات ـ لأنه إذا كان المنطق الصوري يبحث عن توافق الفكر مع ذاته ، فالمنطق المادي يحاول ذلك مع موضوعه . إن هذا الموضوع ، حصراً ، هو ما تحوم حوله الماورائيات وتتساءل " ما الذي يجعل الشيء " هو هو " ، أي تبحث " عن الموجود بما هو موجود " .

أما الوجود ، وهو عَرَضٌ في كل الكائنات ما عدا الله ، فليس سوى بروز الذات أو الماهية إلى الوجود ، وبعبارة أخرى لا بد للعقل ، في آخر مطاف المنطق ، أن يتساءل عن موضوع تفكيره الأخير ، أي أن يبحث ، بعد تناوله الحقيقة المنطقية ، في الحقيقة الأونطولوجية .

تبرز واقعية أرسطو في الماورائيات ، شأنها في بقية العلوم ، وواقعيته هذه تتمثل بقوله المشهور : " لستَ ابيض لقولنا إنك أبيض ، لكن لأنك حقاً ابيض ، نقول قولاً صحيحاً عندما نؤكد أنك أبيض " [١١] .

لم ترد لفظة " ما ورائيات " عند أرسطو ، وأول من قـال بها في مؤلَّف ، على ما نعلم ، نقـولاوس الدمشـقي (٧٠ ق.م. ـــ ٢٠ ب.م.) في شـرحه مـا ورائيـات الستاجيري ، معتمداً ترتيب لائحة الرودسي (قرابة ٦٠ ق.م.) الذي صنّف هذا العلم فيما بعد ، أي وراء كتب أرسطو الطبيعية .

واقع الماورائيات كما وصلت إلينا :

إن كتاب الماورائيات لأرسطو كناية عن مجموعة مشوشة بلغت أربعة عشـر جـزءاً ، وأكثر هذه الأجزاء تبدو وكأن بعضها مستقل عن بعضهـا الآخر وقدكتبـت في فـترات متباينة (١٢) . وهي بمجموعها تثير أكثر من معضلة ترجـع إلى واقـع الكتـاب ، ترتيبـاً وموضوعاً وتأليفاً . ولن نتناول سوى أربع منها لأهميتها في نظرنا :

١- يُجمع العلماء على أن الجزء الثاني ، على الأقل ، ليس مـن نتـاج أرسـطو ، وإن كان على مذهب المشّائية ، والأرجح أنه تلخيص لبعض الطلاب أخذاً عن تعليـم المعلـم الأول (١٣) . وفي الجـزء (K = ١١) يجـزم الاختصـاصيون أن الفقـرات ١ ـــ ٨ ، استناداً إلى المفردات المستعملة وأسلوب التعبير ، ليست من قلم أرسطو (١٤) ؛ ولهـذه الفقرات الثماني أهمية بالغة ، كما سنرى .

٢- في الكتاب تكرار بين أجزائه : مثلاً ، الجزء ١١، في قسمه الأول ، يكرر ما جاء في الأجزاء ٣ و ٤ و٦ ، والأرجح أن أحد مريـدي المعلـم الأول رغـب في أن يجمـع في جزء واحد ما تبعثر في الأجزاء الثلاثة ، أما القسـم الثاني مـن الجـزء ١١نفسـه ، فليـس سوى إعادة للمقالين ٣و ٤ من كتاب أرسطو " السماع الطبيعي " (١٥) .

ويُلاحظ ، فضلاً على ذلك ، أن الجزء الخامس من الكتاب ليس برمّته سوى معجـم فلسفي حدّد فيه الستاجيري بعض ألفاظ بلغت الثلاثين ، مثل المبـدأ والعلـة والوجـود ، الخ ... فكأنها مواد أُعدّت للرجوع إليها عند سبك الكتاب .

٣- ومما يستدعي الانتباه ، رغم هذا التبعثر ، أننا نجد في الجزء الثالث مـن الكتـاب ، عرضاً للمسائل الماورائية التي كان يريد الستاجيري بحثها في مؤلّفه ، وهذا دليـل واضـح على وحدة تصميم الكتاب الذي وطّد المعلم الأول النفس على وضعه .

٤- أما الأمر الخطير الذي يستدعي الانتباه منذ قرون عديدة ، فهو أن مواد المجموعـة الماورائيـة تشـير إلى ثنائيـة الأنطولوجيـا الأرسـطية . فمـن مقارنـة الجزأيـن الثـالث (المعضلات) والرابع (الوجود والمبادئ الأولى) يتضح أن هناك علمـين في الماورائيـات

عند الستاجيري نفسه : أولاً علم الوجود " العام " ، دون تعيين أو حصر ، ويشمل كل الوجود على الإطلاق ، ومنه تستمد جميع فروع الفلسفة مبادئها . أمّا العلم الثاني ، فيسمّيه أرسطو نفسُه الفلسفة الأولى ، أي الإلهيات ، ويعرف أيضاً بعلم الربوبية ، وموضوعه المحرك الأول ، أي الله ، عند الستاجيري .

أما الذين قالوا بوحدة علم الوجود والإلهيات ، فقد استندوا إلى الفقرات ١ ــ ٨ الواردة في جزء (K = ١١) . ولمّا كانت هذه الفقرات ـ التي ذكرناها آنفاً ـ منحولة قطعاً ، أصبح برهانهم غير ذي موضوع ، فاللاهوت ـ وهو العلم الأول ــ هو الأسمى بالنسبة إلى موضوعه ، وتبقى الصدارة لعلم الوجود في ترتيب المعرفة .

دواعي وضع علم الماورائيات :

إن المذهب الافلاطوني كان من أهم الدوافع التي حدت بأرسطو لوضع كتاب الماورائيات . إن نظرية المُثُل ، عند مؤسس الأكاديمية ، تَمُتُّ بصلة وثيقة إلى الطريقة التحليلية التي اعتمدها أفلاطون في محاوراته . فالحد والجدل يعتمدان الفرضيات ، وهذه أسس متقلقلة لا يمكن للعقل أن يركن إليها . وما من شك في أن أفلاطون انتبه إلى هذه الثغرة ، فقد عالج الموضوع أكثر من مرة في تضاعيف " فيدون " و " الجمهورية " (١٦) ، ومن الغرابة بمكان أنه لم يتمكن من رتقها ، إن لم نقل لم يشأ ذلك .

وفطن أرسطو إلى نقطة الضعف هذه في صرح المُثُل ، وهذه ليست سوى إحدى تطبيقات التحليل ، فأراد سد الفراغ . وإذا كان تصنيف العلوم ــ كما يُستشف من المحاورات الأفلاطونية ـ يجعل الجدل يشمل فلسفة العلوم والمنطق والماورائيات ، فقد أراد أرسطو أن تكون الماورائيات علماً مستقلاً عاماً يكلل به كل العلوم .

ارتقى الستاجيري بالنظر إلى علم الوجود ، وتوصل بالتأمل إلى تلك الخاصية المشتركة الضامة كل واقع على الإطلاق ، أي الذات الأخيرة التي بإمكانها شمول كل موجود .

وكان على مؤسس الليقيون ، علاوة على ذلك ، أن يدعم علمه الجديد بما نقص لدى معلمه ، فعمد إلى إرساء دعائم علم الوجود على مبادئ أولية لا يفتقر تصديقها إلى غير ذواتها ، بسبب وضوح بداهتها ، مثل مبدأ الهوية ، ومبدأ عدم التناقض ، إلخ ...

ويطول بنا الأمر إذا أردنا تتبّع البراهين التي ساقها أرسطو في نقد أفلاطون وتفصيل ما ورد فيها من قول سديد، إلى جانب ما أجحف وتجنى به على معلمه ، فنكتفي بقول مقتضب : لقد اخطأ أفلاطون وأرسطو ، كلاهما معاً ، في موضوع المُثُل ، لأنه إذا كانت هذه ضوبة لازب لكل مُحْدَث ، فلا يَستتبع ذلك وجوب التشخيص فيها : نعم لقد اخطأ أرسطو في الأولى ، وأفلاطون في الثانية .

وبقيت انطلاقة أرسطو " من الموجود بما هو موجود " في ما ورائياته سائدةً قرابة عشرين قرناً حتى أتى ديكارت (+ ١٦٥٠) فترك النظر في " موضوع المعرفة " سبيلاً للارتقاء إلى الموجود ، وفَضّل الانطلاق من الذات أي " الأنا " المفكر ، فانزلقت الماورائيات عنده إلى فلسفة المعرفة . ومن الطريف أن ديكارت احتفظ بكلمة الماورائيات بعد تركيزه الجديد ، فغدت اللفظة تتأرجح بين فلسفة الموجود وفلسفة العلوم ، بل من الأفضل القول : إن فلسفة الموجود طُعّمت بفلسفة العلوم ، فغدت الأخيرة شغل المفكرين الشاغل طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ودون أن ندخل في التفاصيل نقول قولاً واحداً : من الزراية أن يُخلط " الأنا " الديكارتي بمدلوله المشخص ، بمفهوم " الموجود " كما هو عند أرسطو ، لأن " الأنا " عند ديكارت ليس " الموجود " بل هو " من الموجود " .

ختاماً ، وبعد هذه الإلمامة بما ورائيات أرسطو ، وقبل أن ننتقل إلى إلهياته ، لا بد من القول : ليس من الإنصاف بشيء أن نعتبر كتاب الستاجيري كما لو انه خرج تاماً كاملاً من يده ، فقد رأينا أنه ، في قسمه الأكبر ، أشبه بمسوّدة ومجموعة مواد أُعدّت في أوقات مختلفة للسبك في مؤلّف عتيد ؛ ولو مد بعمر أرسطو فلم يتوفَّ في الثانية والستين ، بل زيد في أيامه حتى بلغ الثمانين مثل أفلاطون ، لكنا رأينا دون ريب " ما ورائياته " على غير ما هي عليه بين أيدينا اليوم ، خاصة أن نزعة أرسطو الفكرية لم تكن دوغماتية تجزم نهائياً في موضوعات الفكر ، كما تصورته خطأً العصور فيما بعد . فقد بدّل رأيه في المحرك الأول وخلود النفس ، ودأب أبداً ينسق بين أقسام مؤلفاته ، وكما أوضح ذلك أوبانك (Pierre Aubenque) مجددُ دراسة الارسطية في الحقبة الأخيرة ، بنظريته القائمة على القول " إن الترابط المنطقي في مؤلّفات أرسطو ليس مفترضاً وسابقاً ، بل هو نزوع وسَعْيٌ إلى تكوين مذهب ومشكلة قائمة باقية " (١٧) وهذا قول صحيح إلى حد بعيد ...

على كل ، مهما كان واقع ما ورائيات الستاجيري بحالتها الراهنة ، فقد عَدّ هوسرل (+ ١٩٣٨ Husserl) ومدرسته أرسطو أبا الماورائيات وعلم الظواهر المتعالي (Phénoménologie transcendantale) .

وأخيراً تكفينا شهادة برغسون (+ ١٩٤١) الذي قال فيه : " هو مؤسس الماورائيات ، ومعبّد الطريق لأسلوب في التفكير ، ويُعتبر الفلسفة عينها " ، ووصف أُنطولوجياه بقوله : " إنها الماورائيات الطبيعية للعقل البشري " (١٨) .

الحواشي :

١ – قام بمحاولة أولى اليهودي فيلون (١٣ ق.ب. ـ ٥٥ ب.م.) في الإسكندرية ، وهو معاصر للسيد المسيح . إلا أن نشاطه لم يلقَ رواجاً عند أبناء ملّته . وقد تأثر به الكتبة المسيحيون أكثر بكثير من المفكرين اليهود ، كما سنبيّن في حينه .

٢ – ARISTOTE , Politique , introd ., p . VIII . (éd . Budé)

٣ – ARISTOTE , Politique , 1449 b , cf . aussi introd ., pp . 15 - 22

٤ – ARISTOTE , Politique , 1451 b

٥ – يُعتبر بروتاغوراس (+ ٤١١ Protagoras) أشهر من أسهم بين هؤلاء في هذا الحقل ، فإليه تُنسب أول محاولة " إعراب " في اللغة ؛ فقد دعا إلى تعيين جنس الأسماء العامة ، ووضع قواعد إنشاء الجُمل ، وصيغ الأفعال ، فمهّد بذلك الطريق للدراسات المنطقية .

٦ – راجع : كيف يبرر أفلاطون ضرورة الرجوع إلى المُثُل للوصول إلى المعرفة :
R .TATON . La Science Antique et Médiévale ,I , p . 264 .

٧ – راجع : يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ص ١١٩ ، والفصل الحادي عشر من هذا الكتاب .

٨ – يلاحظ أن الفلاسفة العرب الأقدمين قالوا بالقياس بدلاً من الاستنتاج في أقسام الاستدلال ، مع أن الاستنتاج أعمّ من القياس (راجع صليبا : المعجم الفلسفي ، الجزء الأول ص ٦٨ ، والجزء الثاني ص ٢٠٧) .

٩ – هناك مشادة بدأ بها ستوارت ميل لم تتوقف حتى اليوم ؛ فقد قال إن القياس الصوري نوع من المصادرة على المطلوب (Pétition de princiqe) (راجع جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، الجزء الثاني ص ٣٨٢) . ويجيب على ذلك يوسف كرم نافياً الأمر لسببين :

أ ـ إن النتيجة في القياس متضمنة في المقدمتين مجتمعتين ، أمـا في المصادرة ، فهي في مقدمة واحدة .

ب ـ إن أرسطو لم يضع الموضوع في أول القضية ، بل المحمول (تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ١٢٣) .

ونضيف إلى ذلك ملاحظتين هما : إن الفكر ، عندما يقال إن القياس هو نوع من المصادرة على المطلوب ، يكون هو بدوره قد قام ذهنياً بما يصنعه القياس ، أي قد التجأ عقلياً إلى الحد الأوسط ، وسلك بفكره سلوك القياس بعينه ....

١٠ – يمكن تلخيص هذا القانون ، الذي يتناول النسبة القائمة بين الشمول والتضمن في المفاهيم ، فيقرر أنها نسبة عكسية ، أي أنّه كلما زاد الشمول نقص التضمن ، والعكس بالعكس .

١١ – ARISTOTE , Métaphysique , B 10 , 1051 b , 6 - 9

١٢ – يتضح ذلك من التطور البيّن في تفكير أرسطو ، عند مقارنة بعض أجزاء الماورائيات ذاتها فيما بينها . ففي الجزء (K . 8 , 1065 , a 21) يحصر أرسطو الخطأ والصواب في الفكر وحده دون الرجوع إلى الواقع ، فيكون الصحيح عنده علاقة فكرية منطقية ، لا دخل للماورائيات فيها . أما في الجزء الخامس (كما ذكر في الهامش السابق) فالحقيقة تصبح تطابقا بين الفكر والواقع ، على ما استشهدنا به في نص أرسطو الوارد في المتن .

١٣ – يعزى هذا الجزء إلى بازيكلس (Pasicles) ، تلميذ أرسطو ، ونسيب أوديم تلميذ الستاجيري هو كذلك . ومن الملاحظ في ترتيب الأجزاء التي بين أيدينا أنه ، بينما رُقّم الجزء الأول بألف يونانية كبرى ، رُقّم الجزء الثاني بألف يونانية صغرى ، ثم أُشير إلى الجزء الثالث بباء يونانية كبرى . فلربما جُعل ذلك إشارة إلى الشك في مؤلّفه . على أن الافروديسي (القرن الثالث ب.م.) ، وهو من أشهر شرّاح أرسطو ، وقد رأس الليقيون (بين ١٩٨ ـ ٢١١ ب.م.) يرده الى الستاجيري ، و لم نستطع أن نتأكد من كونه بقوله هذا يعني أن هذا الجزء على مذهب أرسطو أو أنه من تصنيف المعلم نفسه .

١٤ – P. AUBENQUE , Histoire de la philosophie , I , encyclop . pléiade , p . 650 .

١٥ - كان هذا التكرار المنتشر في الماورائيات سبباً لعدد مِمَّن محصوا الكتاب أن يقترحوا ضم بعض الأجزاء التي تتناول موضوعاً واحداً بعضها إلى بعض ،كأن تجمع الجزأين ١٣ و ١٤ فتحصل على مقدمة للكتاب تبحث في العلم والمذاهب ، أو أن تضم الجزء الثاني إلى الرابع فيُصبح بين أيدينا مقدمة ثانية عن إمكان هذا العلم ، وإذا ربطنا بين الأجزاء ٦ و ٧ و ٨ و ١٠ ، حققنا بحثاً في الجوهر ولواحقه ...

١٦ - أفلاطون : فيدون ١٠١ / د + الجمهورية : ٥١١ / ب .

١٧ - JEAN BRUN , Aristote et le Lycée , P.U.F ., p . 21 n . 2 .

١٨ - HENRI BERGSON , Évolution créatrice , p . 362 , et La Pensee et le mouvant ,

p . 287 , apud J . CHEVALIER , Histoire de la pensée , I , p . 272 .

ويعتبر ما قاله شوفاليه (ص ٢٦٨ - ٢٧٢) عن أرسطو ، في ماله وما عليه تجاه أفلاطون ، من أوضح ما كُتب ، والأكثر اعتدالاً وإنصافاً في هذا الموضوع .

الفصل الرابع :

الإلهيات عند أفلاطون وأرسطو

إذا كان أرسطو قد بزّ معلمه أفلاطون في الماورائيات ، فمما لا شك فيه أنه لم يستطع أن يضاهيه في الإلهيات . ويمكننا ردّ ذلك إلى مزاج الفيلسوفين الكبيرين ونمط تفكيرهما وما انبثق عن ذلك من طريقة متباينة لدى كل منهما .

كانت روح أفلاطون تسبح في روحانية عميقة ، وعيناه شاخصتان إلى المُثُل المفارقة ، وبقي هكذا حتى آخر أيام حياته ...

أما أرسطو فقد خبر هذه الروحانية وتذوّقها سنين طويلة عندما كان في كنف معلمه ، إلا أنه عانى في أخريات سني تلك الحقبة أزمة نفسية حادة انتهت به إلى تملّك ناصية منهجية جديدة قلصت في نفسه أكثر فأكثر إيمانه بالآلهة ، فأصبح لا يأخذ من المعتقدات إلا ما يماشي طريقته العلمية ، وبقي مترددا في هذا المضمار بين نوع من وحدة الوجود النازعة إلى الاعتقاد بألوهية مبثوثة في الطبيعة كلها ، والقول بالمحرك الأول .

ولا بد لنا قبل ولوج هذا الموضوع من أن نلخص تطور مفهوم الألوهية عند اليونانيين في حقباتها الأولى ، لنقدّر بإنصاف ما أتى به كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو من تحوير وتجديد .

المصير وآلهة الإغريق في الإلياذة :

من المعلوم أن ديانة الإغريق خلت من كتاب يُعتقد بقداسته ، و لم يكن لدى اليونان عقائد دينية ثابتة ولا طبقة كهّان تمثّل الإيمان وتحفظ التعليم وتشرح أصول الدين .

وتكاد الإلياذة أن تكون الكتاب الأوحد لتعليم طلاب الإغريق القراءة والحفظ والشرح، حتى أضحت " الثقافة الهيلينية تقوم على معرفة كتاب هوميروس والتمرّس بأناشيده " (١) .

والحياة كما يصوّرها صاحب الإلياذة تافهة سريعة الزوال ، تكتنفها مئات المصائب من أمراض وأشجان وشيخوخة . ويخبرنا هيرودوتس (٢) أن إحدى الأمهات سألت الإله أبولون أن يكافئ ولديها بأحسن أعطيا ته على تقواهما ، فلبّى طلبها وأمات ابنيها

سريعاً دونما ألم . فالموت العاجل دون التعرّض لمصائب الحياة أو بلوغ الهرم الكئيب ، كان أفضل ما استطاع أبولون أن يكافئ به عباده . ومن فحوى القصة يُفهم تقدير الإله للحياة البشرية . أما المصير بعد الموت فهو بقاء كئيب ، بقاء أشباح دون حَيْل أو ذاكرة ، حتى إن أفلاطون في جمهوريته أفاض في ذكر مخاوفه من تأثير الشعراء بما وصفوا به مقرّ الأموات ، لئلا تفتّ أقوالهم في عضد الجنود فتُضعف من شجاعتهم إذا ما ذكروا آخرتهم . وعندما تمكن أُوْلِيس في الاوذيسة ، خلال حفرة أحدثها في الأرض وأرواها دم الأضاحي، أن يستحضر شبح أخْيل ، بطل الإلياذة ويسأله عن نوع البقاء في عالم الأموات ، أجابه هذا " إني أُفَضّل أن أحرث الأرض وأخدم في العَوَز عند سيد فقير على أن أكون سيد الأموات جميعاً " (٣) .

وماذا لو التجأ اليوناني إلى آلهته ، وأرض الإغريق تعجّ بهم ، يترددون على البشر ، وبعضهم يُقيم بين ظهرانيهم أحياناً ؟ وكان لكل غابة وساقية ونبع إله ، وللجبال والمغاور والمروج والبحار آلهتها وعرائسها ، هذا إذا لم يعزب عن بالنا أنصاف الآلهة والأرواح الصالحة والشريرة . ومَنْ لا يذكر في الاوذيسة كيف كان أُوليس لا يقترب من نبع أو ساقية أو نهر دون أن يستلطف آلهتها ، طالباً عطفها وحمايتها ، غاسلاً يديه بمائها استرضاء لها ؟

أما كبار الآلهة والآلهات ، من زَفْس سيدهم ، إلى أفراد زمرته الذين اقتسموا الأرض والبحار والمساكن السفلى ، واختص كل منهم بمظهر من مظاهر الحياة ونشاط البشر ، فمقرّهم في أعالي جبال الأولمب ، يرتعون في سعة ورغد عيش ويجرعون كوثر الخلود ويتنشقون روائح الأضاحي التي يُصعدها سكان الأرض زُلفى إليهم . وقد اشتهروا عند هوميروس بما وصفهم به من تحاسد وتباغض ، وبما يمارس بعضهم لبعض من مكر وخداع ونصب الأشراك . وما سرده عنهم الشعراء من أحاديث خطف الزوجات وأعمال الخنى والفساد أشهر من أن تُذكر ، يتخذون عالم البشر مسرحاً للتنافس ، وقد يشاركون بصورة مرئية في القتال لمناصرة من انحازوا إليهم . ومَن ينسى كيف انشق صفّ الآلهة على بعضه بعضاً عندما قامت الحرب ، وكيف عاضد فريقٌ الآخيين ، وفريق آخر مدينة طروادة ؟

والقَدَر عند هوميروس مهيمن مسيطر على الآلهة والبشر ، وكل مسعى لصدّه مآله الفشل ، بل قد يساعد على تنفيذ أحكامه (٤) .

كل ذلك جعل الأستاذ مازون يبدي رأياً وافقت عليه غالبية الاختصاصيين ممن أوسعوا الإلياذة درساً ، وهو أنه " لم يوجد قط نشيد أقل تديناً من الإلياذة " . أما دوْدْس فيرفض الأخذ بمفهوم الدين المتعارف عليه اليوم ، ثم يحلل الأسس والخاصيات والظاهرات التي كان يرتكز عليها نمط " الديانة الهوميرية " (٥) . ومهما يكن من أمر ، وبصرف النظر عن قيمة الملحمة الفنية الفريدة ، فإلياذة هوميروس تعطينا صورة واضحة عن واقع آلهة اليونان الأخلاقي ، وانقسام صفوفهم في موضوعٍ بعينه و(خطفُ ضيفٍ زوجةَ مُضيفه من بيته) يتنافى مع كل عرف شريف .

العقلنة عند اليونان :

لكن رغم هذه الخلفية الدينية الداعية إلى التشاؤم ، عُرف اليوناني بالاعتداد بالذات ، والاتكال على النفس ، والحيوية المتدفقة ، والنشاط المثابر ، و حب لمباهج الحياة ، وشغف بالأسفار والاتجار ، وولع بالمغامرات والاستكشافات ، والسعي الدؤوب وراء كل معرفة . وامتاز اليوناني بنزعة عقلانية تبلورت بنوع فائق عند الصفوة ، فكانت لهذا الشعب بمثابة مرساة لنجاته ونجاحه في خضمّ الدين .

وبهذه العقلانية وزن اليوناني منذ القرن السابع قبل المسيح الأمور ، وتفحّص ظاهرات الطبيعة ، بعد أن أفاد ما أمكنه الاستفادة من الحضارات التي سبقته ، إلا أنه أجهد نفسه بعقلنة ما أخذه عن غيره ، فتألقت حضارته حتى وصفت " بالأعجوبة " .

أما الدين ، فحقاً لظاهرة غريبة ألا تكون الأخلاقيات الإغريقية مدينة له ، بل على عكس ذلك أن يرجع الفضل لتلك العقلانية في تنقية المعتقدات على قدر ما يستطيع الشرك أن يتحمل التخلص من خرافاته وأخباثه ، ولسوف تتسامى هذه العقلانية رويداً رويداً بمفهوم الألوهية ، فتُحَمّلها شيئاً فشيئاً بالاستقامة والعدل والحكمة والمسؤولية تجاه البشر ، وتستنبط القواعد الأخلاقية وتعنى بوجوب السلوك البشري .

وكم كانت الطريق شاقة وطويلة بين هوميروس وسقراط !

محاولات عقلنة الدين اليوناني :

ونحن إذا كنا لا نريد التوقف ، خوفاً من الإسهاب ، عند كل مؤلف في تتبّعنا التطوّر

الحاصل ، قبل التفرّغ لسقراط وأفلاطون وأرسطو ، فلا يسعنا إلا أن نلقي نظرة سريعة على بعض نتاج الذين أسهموا بصورة فعّالة ، وأكثر من غيرهم ، في تقوية هذا التيار الإصلاحي وإنمائه .

فإذا كان هزيود (القرن الثامن قبل المسيح) لا يرى حرجاً ، عند بحثه أصل الآلهة وسلالاتهم ، من وصف الحروب فيما بينهم ، إلا أنه حاول إشاعة فكرة عدالة مبنية على جهد البشر ونشاطهم [٦] .

وظهر بعده ثيوغْنِيْس الميغاري (٥٤٥ - ٥٠٠) الذي وصف سلوك زفْس بالتناقض الغريب ، إذ أنه خصَّ بقسمة واحدة الصالح والطالح [٧] . وعاصره كسينوفان (+ ٥٠٠ ؟) مؤسس المدرسة الإيلية الذي لقّب عن جدارة واستحقاق بأوّل لاهوتي [٨] في شؤون الربوبية ، والذي نادى بإله مغاير لكل آلهة الميثولوجية اليونانية ، ووصفه بأنه يرى ويعمل كل شيء دونما إجهاد أو تعب . وشنّ كسينوفان حرباً شعواء على كل أنواع تشبيه الآلهة بالبشر ، مؤكداً أن ما يُنسب إلى آلهة اليونان لا يليق بالإله الذي يُعلنه ، وأن هذا الإله ليس وقفاً على بلد أو شعب ، بل هو هو نفسه لكل الأمم دون أي حصر أو تقسيم . وبمثل هذه النزعة التوحيدية الصريحة حقق كسينوفان أول تشذيب واسع في مفهوم الألوهية عند اليونان ، على أنه احتفظ مع ذلك بنوع من الشرك السطحي التقليدي .

وإلى جانب هذا التيار الفلسفي قام في القرن الخامس (ق.م.) عَلَم حقق ما لم يكن يجرؤ عليه قبلَه أحد : أدخل إيشيل (+ ٤٥٦) مفهوم العدالة بين آلهة الأولمب فغدا زَفْس وزمرته ، بعد الاستبداد والعبث والمجون ، يمثّلون العدالة الأخلاقية والتسامي . ففي " ثلاثية المأساة الأورستية " أبطل القَوَد وأقام مكان شريعة الذّحل القضاء الأريوباغي . وفي " الثلاثية البروموتية " قضى على التنافس الذي كانت تمارسه الآلهة تجاه البشر ، فنصب الإله بروميته مقاوماً لزَفْس ، سيّد الأولمب ، رحمةً وشفقة بالبشر [٩] ، حين نقل النار ، قوامَ الصناعات والفنون ، إلى سكان الأرض ، وعلّمهم ترويض الخيل والملاحة والكهانة والطب . وبلباقة فائقة ، عند بلوغه " حل العقدة " في تمثيلياته ، أنقذ إيشيل مهابة الإله الأكبر وحافظ على سيادة زَفْس تجاه أقرانه في الاولمب ، فأقام بذلك توازناً بين تقاليد عبادة الآلهة وكرامة البشر ، فارتقى بالتدين إلى القمة التي لن يصل إليها شاعر فيما بعد . أما أوريبيد (+ ٤٠٦) فلا يخلو من تقلقل

في تفكيره الديني (١٠) ، غير انه ادخل في قصائده الابتهالية المرفوعة إلى الألوهية رنة فلسفية أخذها ولا شك عن أستاذه انكساغور، قبل انصرافه إلى المسرحيات . وتفوق أوريبيد في معالجة المواضيع التي تتطلب تحليلاً نفسياً متشعباً دقيقاً ، مثل وصفه البراءة والخدانة بين الآلهة والبشر ، وأنّ شهادته بتعفّف هيبوليت ، أمر فريد في الأدب اليوناني ، ومعروف أن راسين مدين له بالكثير في مسرحيته " فيْدر " الشهيرة .

موقف السلطات اليونانية من الدين :

كان نظام الدويلات اليونانية ــ شأنه في العالم القديم ــ قائماً على مزج الدين بالدولة . وكانت أثينة تفرض على المواطنين الاشتراك في الطقوس وإقامة الشعائر الدينية العامة ، وتشجب كل تلكّؤ عن حضور هذه الاحتفالات التي تعدّها وطنية . وكانت لا تطيق أن يوجه أي انتقاد رصين إلى هذه العبادات الرسمية . وكانت تعاقب بالموت كل من يحاول مسّ هذه المعتقدات (١١) . ومن الغريب والطريف معاً أن الحكم في أثينة ــ وقد عُرف بحساسيته المرهفة في هذه الأمور ، وأقلق أكثر من مرة راحة إيشيل وأوريبيد ـ كان يتغاضى عما يعرضه أريستوفان في مسرحياته الهزلية من نقدٍ حادٍّ وسخرية لاذعة ، لاعتقاد الحكام . إن كل ما يرد في إطار الهزليات لم يكن يؤخذ مأخذ الجد بحال من الأحوال (١٢) .

كان من المحتم إذاً ، والحال هذه ، أن تقوم مشادة مستمرة بين الفلاسفة والشعراء ورجال الفكر ، ممثلي النزعة التحررية ، والحكام تساندهم عامة الشعب المتمسك بآلهته بسذاجة وتعصّب معاً . وكانت تعقب كل ظاهرة تحررية رداتُ فعل يُكتب فيها النصر عادة للغوغائية .

وخلافاً لما قد يُظن ، اضطُهد عدد من رجالات الفكر في اليونان وحُكم على بعضهم بالموت . فهذا أنكساغور (+ ٤٢٨) أول من أنشأ مدرسة فلسفية في أثينة ، وديوجين الأبولوني (+ حول ٤٢٥) رائد محاولي تحرير المدرسة الطبيعية اليونية من ماديتها ، وبروتاغوراس زعيم السفسطائيين (+ ٤٠٨) أول من أُحرقت كتبهم في ساحة عامة ، وكذلك اضطهد سقراط (+ ٣٩٩) وأرسطو (+ ٣٢٢) ، هذا إذا أردنا القول حصراً في الفلاسفة وخلال القرنين الخامس والرابع ق.م. فقط ، و لم نتجاوزهما .

وكان التشريع في دولة أثينة يهيمن على ممارسات الدين . ومعلوم أن كل محاولة متزمّتة تقوم بها السلطة المدنية في شؤون العبادة تقود حتماً إلى شكل من أشكال

الزندقة . ولربما فطن حكام أثينة إلى هذا المحظور فحاولوا تلافيه بموقف وسط فأهملوا واقع الإيمان داخل النفوس (وهل كان بإمكانهم أن يفعلوا غير ذلك ؟) وحصروا اهتمامهم بالمظاهر الخارجية ، فكان سلوكهم مزيجاً من التحرّر والتعصّب ، ففشلوا لأن حرية الفكر والضمير تأبى أنصاف الحلول ، وأي عجب بعد هذا أن تصبح الممارسات الدينية أشبه بمن يحاول مضغ القشور معرضاً عن اللباب ؟وما أحسن ما وصف به أحد محدثي سقراط ، في إحدى محاورات أفلاطون ، تقوى سكان أثينة في تلك العصور ، حين قال : " إن دعامة التقوى تقضي على المصلّي والقائم على الأضاحي أن يعرف جيد الكلام فلا يخاطب الآلهة إلا بما يروق لها ، فبهذا يضمن الخلاص للأُسر والمدن " .

سقراط (+ ٣٩٩ ق.م.) :

شرب سقراط الشوكران تنفيذاً لحكم أثينة عليه بالإعدام ، فكان أشهر مَن ضحّى بحياته في التاريخ القديم صوناً لحرية الضمير .

ويُعتبر سقراط القمة فيما استطاعت الوثنية أن ترتقي إليه من استقامة وسموّ وتضحية .

أما في تاريخ الفلسفة فقد حقق أكبر ثورة عرفتها الإنسانية (١٣) : ففيه تبلورت التلمسات الروحية التي كانت تعتلج في أعماق الفكر اليوناني ، وعنده تفجّرت المياه التي كانت تنساب خفية عبر من سبقه من المفكرين ، وفيه تجلت الروحانية الإغريقية على أجمل صورة لها وأروعها .

نادى سقراط بالخير والعدل والجمال المطلق ، وأرجع إلى الألوهية مكانتها ، رغم تخرّصات الشكاك ، لتُصبح وحدها مقياساً لشؤون الحياة ، وبوّأ علم الأخلاق المكانة اللائقة به في سلوك البشر ، وشد قول فيثاغور بخلود النفس إلى الأخلاقيات ، بعروة وثقى لا انفصام لها ، وأعلن قدسية الضمير وأوجب الانصياع إليه ، وأكّد أفضلية القيم الروحية على كل كسب مادي ، وعلّم أن الجدير باهتمام الإنسان ليس أن يعرف ما يملك ، بل أن يعرف مَن هو ، وليس أن يعيش فحسب بل أن يعيش عيشاً صالحاً .

اعتاد سقراط أن يردد أمام سامعيه " أن صوتاً يتكلم في داخله وهو الذي يُملي عليه سلوكه فيرشده ويقيه العثرات " ، فاتّهم بأن تديّنه مغاير لمعتقدات أهل أثينة ، وأنه يُفسد أخلاق الشبيبة ويُبعدها عن آلهة آبائها ، وعند مثوله أمام القضاة قال بإباء واعتزاز : " إني أُفضّل أن أكون على خلاف مع كل الناس ، على أن أقع في تناقض مع

نفسي " . وبصدد حكم الإعدام الذي كان ينتظره أوضح لهم : " إنني لأقولها صريحة وبدون أدنى تكلّف ، إن الموت عندي أمر تافه لا يؤبه له " (١٤) .

وبعد صدور الحكم عليه بالموت قال للقضاة : " والآن ينطلق كل منا في سبيله ، وإن أمري سهل لأنكم أنتم الذين رأوا أني مستحق الموت ، أما أمركم فخطير جداً لأن الحقيقة قد لفظت فيكم حكمها على أنكم آثمون مضلّلون وظالمون " .

وفي السجن ، وبينما كان ينتظر الموت ، رفض الهرب رغم تضرعات تلاميذه ، وتأنيبه إياهم ، قائلاً لهم : "لا يجوز الرد على ظلامة بظلامة ثانية " .

وهل نستطيع إلا أن نقف بجلين تلك الوقفة الرجولية الخالدة مع شوقي القائل :

سقراط أعطى الكأس وهي منيةٌ شفتي محب يشتهي التقبيلا

أفلاطون (+ ٣٤٨ / ٧ ق.م.) :

كان أفلاطون الأشهر بين تلاميذ سقراط ممن آلت إليهم تلك التركة الغنية التي لم تُدوّن بمداد ، فأصبحت زاد أيامه وموضوع تفكيره ونبراس تآليفه . وإذا تتبّعنا آراء أفلاطون في محاوراته ، من كتاب " الدفاع عن سقراط " ، وهو من أوائل ما كتب ، إلى " النواميس " التي توفي عنها دون أن يضع عليها لمساته الأخيرة ، نرى أن تعليمه لم يتغير بصدد الإله وصلاحه واعتنائه بالبشر وواجب خضوع أنظمة الدول له ، والخلود الفردي للنفس والثواب والعقاب في المصير (١٥) .

وكانت الإلهيات شغل أفلاطون الشاغل طوال حياته ، فموضوعها يؤلّف عُشر كتاب " الجمهورية " ويملأ حيزاً كبيراً من كتاب " النواميس " .

ولا يمكن إغفال تلك المحاولة الفريدة في شرح الغنى الذي تحسسه في الألوهية المتعالية ، فميّز فيها الواحد والخير والسبب ، وصولاً إلى ما ابتغاه من تنزيه الإله عن كل غضن أو درن ، قال بوجوب وجود " ديموررج " (Demiurge) ، أي صانع أو منسّق يخضع للمُثُل ويتخذها نموذجاً له في تنظيم الكون (١٦) .

وهنا لا بد من وقفة ، قبل الانتقال إلى تقصير الوثنية في تعاليم الربوبية لنتساءل بحيرة مع إكبار : ماذا كان عساه أن يتوصل إليه هذا الفكر العملاق في شرح غنى الألوهية الفائق وتفصيله ، لو بلغته معرفة الخَلْق من العدم ،ووحدانية الله المطلقة في أزليته وأبديته ، ومحبة بارئ الكون للبشر ؟

أفلاطون وأرسطو ومنهج علم الربوبية :

يقف كل من أفلاطون وأرسطو عند عتبة مواضيع الألوهية مترددَيْن ، ويختلف سبب الارتباك عندهما تبعاً لتباين الطريقة التي اعتمدها كل منهما ، ولا غرابة بعد ذلك إذا انتهى أحدهما في آخر المطاف إلى نتيجة مغايرة عن نتيجة الآخر .

يقول أفلاطون في سياق حوار طيماوس ، واضعاً على لسان بطله قولاً موجهاً إلى سقراط : " ... فلا تَسْتغربن ، يا سقراط ، إذا لم نتوصل في كثير من المسائل المتعلقة بالآلهة ونشأة الكون إلى تقديم براهين متماسكة ومُحْكَمة من مختلف وجوهها ، لا بل نعدّ ذواتنا سعداء إذا تمكّنا من إعطاء براهين أكثر احتمالاً . وليذكر كلانا ، أنا المتكلم وأنت الحَكَم ، أننا بشر " (١٧) .

ويقول أرسطو : " إن معرفتنا الكائنات العليا والإلهية محدودة جداً ، لأننا نرى أن المعطيات الحسية التي توفرها الملاحظة منها في دراسة هذه المسائل المثيرة هي في منتهى القلة " (١٨) .

من هذين النصين نتبين بوضوح أهم فارق بين مؤسسَيْ الأكاديمية والليقيون في معالجة موضوع الإلهيات ، فإنّ أفلاطون يخشع أمام السر مقرّاً بعجزه فيلجأ إلى تفسير بعض التقاليد ذات المغزى البعيد ، ويستعين بالقصص الرمزية لتوضيح ما أعياه النطق به ، مكتفياً بالبراهين الأكثر احتمالاً . أما أرسطو فيريد كعادته ، بعد أن ترك الأكاديمية وطلّق الأسلوب الأفلاطوني ، أن ينهج حتى في الإلهيات نهجاً طبيعياً اختبارياً ، فيحاول أن ينطلق من الملاحظة ، وبديهي ألا يوصله ذلك إلى شوط بعيد .

إن ما يربحه أرسطو في العلوم ، بظاهرة اعتماده الحواس ، يخسره في الإلهيات ، مقابل ما يمارسه أفلاطون في ركونه إلى الحدس والحس الباطني والاستلهام ، لأنه إذا كانت نظرية المُثُل المتّبعة في الأكاديمية لا تصلح كمنطلق للوصول إلى معرفة الواقع ، فقد لا تخلو من حسنة وغنم عند تلمّس أسرار الألوهية ما دامت الوثنية قائمة بين الأغارقة وحتى يأتيها وميض من السماء ...

المحرك الأول عند أرسطو :

فطن أرسطو مع الزمن إلى وجوب تعديل أسلوبه الطبيعي في علم الربوبية ، وإننا لنرى عنده تطوراً ملحوظاً في فهمه وتعبيره عن صفات المحرك الأول .

ففي محاولة أولى وردت في كتاب " الطبيعيات " (١٩) أجهد أرسطو نفسه ليحفظ للمحرك الأول شكلاً من الترفّع الآلي عند تعيين موضعه ، فقال : " من الضروري أن يكون المحرك الأول إما في الوسط وإما على المحيط وفق أصول علم الفلك ، ولما كانت الأشياء الأقرب إلى المحرك تتحرك بسرعة أكثر ، وهذه سنة الحركة في الكون ، وجب أن يكون المحرك قائماً على المحيط " .

أما في المحاولة الثانية ، وقد جاءت في جزء اللام الشهير من كتاب"الماورائيات" (٢٠) ، فقد عدل السناجيري عن نظريته الآلية وتخطى معطيات العلوم الطبيعية وحقق الفصل بين المحرِك وما يتحرك مؤكداً " أن كل ما في الطبيعة يتحرك بقوة الشوق وبتأثير المحرك الأول " . وإذ قد أصبح المحرك الأول علة فاعلة وغائية ، أمسك أرسطو عن تعيين مكان له وقد اصبح الأمر غير ذي موضوع .

و لم يكتف أرسطو بهذه الرنّة الافلاطونية فيما بدّل فيه رأيه بل توغّل في الاتجاه الجديد ؛ ونجد في جزء اللام المذكور أجمل ما كتبه أرسطو عن المحرك الأول ، وسيكون لهذه النصوص المكانة الكبرى في العصر الهلنستي وما بعده بين الوثنيي وعند فلاسفة الأديان الموحّدة من يهود ومسيحيين . ولما كانت الفلسفة في العصور العباسية في أكثر أوجهها امتداداً للفلسفة الهلنستية فقد تبوّأ جزء اللام من " الماورائيات " شهرة واسعة تعدّت أندية الفلاسفة إلى حلقات المتصوفين ومجالس الأدباء والمثقفين .كما سنفصل الموضوع بشواهده في حينه .

يقول أرسطو في المحرك الأول : " انه الخير بالذات ، فهو مبدأ الحركة . وهو الذي نيطت به السماء والطبيعة " . " هو التعقّل القائم بذاته ، وحياته (في التعقّل) تحقق أسمى كمال ، ونحن لا نحياها إلا أوقاتاً قصاراً ، أما هو فيحياها دائماً وأبداً ، وعلى نحو أعظم بكثير مما يتفق لنا " .

وإذا تساءلنا عن نشاط هذا العقل المحض يجيبنا أرسطو : " إنه يعقل ذاته ولا شيء آخر " ، ويتابع : " فالعاقل فيه والمعقول والعقل واحد " ، وفي موضع آخر يزيد السناجيري معللاً : " وإذا عَقَل غيره فقد عقل أقل من ذاته وانحطت قيمة فعله ، فإن من الأشياء ما عَدَمُ رؤيته خيرٌ من رؤيته " (٢١) .

ملاحظات على نصوص أرسطو :

بلغ أرسطو في هذه النصوص قمة ما انتهى إليه في الإلهيات . أما النواقص فيها فخطيرة جداً وذات أبعاد ونتائج كثيرة ، منها انبثقت فِرقٌ وبدع وهرطقات وشيع أترعت العصور الوسطى في الشرق والغرب.و إنّ أقصى ما يمكننا فعله دون إطالة هو الاكتفاء ببعض الملاحظات على بعض المآخذ الأكثر أهمية :

١ - مامن خلاف في أن أرسطو قد أجاد وأبدع في وصف شق من الألوهية بقوله : " انه الخير بالذات " وبه نيطت السماء والأرض " .

أما قول الستاجيري : " إنه يعقل ذاته ولا شيء آخر " فقد قلّص نشاط الإله وبذلك نفى الإبداع [٢٢] (أي الخلق من العدم) . وهذا أمر يتلاءم واعتقاد الإغريق بوجود مادة أزلية إلى جانب أزلية المحرك الأول . وإذا كان أفلاطون رأى ضرورة وجود إله (دميورج) ينظم هذه المادة ، فأرسطو يرفض ذلك مكتفياً بالتوق الذي يتجه بالمادة نحو صورتها ، أي من القوة إلى الفعل ، وهدفها الكمال الأمثل المحض .

لم يكن من الممكن إيجاد حل لمشكلة أزلية المادة إلا بمفهوم الإبداع ، الملازم مفهومَ التوحيد المطلق . ولكن أنّى للشرك أن يصل إلى مبدأ متعال قادر على أن يُخرج ويرد من العدم وإليه كل ما يشاء ودونما جهد ، بينما كان من ثوابت الفكر اليوناني الاعتقاد " أن لا شيء يولد من العدم ولا شيء يرجع إليه " كما جاء على لسان ديوجين من أبولونيا [٢٣] في القرن الخامس ق.م. . ولقد كان أشبه بصدى له في القرن الثاني ب.م. قول الإمبراطور الرواقي مرقس أوريليوس (١٢٠ - ١٨٠) في كتابه "الخواطر" : " إني مكوّن من علّة صورية ومادة ، وما من واحدة من هاتين المادتين تذهب إلى العدم ، كما أنها لم تأتِ منه " [٢٤] .

٢ - ينتج ثانياً من تضييق حيّز تعقّل المحرك الأول وحصر ذلك في معرفة ذاته فقط ، بحجة تنزيهه ، إنكار عناية الله بمخلوقاته . فالمحرك الأول عند أرسطو متفرد في لا مبالاة مترفعة عن كل ما يجري خارجاً عنه ، وهذه الظاهرة أشبه ما تكون بأنانية البشر ، أو قل إذا شئتَ إنها أنانية متسامية .

٣ - وعلاوة على ذلك ، فإن معرفة الخلائق إلهَ أرسطو وعلاقتها به ذات اتجاه واحد صُعُداً ، وليس للمحرك الأول بالتالي تأثير في البشر ، سواء في الأخلاق أو في السياسة . فإله الستاجيري بعيد كل البعد عن الكون وبنوع أخص عن عالمنا ، عالم ما تحت

القمر . وإن هذه الغربة لتتجلى بقساوتها إذا ما رجعنا إلى ما تصف به الأديان الموجِدة الله " بأنه مالئ السماوات والأرض " .

٤ – وإذا كان إله أرسطو لم يُبدع العالم وهو لا يسوسه ولا يعرفه ، فهل من الممكن قيام علاقة حب أو صداقة بينه وبين البشر ؟

يجيب أرسطو : " أليس من أبعد المستحيلات أن يقال عن امرئ أنه يُحب الإله زَفْس ؟ " (٢٥) .

وفي موضع آخر : " إنه لمثير للسخرية أن يُعتب على الإله لأنه لا يُحِب كما يُحَب " (٢٦) .

ويعلل الستاجيري الأمر شارحاً : انه من متطلبات الصداقة الحقيقية حصول تبادل في المودة ، وهذا ممتنع وجوده مع الإله ، لأن تنزيهه يحول دون تفكيره بغير ذاته ، أضف إلى ذلك أنه ليس مثل البشر بحاجة إلى صديق لكمال سعادته ....

حول أسس علم الإلهيات عند أرسطو :

إن الملاحظات التي مرّت بنا تناولت بعض نتائج النصوص الأرسطية التي ذكرناها في وصف المحرك الأول ، غير أن هناك معضلات تعاورت مبادئ إلهيات الستاجيري ذاتها ، (٢٧) ومردّ أكثرها إلى خلو علم الربوبية عنده من فكرة الإله البارئ ، التي لم تصل إليها الوثنية . فكيف مثلاً يُمكن التوفيق بين العلة الغائية الثابتة في سرمديتها والظاهرات الطبيعية الباقية في حتميتها مع التغيرات التي تتناولها ؟ ولعل أشدّ مأساة عاناها أرسطو في روحه كانت تلك الثنائية التي بقيت تتنازع تفكيره دون هوادة ، وتُلخّص بالتساؤل عن قوام الألوهية : هل هي مبدأ موحّد متفرِّد أم هي نزعة وثُوب منتشرة في الكائنات ؟

وإذا كان تفكير الستاجيري لم يسترح إلى " آلية " المحرك الأول كما وردت عنده في كتاب " الطبيعيات " ، فاضطر إلى أن يستعيض عنها " بغائية التوق " ، كما مرّ بنا ، فهل استكان عقله إلى هذا الحل الأخير رغم ما يعوزه من وضوح في شكل فعاليته ؟ وإذا كانت هذه " الغائية " لا ترضينا اليوم ، ولربما مردّ ذلك إلى ما عرفناه عن أمر الإبداع عند الله ، فمن المشكوك فيه جداً أن يكون أرسطو عرف الطمأنينة عندما جمع بين اللانهاية الزمنية والأبدية الإلهية دونما رباط عقلي مقبول ...

ثم ما القول بكل ما يصف به الستاجيري الإله ؟ علـى أنـه " يعقـل ذاتـه " ، وأنـه " حي " ، وأنه " الصورة التامة " ، وأنه " العقل المحض " ؟ أليس كل ذلك سوى حصيلة ما جنته حواسنا من مفاهيم قاصرة محدودة ؟ فكيف تُنسب إلى من تضيق به السـماوات والأرض ؟ وما يقال هنا عن علم الربوبية الأرسطي يمكن تعميمه علـى كـل مـا يـرد في علم الإلهيات ، حتى لتصبح كل أقوال البشر في ذاتِ الإله ، ثرثرة وهراء . فـالقول عـن الإله : إنه يعقل ذاته لا يخلو من تثنية ، وكلمة الحيـاة تشـير إلى الـزوال ، والصـورة إلى الأصل ، والعقل إلى التبدل ، الخ ...

وإننا إذا أضفنا ما عددناه من مآخذ على نصوص أرسطو إلى ما نقوله الآن ، وجدنـا علم الربوبية عند الستاجيري تتقلص أُطره ، ولربما تساءلنا عن قـوام هـذا العلـم عنـده . وما أحسن ما استنتجه أميل برييه [٢٨] في آخر درسه علم الربوبية عند أرسطو فقال : " إن الستاجيري لم يكن يهدف إلى معرفة الله بـل إلى وجـود مبـدأ أول يضمـن وحـدة الكون " .

أصل اللاهوت السلبي :

كان مـن المحتـم علـى أرسـطو أن يصـل إلى هـذا الـدرب المسـدود في اتّباعـه طريقـة " المعطيـات الحسـية " والبرهـان المنطقـي الاستـدلالي في علـم الإلهيـات . لقـد رفـض الستاجيري الأخذ بأسلوب أفلاطون ، و لم يشأ أن يسـتعين بـالقصص والصـور الرمزيـة التي بضبابية أطرها وغموض معانيها تفسح المجال لحدس العقل أو على الأقل للتخمين .

وكـان مـن حسـنات أسـلوب أفلاطـون انـه تـرك بـه لذاتـه البـاب مفتوحـاً للتلميـح والتدليل ، وأغناه عن كل محاولة لردم تلك الهوّة الثابتة التي تعترض المخلوق على الـدوام كلما سعى إلى معرفة ذات الإله .

وبعد المحاولة الأرسطية أصبح لزاماً على كل من أراد أن يتبـع طريقـة السـتاجيري أن يعالج كل نعت تُنعت به الألوهية عنده ، فيشذّبه ويجرّده من كل نقـص في مفهومـه ثـم يُصَعّده ، ليُفقده ما أمكن من عدم أهليته ، فيصبح قريباً بعض القرب مما يمكن أن يقـال في سمو الربوبية ، وللستاجيري الفضل الكبير لاتباعه الأسلوب العقلاني ، إذ عبّد الطريق للأخذ بهذا المنهج السلبي الجديد .

وكان أفلوطين (+ ٢٧٠ بعد المسيح) أكبر الوثنيين الآخذين على مدى واسع بهـذا الأسلوب في البحث ووصف الألوهيـة ، بعـد أن تـأثر بالأفكـار الـتي تسـرّبت إليـه مـن

اليهودية والمسيحية في الإسكندرية . وأتى بعده القديس غريغوريوس من نيصص (+ ٣٩٥) الذي أسهم إسهاماً كبيراً في تقويم معرفة الألوهية على نور الإنجيل ، فقد عمد إلى تنقية التعاليم الرائجة آنذاك مما علق بها من مفاهيم مغلوطة تسرّبت إليها من الافلاطونية الجديدة ومن العرفان (الغنوص) ، عبر التيارات الاوريجينية القائلة بشرّ المادة المطلق .

وتطور أسلوب أفلوطين على يد بروقلس (+ ٤٨٥) وإليه ينسب كتاب " الثيولوجيا " الذي نقله إلى العربية أبو عثمان الدمشقي . ولما كان هذا المؤلّف الأخير يُعزى إلى أرسطو في ذلك الوقت، فقد لعب دوراً حاسماً في التشويش على الفلاسفة العرب وجعلهم يخلطون بين الأرسطية والأفلوطينية .

وتأثر بمؤلفات بروقلس كاتب سرياني مجهول يعرف باسم هو "منحول ديونيسيوس الاريوباجي " (القرن السادس ب.م.) ، حظي بمقام رفيع في علم اللاهوت المسيحي . وهكذا بقي هذا الأسلوب السلبي (٢٩) في النصرانية يُحسَن ويُتناقل في الكنيسة الشرقية قبل أن يصل إلى الغرب حيث أُخِذَ به في المدارس والجامعات عند دراسة الفلسفة واللاهوت .

ولا بد من الإشارة منذ الآن إلى الفارق الكبير في منطلق هذه الطريقة ودواعيها ونتائجها عند الوثنيين والمسيحيين ، فقد غيرت النصرانية في أُسسها وتطبيقاتها ،كما سنبين ذلك عند دراسة الافلوطينية ، وسنعرّج على مَن ذكرنا من الرجالات ، وثنيين ومسيحيين ، في هذه المقاطع الأخيرة .

الحواشي :

١ – Pierre DEVAMBEZ et coll . : Dictionnaire de la civilisation grecque . Hazan p . 247

٢ – HÉRODOTE : Histoire I , 31 , I

٣ – هوميروس : الاوذيسية ، النشيد ١١ ، البيت ٤٨٩ ـــ ٤٩١ . ورد هذا القول مع انتقاد أفلاطون له في الجمهورية ، الجزء ٣ . المقطع ٣٨ حـ ، (صفحة ٣٨٦ من طبعة بوده) .

٤ – C . MOELLER : Sagesse grecque et paradoxe chrétien , Casterman , pp . 47 ss .

٥ – T.R. DODDS : Les Grecs et l' irrationnel , Aubier , pp . 13- 30 .

٦ - E . DES PLACES : La religion grecque , Piccard , p . 179 .
٧ - L. ROBIN : La Pensée Grecque , Albin Michel , p . 28 .
La morale antique , pp. 3 - 5
وهو ملخص لما ورد عند المؤلف نفسه في كتابه الآخر
٨ - DES PLACES : op . cit ., p. 184 .
٩ - DES PLACES : op . cit ., p . 217
١٠ - J . CHEVALIÈR : Histoire de la pensée , I , pp . 197 et 636 , n . 92
١١ - FESTUGIÈRE : Études de Religion Grecque et Hellénistique , vrin , p . 132 .
١٢ - R . Flaaceliere : La vie quotidienne en Grèce , Hachette , p . 238 .
ويمكن مراجعة أهم ما جعله اريستوفان موضوع سخريته من أسرار الوزيس وممارسات التطبيب في معبدي اسقليبيوس في البيرة (مرفأ أثينة) وفي مدينة ابيدور (في الموره) عند :
DES PLACES : op . cit ., pp . 230 - 238 .
١٣- J . CHEVALLIER : op . cit ., I , p . 143 .
١٤ - أفلاطون : الدفاع عن سقراط ، ٣٢ د .
١٥ - PLATON : Les Lois , VI , 715 ss .
١٦ - اختلفت الآراء في تفسير التفاصيل ، وبعضها مهم جداً ، عند شرح التباين في قول أفلاطون في كل من كتابَيْه " فيليب " و " طيماوس " ، واننا أخذنا في قول أفلاطون بالشرح الأكثر شيوعاً . راجع شرح فستوجير :
FESTUGIÉRE : Contemplation et vie contemplative selon Platon , 4 eme ed Vrin , p . 205 .
١٧ - PLATON : Timée , 29 (éd . Budé) p. 142 .
١٨ - ARISTOTE : Parties des animaux I , Par 5 , 644 b , (Budé p . 17) .
١٩ - ARISTOTE : Physique , VIII , b , (Budé p . 142) .
٢٠ - أرسطو : الماورائيات : جزء ل ، ٧ ، ١٠٧٢ ، الف ؛ ويحسن الرجوع إلى :
AUBANQUE : H. de la Philosophie , I , Pléiade , p . 654 .

٢١ - إن النصوص الأرسطية المذكورة في المقطعين الأخيرين والمنقولة إلى العربية وردت عند الأستاذ يوسف كرم في كتابه " تاريخ الفلسفة اليونانية " ص ١٨١ (الطبعة الخامسة) ، فاعتمدنا نصّها شاكرين .

٢٢ - نحن مع الأستاذ جميل صليبا في وجوب التفريق ، أقلّه في الفلسفة ، مراعاة للدقة ، بين الخَلْق (إيجاد شيء من شيء) والابداع (إيجاد شيء من لا شيء) . وقد جاء في القرآن القول : " بديع السماوات والأرض " عن الله ، ولم يقل بديع الانسان لأنه خُلق من تراب . (جميل صليبا : المعجم الفلسفي ،الجزء الاول ، ص ٣١) .

ونذكر بهذه المناسبة ، أن فعل بـرأ في اللغة العربية يدل أيضاً على الابداع ومنه ترديدنا " البارئ تعالى " . والفعل هذا يقابل الكلمة نفسها، و بالصيغة نفسها، ما ورد في أول فقرة من سفر التكوين باللغة العبرانية : (برشيت براءَ اللوحيم)

٢٣ - D . DE LÁERCE : Vie ..., II , p . 188

٢٤ - MARC - AURÈLE : Pensées , 2 , 2 .

٢٥ - ARISTOTE : Gr . Mor ., II , 11 , 1208 b , 30 .

٢٦ - ARISTOTE : Mor . Tud ., VII , 3 ,1238 b , 36 .

٢٧ - J . CHAVALIER : op . cit ., I , pp . 345 ss ., avec notes et appendice .

٢٨ - E .BREHIER : Histoire de la philosophie , I , 1 , P.U.F ., p . 125 .

٢٩ - J . MEYENDORFF : Initiation à la théologie Byzantine , Cerf , p . 20 .

الباب الثالث

نمازج العبادات بين الشرق والغرب

فصوله :

الفصل الأول : أفلاطون وعبادة النجوم .

الفصل الثاني : أرسطو وعبادة النجوم .

الفصل الثالث : الهرمسية وأثرها في العصر العباسي .

الفصل الرابع : نظرة إلى الخيمياء عند العرب .

الفصل الأول :

أفلاطون وعبادة النجوم

سومر وبابل والنجوم :

إنّ ما نسمّيه اليوم بالعلم " البابلي " ليس في أساسه وأكثر تطبيقاته سوى العلم السومري ، الذي أخذ به الأكاديّون لّما قامت دولتهم على زمن شوركين (سرغون الأكادي) في منتصف الألف الثالث ق.م. ، وعنه أخذ البابليون في النصف الأوّل من الألف الثاني ق.م. عندما وحّد حمورابي ، الملك البابلي السادس ، القسم الجنوبي من بلاد ما بين النهرين ، واتّخذ بابل عاصمة له ، وتبنّى البابليون بعد الأكاديين الخط المسماري السومري وعبّروا سمعياً بواسطة رموزه الكتابية عن لغتهم ، وحذت حذوهم الشعوب التي تسلّطت على بلاد ما بين النهرين حتى زمن الفتح الإسكندري . وبقيت اللغة السومرية لغة الدين والعلم ، فكان على الكهّان والكتبة والمفكّرين ، بعد أفول دويلات السومريين ، أن يتقنوا السومرية إذا ما أرادوا الوصول إلى ينابيع المعتقدات والعلوم [١] . وأسهمت الحضارة البابلية (السومرية) إسهاماً واسعاً في تقدّم العلم ، وكانت الرياضيات أبهى وجه تجلّت فيه . يؤكد ذلك العالمان تورو دانجان ونغباور [٢] ، اللذان فكّا رموز مئات الألواح البابلية العائدة إلى مسائل حسابية تعود على الأقل إلى عام ٢٥٠٠ ق.م. ، فقد عثرا في تلك الرُّقُم على عمليات تمتُّ بصلة إلى معادلات جبرية من الدرجة الأولى والثانية بل حتى السادسة . وأثبت جاندس [٣] أنّ كلمتي " الجبر والمقابلة " المستعملتين في اللغة العربية ليستا سوى ترجمة للفظتين بابليتين هما ، جابرو ـ ماهارو : ويؤكّد بيار روسّو [٤] أنّ السومريين عرفوا نظرية مربع وتر المثلّث ذي الزاوية القائمة ، التي نُسبت بعد ألف وخمسمائة سنة إلى فيثاغور [٥] .

وعلى هذا الأساس الراسخ من الرياضيات المعتمدة النظام السّتيني رصد العلماء البابليون ، بالرغم ممّا عرفوه من النسق العشري ، الأجرامَ السماوية باهتمام فاق ولا شكّ جهود كل الشعوب القديمة ، فأتقنوا معرفة جري الكواكب وحركات النجوم وزمن ظهورها وأفولها ، وعرفوا مسبّقاً وبدقّة مرضية زمن كسوف الأجرام السماوية وخسوفها .

ومنذ الألف الرابع ق.م. عيّن السومريون أشهر السنة ، وفي مستهلّ الألف الثاني [٦] جعلوا أيّام السنة ٣٦٠ يوماً (٦٠ × ٦ = ٣٦٠) وأدخلوا عليها فيما بعد إضافة حسابية ليجعلوا الحول يتوافق مع فصول السنة ، بسبب اعتمادهم الأشهر القمرية ، وتمكّنوا من رصد نجم عشتار (الزُهرة) ابتداءً من سنة ١٦٥٠ ق.م. ،وقسموا اليوم الفلكي (النهار مع الليل) إلى ١٢ ساعة [٧] ، وجعلوا البروج ١٢ ، كما تعتمد اليوم في الفلكيات والكشف عن الطالع ، وجعلوا لكل شهر رمزاً حيوانياً على أساس ما تصوّروه في المجموعات النجمية ، وجعلوا لكل شهر اسماً ونذروه لأحد آلهتهم . وإلى اليوم نستعمل في اللغة العربية ٧ من أسماء شهورهم [٨] على الأقل .

وذاع صيت مدارس السومريين الفلكية ،وكان أشهرها قائماً في مدن أوروك (الوركاء) ، وسپّار وبُورْسِيبّا ،وبقي عدد منها يعمل حتى بعد زوال الدولة السلوقية إبان التسلّط الروماني .

وعبد البابليون منذ القِدَم ، بين ما عبدوه ، الكواكب والنجوم ، آخذين الكثير من السومريين . ولا يُستبعد أن يكون للعنصر السامي الآتي من شبه جزيرة العرب تأثير في توجيه الديانة المحليّة توجيهاً حاسماً نحو عبادة النجوم . وكانت أكثر أعياد البابليين الدينية مرتبطة بظهور بعض الأجرام السماوية أو بأفولها ، فالاعتدال الربيعي مثلاً كان يرمز عندهم إلى انتصار الشمس على قوى الظلمة ، وكانوا كذلك يُعيّدون كلما هل هلال .

مصر وبابل والإغريق :

لتبسيط الموضوع يمكننا أن نبدأ باستبعاد التأثير المصري الفعّال في اليونان في تلك الحقبة التي نُركّز عليها اهتمامنا ، أي بدءاً من القرن السادس ق.م. ، يوم أخذت تتجلى معالم الفلكيات عند اليونان . ومرد ذلك أنّه في تلك الحقبة بدأ إشعاع مصر العلمي آخذاً بالخبوّ منذ قرون بعد تقلّص سيطرتها العسكرية على الشرق الأدنى ، ما بين القرنين السادس عشر والثاني عشر ق.م. .

وعرفت مصر خلال الألف الأخير ق.م. ، بين ١٠٦٠ ــ ٢٣ ق.م. ، عشرة قرون كانت فيها ضحية احتلالات متتابعة ، حبشية وآشورية وفارسية (مرّتين) ، حتى الاحتلال المكيدوني بقيادة الإسكندر الكبير سنة ٣٣١ ق.م. ، وقد دام حتى تسلّم الرومان الحكم تماماً فيها سنة ٣٠ ق.م. .

وكانت مصر بعد كل احتلال تقوم بانتفاضة تحررية مستعينة أكثر من مـرّة بالمرتزقـة اليونان ، يتبعها وشيكاً قمع واحتلال جديدان ، فلم يُعط لها الزمـن الكـافي للـمّ شعثها وتضميد جروحهـا بصـورة مجدية . أضـف إلى ذلـك أنّ الـنزوع إلى التقليـد الرتيـب والتمسّك بالمألوف قد تفاقما مع الزمن بعـد خمسـة قـرون مـن التـألّق ، بـين ٢٦٥٠ ـ ٢١٩٠ ق.م. ، على عهد مـا يُعـرَف بالسـلالات القديمـة ، وفيـه أعطت مصـر مثَلَهـا الحضاري في الفن المعماري والطبابة والتحنيط وشغل المعادن والتقويم الزمني ، إلخ ...

أمّا تأثير الفلكيات السومرية ـ البابلية في الإغريق فكان ضئيلاً ، لأنّ هذا العلـم كـان يعتمد عند اليونان الأسلوب الهندسي ، بينما أُقيم عند البـابليين علـى طريقـة حسـابية ، لكن لامناص من التسليم بأنّ اليونان أخذوا عن الكلدانيين عدداً مـن المعلومـات الأوّليّـة العملية ، مثل دائرة البروج بأجزائها الاثـني عشـر ، وعـدد سـاعات النهـار ، ومجموعـة أرصاد غطّت عدّة قرون وحوت عدداً كبيراً مـن مسـائل الكسـوف والخسـوف ، كمـا أخذوا ما سيُبتلى به الشرق والغرب بعد الفتح الإسكندري ، ونقصد بذلك آفة التنجيم الكبرى وما يستلزمه من اعتقاد بالجَبْرية والسحر (٩) .

مراحل الفلكيات عند اليونان :

من المؤسف أنّ أكـثر المتكلّمـين عـن طـالِس الميلـي (+ ٥٤٨ ق.م.) يشـيرون إليـه بشيء من الاستخفاف ، لأنه رأى في المـاء العنصـر الأساسـي الأوّل للمـادة ، وإذا مـا أرادوا مدحه ذكروا أنّه ـ استناداً إلى لوائح الرصد البابلي ـ كان أوّل من أنبأ بين اليونان عن خسوف الشمس (الذي حصل في ٢٨ من أيّـار سنة ٥٨٥ ق.م.) . أمـا أرسـطو (+ ٣٢٢ ق.م.) فيقول عنه : " إنّه حدّد مسـألة المـادة " ، ويضيـف تيوفراسـت (+ ٢٨٧ ق.م.) إلى ذلـك قـائلاً : " إنّـه بـاعث الدراسـات الطبيعيـة " . فمـن هـاتين الشهادتين الصادرتين عن عالِمَين من هذا الوزن يبرز مقام طالس الرفيع أمـام مـن يُريـد إنصافه وإعطاءه حقّه في ميدان الفكر .

كـانت المعـارف اليونانيـة طـوال القرنـين السـابع والسـادس ق.م. في أوّل تلمّسـاتها وتمتماتها ، وكان بدهياً أن يُخطئ الباحث مرّات قبل أن يوفّق بواحدة ، فالأهمّ في نظر العلم لا يُقدّر أويقاس بالنجاح الآني العاجل ، وإنما بـالنهج وبالطريقـة العلميـة المتّبعـة ، التي تضمن الوصول ، ولو بعد حين ، إلى نتائج أكيدة .

إنّ الخدمة الكبرى التي أسداها طالس للعلم تتجلّى فيمَا أظهره بين معاصريه من مقدرة على التجريد ، وفضله قائم على أنّه كان الأوّل - على ما نعلم - ممّن حاولوا إرجاع تعدّد ظاهرات الطبيعة المختلفة إلى مبدأ واحد ، فكانت محاولته أوّل جهد قام به العقل لشرح الكون انطلاقاً من معطيات قائمة فيه . فلقد رفض الأخذ بالخرافات الكوزموغونية الوثنية ، وكان المؤسّس لبوادر العلم اليوناني إذ نادى بأن بمقدور الفكر فهم العالم وشرح ظاهراته بأسلوب عقلي محض .

ومعروف أنّ روّاد الحركة العلمية اليونانية لم يكونوا يفصلون بين الفلسفة والعلوم . كما أنّهم كانوا يخلطون بين علم نشأة الكون (الكوزموغونية) وعلم وصف المظاهر (الكوزمولوجية) ، فأتت نظرياتهم كما أتى شرحهم مزيجاً من هذين العلمين معاً . ولّما كان العلم في أوّل فتوحاته صعباً شاقاً فليس بمستغرب أن يكونوا أتوا بتحسّسات ساذجة وتخيّلات غريبة ، بل العجيب حقاً - وليس بين أيديهم سوى وسائل بحث بدائية - أن يكونوا تفوّهوا بفرضيات فلكية مدهشة أثبت العلم الحديث صحّة بعضها ، بينما لا يزال البعض الآخر إلى اليوم موضوع تساؤلاتنا : فطالس قال إنّ طبيعة القمر مثل طبيعة الأرض ، وإنّ كوكب الليل يستمدّ نوره من الشمس ، ولاحظ أنّ مجموعة الدبّ الأصغر أكثر دقّة في اتّجاهها نحو الشمال من بقية مجموعات السماء ، وأدرك أنا كْسيمَنْدر (+٥٤٧ ق.م.) انحناء الأرض وأنّها معلّقة في وسط الفضاء ، وَرأى أنّ أصل الأحياء من طين رطب مُزج فيه التراب بالماء ؛ وأثار أنا كْسَاغُوْر (+ ٤٢٨ ق.م) سخط الاثينائيين عليه ، بقوله : إنه لا نفسَ للنجوم ، وإنّ القمر من طبيعة الأرض ويحوي جبالاً ، فسُجن للمحاكمة ، ولولا حماية بِيْرِكْلِسْ الذي سبق أن تتلمذ عليه ، لما تمكّن من الفرار هرباً من الموت الذي كان ينتظره . ولأناكساغور يرجع الفضل في محاولة توجيه أفكار معاصريه إلى الناحية الميكانيكية في علم النجوم ، وهو القائل في مضمار المادة أن لا حدّ لقابلية انقسامها ،كما أنّه لا حدّ للصغر في هذا الانقسام [١٠] .

فيثاغور (+ ٥٠٠ ق.م.) :

هو ولا شكّ أعظم من سائر الفلاسفة الذين سبقوه وعاصروه ، إذ تخطّت تحقيقات عبقريته العلمية ونزعته الصوفية الأجيال إلى اليوم - ونحن دون الدخول بتفصيل إنجازاته

الفذّة في الحساب والهندسة والفلكيات ـ نكتفي بالإشارة إلى أمرين هما من الأهمية بمكان فريد :

الأوّل هو أنّه في المجال العلمي جعل للأعداد أهميّة فاقت كل تصوّر ، إذ اعتقد أنّها المفتاح الوحيد لشرح ألغاز ظاهرات الكون ، فكان بذلك أكثر بعداً عن المحسوس (الدرجة الثانية في التجريد) إذا ما قورن بالمدرسة اليونانية ، وأكثر توغّلاً في المثاليات من كل مَن سبقه . فلقد حقّق خطوة تطبيقية رائعة للأعداد عندما نجح في تحويل الفارق النوعي إلى فارق كمّي في النغم (١١) ، لكنه غالى ولا شكّ عندما أراد تعميم ما وصل إليه في حدسه على ظاهرات الكون الأخرى ، فقد زعم أنّ على الأجرام السماوية أن تكون بحجمها وسَيْرها على استدارة كاملة ، بحجّة أنّ الدائرة الكاملة – كما اعتاد أن يقول – هي الشكل الهندسي الأفضل واللائق بالآلهة ، وأنّ على النجوم أن تتوضّع في الفضاء على مسافات فيمّا بينها ، كما توضع العلامات الموسيقية على سُلّم الأنغام ، حفاظاً على التناسق الكوني العام ، إذ إنّ علم الفلك وعلم الانسجام في الموسيقى عند الفيثاغوريين علمان شقيقان (١٢) كما شهد لهم أفلاطون بذلك .

وأورد أرسطو رأياً عزاه إلى الفيثاغوريين جاء فيه : " إنّ العدد مبدأ الأشياء كلها " . ونلاحظ أنّ الستاجيري يتحاشى عادة ، كما فعل هنا ، ذكر اسم فيثاغور ، لصعوبة التمييز بين آراء المعلّم وما أتى به تلاميذه ، عملاً بمبدأ السرّية القائمة في جماعات الفيثاغوريين . ومن المرجّح أنّ القول المذكور هو لفيثاغور نفسه ، إلاّ أنّه يُعْطَى تفسيرات مختلفة . ومن المثير حقاً أنّه ورد على لسان تِيَانُوْ ، زوجة فيثاغور وتلميذته ، تفسير لربّمَا كان الأقرب إلى المعقول من أيّ تفسير سواه . تقول : " إنّ فيثاغور لم يقل إنّ الكل يأتي من العدد ، بل إنّ الكل يتكّون طبقاً للعدد ، لأنّ في العدد النظام الأساسي " (١٣) . ونحن نقول بدورنا : إذا صحّ القول ، وصحّت النسبة ، وصحّ التفسير ، يكون فيثاغور قد تحسّس ولو بصورة مبهمة جداً ، ما كشف عنه آخر إنجازات العلم الحديث (عدد عناصر الذرات المختلفة مثلاً) .

والأمر الثاني أن فيثاغور استطاع بنزعته الدينية أن يجعل علم الأعداد والنغم متّكأً ارتقى منه إلى الماورائيات ، فأوضح الفارق الجوهري بين الجسد والنفس ، وأكد بيقين المتصوّف خلود النفس ، وعلّم أنّ بغية الإنسان في الحياة الاتّصال بالألوهية .

وقد ظل تأثير فيثاغور عميقاً واسعاً عبر العصور ، فخالطت التساؤلات الدينية الفلسفة اليونانيّة كلّها ، قليلاً أو كثيراً ، سلباً أو إيجاباً ، عند أعظم ممثّليها ، وكثيراً ما

امتزجت بها وتلوّنت بصوفيتها في آخر عهودها قبل زوال الوثنية ، وهل من حاجة إلى القول إنّ فيثاغور غالى كذلك في تصوّفه ، فاعتبر هدف الفلسفة التخلّص من الجسد ، وغاية الفيلسوف الوحيدة الاستعداد للموت ، وساوى بين الجسد والقبر في قوله المأثور : " إنّ الجسد قبر النفس " (١٤) ، فغدا تعليمه هذا ، في تحقير الجسد والمادة ، أشبه بمنحدر انزلق فيه أتباعه المتأخّرون إلى شطط مروّع عند ظهور الفثاغورية الجديدة حول القرن الأوّل ق.م. ، عندما واكبت التعاليم الهرمسية المتطرّفة هذه الفيثاغورية المتأخّرة ، ثمّ تبعتها الأفلاطونية المستَحْدثة التي جرّت أتباعها إلى الإيمان بالغرائب (١٥) وإلى الممارسات التِيوصوفية والتِيورجية ؟

أفلاطون (+ ٣٤٧ ق.م.) :

كان أفلاطون أكبر الفلاسفة الذين بلغ بهم التأثّر بالفيثاغورية شأواً بعيداً ، وقد كُتب الكثير في هذا الصدد ، وفيه الغثّ والسمين . وإنّنا سنحاول حصر هذا الموضوع المعقّد والشائك في أُطُر واضحة قدر الإمكان .

من المؤكّد أنّ إعدام سقراط ظلماً في أثينة كان الحدث الأعظم الذي زلزل حياة أفلاطون في أعماق كيانه فتيقّن – وهو من سلالة صولون (+ ٥٥٨ ق.م.) مُشَرِّع أثينة الأكبر من جهة أُمّه ومن أرومة آخر ملوكها من جهة أبيه – أنّه لا بدّ من إصلاح جذري لردّ أثينة ، تلك المدينة الظالمة ، إلى الصواب بعد أن غرقت في حكم الغوغائية واحتضنت المجرمين المفسدين ، فحكمت بالإعدام على المعلّم الأمثل الذي كان أفضل من دعا إلى الصلاح ، وتيقّن أفلاطون كذلك أن لا شيء غير الفلسفة قادر على أن يهدي إلى محجّة الصواب ، ويعلّم ممارسة العدل في إدارة الجماعة والأفراد (١٦) ، وبات من الثابت لديه أنّه لا بد من أن يكون الفيلسوف حاكماً أو أن يصير الحاكم فيلسوفاً ، وقد ركّز فيمّا بعد على هذه الفكرة بوضوح في كل من " الجمهورية " " السياسة " و " الشرائع " .

وابتعد أفلاطون عن أثينة ، موضوع سخطه ، وبقي قرابة اثنتي عشرة سنة يتجوّل في أطراف بلاد البحر المتوسّط ، فذهب إلى مصر (١٧) وأخذ عن كهّان مدينة سايس التقاليد المصرية في علم الفلك ، ثمّ عرّج على كيرينيا (ليبيا اليوم) حيث تبع تعليم الرياضي الكبير تيودور الكيريني ، ثمّ قصد بلاد اليونان الكبرى (إيطاليا الجنوبية) ، فتبحّر بالتعاليم الفيثاغورية فوق ما كان قد قبس من مبادئها عن معلّمه سقراط ، كما

اطّلع على الفيزيائية الرياضية على يد أرْخيتاس الفيثاغوري من مدينة طارنت . وفي صقلية مُني بأوّل خيبة أمل في السياسة قبل أن يرجع إلى أثينة ليؤسّس سنة ٣٨٧ أكاديميته التي أرادها أشبه بجامعة للبحث والتعليم ، وشقّ الطريق أمام الطلاّب الذين ألّبهم حوله بهدف إصلاح المجتمع بواسطة العلم والفلسفة .

وبقيت علاقات أفلاطون بالفيثاغوريين راسخة حميمة . وهناك تقليد متواتر يشير إلى أنّ أفلاطون اشترى (١٨) بمبالغ طائلة من فِيلُولاُوس ، تلميذ فيثاغور ، مؤلّفات المعلّم السرّية ، كما ألمحت بعضُ الألسنة الخبيثة إلى أنّ أفلاطون استخرج من هذه المؤلّفات كتاب " طيمَاوس " الذي يُعدّ بحقّ أغرب ما كتبه مؤسّس الأكاديمية ،ويُضيف أرسطو في " الماورائيات " ، بتورية لا تخلو من طعن : " إنّ الفارق الوحيد بين أفلاطون وفيثاغور مقتصر على مصطلحات التعبير " .

ومهما يكن من هذه الأمور ، فالعناصر الفيثاغورية ظاهرة ، وتأثيرها واضح في أكثر من محاورة . نذكر ، على سبيل المثال لا الحصر ، " فيدون " و " غورجياس " وبنوع أخصّ " كريتياس " و " طيمَاوس " و " الشرائع " .

وننتقل الآن إلى سؤالين ملحّين حول الموضوع الذي نعالجه ، الأوّل : على من اعتمد أفلاطون من الفلكيين لإقامة نظريته في عبادة النجوم ؟ والثاني : ما مدى تأثّر أفلاطون بثنائية الفرس ، وهل بقيت هذه الثنائية عنده واحدة في مؤلّفاته ؟

إذا كان الجواب على السؤال الأوّل سهلاً نسبياً ، فالجواب على الثاني بشقّيه يتطلّب منّا معرفة تسلسل تاريخ محاورات أفلاطون ، وإذ ذاك نتمكّن من رسم الخط البياني لكل تأثّر عنده .

تاريخ مؤلّفات أفلاطون :

لقد استغرقت محاولة معرفة التسلسل الزمني لمؤلّفات أفلاطون قرابة القرن ، وكان ذلك عملاً دقيقاً شاقّاً ، تضافرت فيه جهود أساتذة الفلسفة والتاريخ وفقهاء اللغة وعلماء البيان . وكان أوّل ما قام به هؤلاء أن فرزوا الأسماء والتعليمَات والتلميحات التاريخية والدلائل التي تشير إلى تداعي الأفكار في بعض نصوص المؤلّفات الستة والثلاثين الأكيدة فيمَا بينها .

وكانت أهمّ الضوابط التي اعتمدها العلماء الانطلاق من كتاب " الشرائع " على أنّه آخر مؤلّف لأفلاطون فَقَمَّشوه لغوياً آخذين بأحدث أساليب النقد الداخلي ، ممحّصين

المفردات والتراكيب وأساليب التعبير وأوجُه البيان والبديع ، كما درسوا زخم الآراء التي وردت فيه ، واعتمدوا تواترَ وجود هذه البيّنات معياراً لأقدمية التأليف ، وندارتَها مؤشّراً للعودة ثانية للفرز بين ما وضعه أفلاطون شيخاً وكهلاً وشاباً ، وبالطبع لم يحظَ الترتيب الذي توصّل إليه العلماء بقبول إجماع النقّاد ، لكنّه يعتبر - ولا مشاحة - الوثيقة الأقرب احتمالاً لمعرفة تسلسل مؤلّفات أفلاطون بفارق ضئيل من السنين في حال وجوده .

أفلاطون والفيثاغوريون :

وتبدّد شمل الفيثاغوريين عقب كارثة كْرُوتُون التي على الأرجح قتل فيها فيثاغور ، وهبط بعض علماء المدرسة إلى اليونان وحاول بعضهم التجمّع في بعض مدن جنوبي إيطاليا وصقلّية دون أن يبلغوا في ذلك شأواً بعيداً . ونحن وإن كنّا لا نريد تتبّع أثر أفراد هذه المدرسة الزاهرة ، أو درس كل الفلكيين الذين لمعوا في عصر أفلاطون ، لا يسعنا إلاّ أن نتوقّف قليلاً عند عالمَيْن فيثاغوريين كبيرين وثالث هو صاحب مدرسة خاصة به ، لعلاقتهم بأفلاطون ، ولإيضاح مكاسب الرياضيات والفلكيات المستجدّة التي ستقوم عليها عبادة النجوم .

فيلولاوس (+ ٤٠٠ ق.م.؟) :

يمكننا أن نعتبر فيلولاوس رأس الرعيل الثاني من تلاميذ فيثاغور وأكبرهم سنّاً إن لم يكن قدراً ، لأنّه عرف عدداً من الذين أخذوا التعاليم والتقاليد السرّية الفيثاغورية مباشرة عن المعلّم . ولقد مرَّ بنا كيف أنّ فيلولاوس سهّل لأفلاطون الحصول على مجموعة تعليم فيثاغور السرّي ، وبهذا أصبحت مبادئ المذهب تنتشر بعد أن حُبست على أعضاء الجماعة . ووضع فيلولاوس نظرية جريئة حاول فيها التخلّص من مبدأ مركزية الأرض فجعل في وسط الكون بؤرة نارية كبرى تدور حولها عشرة أجرام سماوية هي الشمس والأرض والكواكب الأخرى . ومن الملاحظ أنّه أوّل من تحسّس المجموعة الشمسية ، ولو قُبلت الفرضية لربما كان من الممكن أن تتجه الأفكار إلى مركزية الشمس ، ولكّن نظرية برمينيد (+ ٣٦٠ ق.م.) القائلة بتوسّط الأرض في الكون بقيت السائدة وكانت شبه عقيدة (١٩) زاد رسوخها أخذُ كلٍ من أفلاطون وأرسطو بها .

أرْخيتاس الطارنتي (+ ٣٦٠ ق.م. ؟) :

كان من الفيثاغوريين الذين ظلوا في إيطاليا وقد تسنّم قمّة الرعيل الفيثاغوري الثالث فيما جمع من صفات قلّ أن تجتمع في إنسان واحد . فقد كان رجل دولة ورجل حرب ، حكم مدينة طارنت سنين طويلة ، وقاد معارك عديدة دون أن يُغلَب في واحدة منها ، وكان أيضاً رياضيًّا فذًّا حلَّ معضلة تضعيف مكعّب المذبح في هيكل دِيْلُوْس ، وأكمل أبحاث فيلولاوس الموسيقية على الوجه الأكمل حتى عُدّ أعظم عالم بأصول الموسيقى في العصر القديم ، وكان أوّل من أرسى قواعد الميكانيكية الفلكية العلمية ، فبدا فيها الرائد وممهّد الطريق لأرخميدس الذي خلفه بعد أكثر من قرن ، وكان معاصراً لأفلاطون وصديقاً حميماً له ، وإليه يرجع الفضل في إدخال التعاليم الأفلاطونية بصورة منتظمة إلى إيطاليا الجنوبية . وعندما غضب ديونيسيوس الثاني ، عاهل سيراقوزه ، على أفلاطون واحتجزه في قصره إبّان الرحلة الثالثة إلى صقلّية ، لم يستطع أحد غير أرخيتاس أن ينقذه ، ولذا عدّه أفلاطون مثال الحاكم والفيلسوف والعالِم ، ولربّما كان النموذج الحيّ في نظره عندما عدّد صفات الحكّام المثاليين [٢٠] الذين يمكنهم وحدهم أن يحكموا مدينته المثالية ، حين ألّف كتابيه : " الجمهورية " و " الشرائع " .

أودكْس الكنيدي (+ ٣٥٥ ق.م.) :

أتقن أودكس العلم من جانبيه النظري والعملي ، فملك ناصيته حتى عُدّ أعظم رياضي وفلكي في عصره . تتلمذ لأرخيتاس الفيثاغوري السابق ذكره ، وتبع في الأكاديمية تعليم أفلاطون ، ثمّ مارسَ الرصد أوّلاً قرب هيليوبوليس (على الشاطئ الغربي للنيل ، قرب الدلتا) ثمّ في وطنه كنيد ، وإليه يُنسب رصد سُهَيْل ، أحد النجمين الأكثر لمعاناً في السماء ، رصداً علمياً مقبولاً . ومن فضائله في الرياضيات القسمة الذهبية ، وإليه ترجع أول النظريات التي عالجت معضلة المقاطع المخروطية . وأمّا في الفلكيات فيُعتبر مؤسّس الفلك العلمي ، إذ كان أوّل من تخطّى البرهان الفلسفي إلى الرصد في وصف جري الكواكب ، وكان رائد القائلين بنظرية الكرات المتّحدة المركز التي كان لها فيما بعد شأن كبير وخطير .

قصد أثينة للمرّة الثانية آتياً من سِيزِيْك ، وكان صيته قد سبقه إليها ، فأكرمه أفلاطون إكراماً بالغاً حتى عهد إليه بإدارة الأكاديمية أثناء غيابه إبّان سفرته الثانية إلى سيراقوزة [٢١] .

لكنّ السؤال الجديد باهتمامنا هو تأثّر أودكس بفلكيات الكلدان ، وهو موضوع ما برح الباحثون مختلفين حول بعض جوانبه لقلّة المعلومات الواضحة الأكيدة بين أيدينا ، لكنْ هناك بعضُ القرائن التي لا بدّ من ذكرها لتبديد بعض الإبهام :

تقع كنيد وطن أودكس قرب مدينة هالِيْكَرْنَاس ، المرفأ العظيم آنذاك ، على ساحل آسيا الصغرى الغربي الذي كانت تنتهي إليه أهمّ طرق القوافل الآتية من بلاد فارس قاصدة بحر إيجة . ومعلوم أنّ الفرس سيطروا على كل آسيا الصغرى منذ فتح قورش الكبير (+ ٥٣٠ ق.م.) ،وسكنت جاليات فارسية في أكثر موانئ إيجه لإدارة مصالحها التجارية ، فكان جوار واختلاط سهّلا ولا شكّ لأودكس معرفة الكثير عن فلكيات الكلدان وعقائد الفرس ، وسنعرض باقتضاب كلّي هذين الموضوعين .

فمن المعلومات التي وصلتنا عن أودكس أنّه كان أوّل من وفّقَ بين البروج الكلدانية وكبار آلهة اليونان الاثني عشر ، مخصصاً إلهاً لكل شهر من أشهر السنة ، وأنّه نقل الرصد البابلي من الأسلوب الرياضي إلى الأسلوب الهندسي الإغريقي ، وأدخل تصحيحاً على التقويم طالباً وجوب إدراج يوم إضافي واحد كل ثماني سنوات لحفظ توافق الفصول مع حركة الشمس [٢٢] . ويكاد أصحاب الاختصاص أن يجمعوا على أنّ أودكس لم يكن مديناً للكلدانيين بشيء في غير ما أتينا على ذكره ، وهذا ما ألمحنا إليه في مستهلّ بحثنا . وإنّ أهمّ ما استنبطه عالمنا من الفلكيات ، ونعني خاصة نظرية الكرات المتّحدة المركز ، كان نتاجاً يونانياً صرفاً ، وهو حصيلة منطقية لمنهجيته [٢٣] الهندسية الطابع . أمّا فيمَا يتعلّق بثنائية الفرس ، أي وجود إله خير وإله شرّ هما في عراك دائم ، فالأرجح ـ ما لم يكن أكيداً – أنّ أودكس هو الذي أشاع اعتقادات الفرس في أكاديمية أفلاطون ، وإنّ أغلب مستندات القرن الرابع ق.م. ، التي تمتُّ بصلة إلى هذا الموضوع تشير إليه بتواتر .

أفلاطون وعلم الفلك :

لم يساوق أفلاطون أكثر مستجدّات علم الفلك التي تتابعت على زمنه ، وبقي يؤكّد شأن الفيثاغوريين الأول أنّ لكل كوكب مساراً واحداً دائرياً تاماً ، وأنّه لا عبرة في أن تكون الظواهر البادية للعيان على غير ذلك . وكان مؤسّس الأكاديمية يعتبر تعرّج الكواكب بمجراها فضيحة فلسفية ، وقد أشار إلى ذلك أكثر من مرّة [٢٤] . ويخبرنا سمبليقيوس (القرن السادس ب.م.) أنّ أفلاطون كان قد أوعز إلى أدوكس درس

حركة الكواكب وإبرازها حصراً على الحركـة الدائرية المطّردة ، لأنّ الحركـة الدائريـة التامة وحدها ، على زعم شيخ الأكاديمية ، تليق بكمال الأجرام السماوية (٢٥) .

وهكذا كان كل من أفلاطـون وأودكـس يتكلّمـان بلغتـين مختلفتـين (٢٦) ، يعتمـد الأوّل البرهان الفلسفي ، عندما يتكلّم عن الأفلاك والنجوم ، ولا يركن الثـاني في هـذه الأمور إلاّ إلى معطيات الرصد ، فكان لا بدّ لأودكس أن يهجر الأكاديمية كما سـيفعل أرسطو بعد حين .

أفلاطون وثنائية الفرس :

لقد مرَّ بنا أنّ أودكس الذي عرف فلكيـات الكلـدان ألمّ بثنائيـة الفـرس ونشـر هـذه المعلومات في الأكاديمية (٢٧) ، فلا يعقل ، والحال هذه ، ألاّ يكون أفلاطون قد عـرف ذلك التيّار الذي فشى في معهـده . ومـن جهـة أخـرى ، يحـوي تعليـم أفلاطـون ثنائيـة واضحة المعالم ، فلا مندوحة إذاً من السؤال : هل من علاقة بين الثنائية الفارسـية (إلـه خير وإله شرّ) والثنائية الأفلاطونية ، المتأثرة بالفيثاغورية التي حدّدنا معالمهـا فيمـا سبق (التضاد بين المادّة والروح) ؟

يمكننا ، حبًّا بالإيجاز ، أن نجمل الجواب في النقاط التالية :

أوّلاً إنّه من مقوّمات مفهوم الإله ، عند أفلاطـون ، الخـير والصـلاح ، وبالتـالي فـلا يُعقل أن يصحّ لديه التسليم بإله قوامه الشرّ كما في الثنائية الفارسية .

ثانياً ، لا مكان للشرّ عند أفلاطون فيما يسـمّيه المـلأ الأعلـى ، عـالم الآلهـة والمُثُـل ، حيث لا يمكن أن يوجد سوى الخير والجمال والنظام والسلام .

ثالثاً ، في عالمنا ،عالم الكون والفساد ، عالم مـا تحـت القمـر ، يسـوّغ وجـودُ المـادة وجودَالشرّ . وهنا لا معدى من الإشارة إلى أنّ تطوراً جذرياً طرأ على موقف أفلاطـون تجاه المادة . فبعد تلك الثنائية المتشائمة بين المعقول والمحسوس التي قـال بهـا أفلاطـون في مؤلّفاته الأولى ، والتي اعتَبرت المادة مبدأً شرّيراً مقاوماً الخير ، رجـع وتبصّـر وأعلـن في كتابَيْ " طيمَاوس " و " الشرائع " ، وهما من عهد شيخوخته ، أنّ المادة ليست سـوى الحد الأقصى الذي يبلغه العقل منظّم الكون ، وأنّ المادة لا تعارض الخير ، لكن من كنه طبيعتها ، مبدأ حصر يقلّل من إمكان ظهور الخير فيها ، وأنّـه لا بـدّ للعقـل الخـالق مـن اعتمادها في تكثير وجود الكائنات المحسوسة . فالمادة إذاً بطبيعتها حَدٌّ وحَصْـرٌ للخـير ، ولا مناص للعقل منظّم الكون من الاستعانة بها لإبراز الكائنات المادية إلى الوجود .

وهكذا يتّضح من كل ما تقدّم أنّ أفلاطون إذا صح أن عرف الثنائية الفارسيّة ـ وهو أمر أقرب إلى الأكيد ـ فمن الثابت أنّ تأثيرها فيه كان محدوداً جداً ، لأنّ هناك بين الثنائيتين تناقضاً كاملاً أصولاً وتطبيقاً .

الإبينوميس [٢٨] وأفلاطون :

لا نجد في الحضارة اليونانية الكلاسيكية كلّها روحانية تألّقت تألّقها عند سقراط وتلميذه أفلاطون ، وإن كان الثاني مديناً للأوّل بهذه النزعة ، فلا ريب أنّ هذه الروحانية ما كانت لتتجلّى بهذه الروعة عند مؤسّس الأكاديمية لو لم تكن تتجاوب مع أعمق جذور نفسه ، ولقد بدت هذه الروحانية في ثنايا محاورة " الإبينوميس " ، أي "ملحق الشرائع "، الذي حامت حوله الشبهات في نسبته إلى أفلاطون منذ العصور القديمة ، لكنّ التشكيك في هذا الأمر أخذ يضعف ويميل إلى الزوال [٢٩] ، والاتجاه الآن ماضٍ إلى ضمّ " الإبينوميس " ، إلى " شرائع " أفلاطون في الطبعات العلمية الأخيرة .

وممّا يسترعي الانتباه أنّ عدداً من الذين كانوا يتساءلون عن مؤلّف " الإبينوميس " يقرّون بأنّ التعليم فيه يتوافق مع " الشرائع " ، كما يعترفون بالتجاوب الواقع بين عدد وافر من أفكار " الملحق " وعباراته والمحاورات الأفلاطونية الأكيدة ، وأهمّ ما كان يُفترض في هذا الصدد أن فيليب الأوبونتي تلميذ أفلاطون ، إن لم يكن مؤلّف " الإبينوميس " فهو جامع ما رتّبه المعلّم من مسوّدات الكتاب ، ولم يُعطَ لشيخ الأكاديمية كي يضع عليه لمساته الأخيرة . " وللإبينوميس " أهميّة كبرى لأنّه ، كما قال تيلر ، " حَدَثٌ تاريخي يشير إلى نهاية الفلسفة الأتيكية (الكلاسيكية) وبدء فلسفة العصر الهلنستي " .

ويضيف فِسْتوجيير أنّه " بيان ديانة جديدة " ، ديانة عبادة النجوم عند الإغريق [٣٠] التي سادت في العصر الهلنستي وما بعده ، مع ما يرافقها من تنجيم وسحر ، قبل انتصار النصرانية . ومن الثابت ، أنّ " الإبينوميس " لم يُنشَر إلاّ قبيل وفاة أفلاطون ، متزامناً والوقت الذي نشر فيه أرسطو كتابه " في الفلسفة " .

بواعث الإبينوميس :

لم يكن معقولاً إذاً أن تجد روحانية أفلاطون التي أشرنا إليها شحنتها في الميثولوجية اليونانية القائمة إذ ذاك ، لما حوت من مخازٍ ومآسٍ أخلاقية في طيّات أساطير آلهتها . وكان أفلاطون ، بعد مَن سبقه من مفكّرين مجيدين [٣١] ، قد حاول قبل " الإبينوميس " في محاورتي " الجمهورية " و " الشرائع " أن يطهّر المعتقدات التقليديّة من عفوصتها ، ضناً منه على إبقاء إشعاع الروح في نفوس المفكّرين والشعب [٣٢] . وكان جلّ اهتمامه موجّهاً إلى إنقاذ الشبيبة من الإلحاد ، وكان من عادتها في طيش سنّها ترديد عبارات التشكيك في وجود الآلهة وعنايتها بأمور البشر .

وحنا أفلاطون على الجيل الصاعد برقّة وعطف فوضع على لسان الأثيني الشيخ في " الشرائع " ، قولاً ليّناً لا يخلو من إشفاق وعتاب وتقريع . ومّما قاله : " إنّك يا بنيّ حديث السنّ ، وإنّ الزمن لَقَمين بتبديل آرائك ، وترك رَيْعك ، فتمهّل الآن قبل أن تُنَصّب نفسك حَكَماً في أمور جليلة القدر ... لستَ أنت الوحيد ، وما كان أصحابك الأوّلين على هذا ، بصدد الآلهة ، ففي كل جيل وُجد مَنْ ابتُلي قليلاً أو كثيراً بهذا المرض ، وباستطاعتي الآن ، وبعد أن عاشرتُ الكثيرين ممّن هم على شاكلة هؤلاء ، أن أؤكّد لك أنّي لم أجد قط واحداً ممّن أنكر وجود الآلهة في شبابه ، قد استمرّ على هذا الرأي في أيّام شيخوخته " [٣٣] .

براهين ألوهية النجوم :

كان أفلاطون عبر محاوراته الماورائية في " الفيدون " و " الوليمة " و " الجمهورية " ، اعتبر الكون منقسماً إلى عالمين اثنين : عالم المفاهيم المفارقة الثابتة ، وعالم المحسوسات الدائمة التغيّر . وسبق أن أشرنا إلى أنّ الرياضيات ، بفرعي الأعداد والهندسة ، قد سجّلت مكاسب رائعة أضيف إليها رَصْد جديد ثمّ عولج هندسياً على الطريقة اليونانية المألوفة . وذهل أفلاطون من نتائج كل ذلك ، إذ رأى عالم ما فوق القمر ، وكأنّه قد انسلخ عن عالم المحسوسات وانضوى إلى ثوابت العلم الأكيد ، بحركة دائرية دائمة ثابتة ، فكان لا بدّ له ، والحال هذه ، أن يُعيد النظر فيما سبق أن ألفه ، ويفلسف مجدداً ظاهرة الحركة كما تكشّفت له . وخرج أفلاطون من بحثه متيقّناً أنّ حركة الأجرام

السماوية أبدية سوية عفوية ، وهذه كلّها تفترض وجود نفس رائدة وعقل منظّم توّاق إلى الكمال ومرتبط بالنفس الكلية ومتجانس معها بالألوهية [٣٤] .

وممّا يلفت النظر ويجعل الباحث يجزم أنّ فكرة عبادة النجوم لم تكن جديدة عند أفلاطون بل كانت تراوده منذ سنوات، ذكره في كتاب " الشرائع" (١٠،٨٨٦،آ): "إنّ كل الشعوب من يونان وبرابرة كذلك يسجدون للشمس والقمر عند ظهورهما وأفولهما " ، ويضيف : " ... كل ذلك يُشير إلى أنّه لم يكن يعتور أدنى شكّ ألوهية النجوم عندهم " . وإذا صعدنا إلى محاورة " طيمَاوس " وقد سبقت حتماً كتاب " الشرائع " ، وجدنا تجاوباً بين هذين المؤلّفَيْن (طيمَاوس ، ٥٣٨ ؛ الشرائع ، ٧ و ١٠) ، وما سوف يصرّح به أفلاطون بوضوح تام في " الإبينوميس " (٩٨٧ و ٩٨٨) . ومن هذين النصَّين الأخيرين يتضح أنّ شيخ الأكاديمية قد طلّق آلهة الميثولوجية نهائياً إلى دين جديد معتمداً بعض ما أتى به علم النجوم آنذاك من فتح جديد [٣٥] .

وكانت أكاديمية أفلاطون تضم عدداً من الأجانب ، كما يظهر من لائحة طلابها ، ومّما ذكره ديوجين اللا يرسي [٣٦] - ويبدو أنه واحد من هؤلاء - وهو كلداني الأصل ، لعب دوراً كبيراً في هذا الصدد ، وأطلع أفلاطون على تفاصيل مثيرة تتعلّق بتقاليد عبادة النجوم السحيقة في القِدَم كما كانت تمارس في بلاد الكلدانيين .

وتيقّن أفلاطون أخيراً أنّه لا بدّ له من القيام بالخطوة الحاسمة ، لأنّه ألفى فيما سمعه دعماً للبراهين التي انتهى إليها ، وعنصراً فعّالاً للإصلاح الذي كان ينشده ، وأجوبة شافية لكل التساؤلات التي ما برح يجترّها ويمحّصها منذ سنين عديدة .

محاسن الدين الجديد :

رأى أفلاطون في عبادة النجوم طريقة مثلى يتمكّن بتوسُّلها من صرف نظر العامة عن الأساطير المريبة التي لفّقها الشعراء على مرّ العصور وعزوها إلى الآلهة ، ومن إقامة عبادة نقية تعتمد الأعداد والفلكيات ، وهي أسمى العلوم في نظره ، يمكنها وحدها أن توصل إلى الحكمة (الإبينوميس ، ٩٦٩ ب / ٥ / إلخ) . وفضلاً عن ذلك تُوفّق هذه العبادة الجديدة ، بين الآلهة النجوم والآلهة القائمة ، آلهة الميثولوجية التي ما يزال الشعب متمسّكاً بها (الإبينوميس ، ٩٨٧ ب) ، فيتبوّأ الدين الجديد إذ ذاك مكانته السامية ، لأنّ النجوم أجمل صورة للألوهية (الشرائع ، ١١ ، ٩٣٠ ؛ والإبينوميس ،١٩٨٤) .

ولم يعزب عن بال شيخ الأكاديمية ما آلت إليه نهاية معلّمه سقراط المفجعة ، لذا عمد في كتاب " الإبينوميس " إلى تدارك كل اعتراض ، متّخذاً سُبُل الحيطة والحذَر ، موضحاً أنّه يساوق التقاليد الموروثة ، وأنّه لا ضير إذا كان أهل الشرق بفضل صفاء السماء عندهم قد سبقوا الإغريق في عبادة النجوم ، ثمّ يناغم كبرياء مواطنيه قائلاً : " من المسلّم به أنّ كل ما يأخذه اليونانيون عن البرابرة يُجمّلونه ويرتقون به إلى درجة الكمال ... والأمل وطيد أنّهم بفضل رقيّهم وبمساعدة نبوءات دِلْفْ وما عندهم من طقوس مشروعة ، سيقيمون لهذه الآلهة عبادة أكثر جمالاً وأوفر لياقة ممّا تقوم به تقاليد البرابرة (الإبينوميس ، ٩٨٧ و ٩٨٨) " .

واعتبر أكثر مؤرّخي الفلسفة محاورة " الإبينوميس " ، وصية أفلاطون الأخيرة وإيذاناً بظهور روحانية جديدة ، وهو قول ينم عن الحقيقة ، لأنّه أضاف لدى تلميذ سقراط تأمّل المُثُل المفارقة إلى تأمُّلِ الأفلاك والأجرام السماوية الإلهية ، وغدا هذا النمط الجديد في العبادة من بعده سنّة سار عليها أكثر الفلاسفة الوثنيين في الشرق والغرب حتى انقراض الشرك .

وإنّنا دون أن نستبق ما سوف نفصّله في كلامنا عن مقوّمات العصر الهلنستي الدينية ، يمكننا أن نُجمل الموضوع فنقول : إنّ " الإبينوميس " كان منعطفاً حاسماً في حياة شيخ الأكاديمية الروحية ، توسله فيلسوفنا إلى قيام ديانة وطنية لها هياكلها وسدنتها وطقوسها وأعيادها ، نعم ، نقول وطنية ولا نقول كونية ، كما سيُفسّر الأمر في العصر الهلّنستي ، لأنّ ذلك لن يكون قبل الفتح الإسكندري . ومن طرف آخر ، يمكننا الجزم مؤكّدين منذ الآن أنّ أفلاطون " كان الرائد الحقيقي للفكر الديني في العصر الهلّنستي كلّه " (٣٧) .

الحواشي :

١ – S.F. Mason , Histoire des Sciences , A . Colin , p . 7 .

٢ – Thureau - Dangin et Neugbauer

٣ – M.S. GANDS .

٤ – PIERRE ROUSSEAU

٥ – عن كل هذه النظريات راجع :

PIERRE ROUSSEAU , Histoire de la Science , Fayard , pp . 20,21 .

٦ – R . TATON La Science antique et médiévale , I , P.U.F., p . 122 ,

W • DAMPIER , Hostoire de la Science , Payot , p . 32 .

٧ – ED • DHORME , Les Religions de Babylonie et d ' Assyrie ..., P.U.f., p. 285.

٨ – R. TATON , op . cit ., pp . 127 ss , Ed DHORME , op . cit ., p . 298 .

٩ – ED. DHORME et R. DUSSAUD , Les Religions de Babylonie et d' Assyrie et les Religions des Hittites. P. 258 • FESTUGIÈRE ,ÉTUDES DE philosophie grecque , Vrin , 1971 , pp. 50 , 55 .

١٠ – Encycl . Universalis , t . VI, p . 84 , col . 1 .

١١ – R. BACCOW , Histoire de la Science grecque : de Thalés á Socrate , Aubier , p . 120 .

١٢ – PLATON , République livre VII, 530 D .

١٣ – IVAN GOBRY , Pythagore , Seghers . p . 67 .

١٤ – (SOMA SIMA) Σωμα Σημα

١٥ – قبل معالجة الموضوع ، فيما سوف نفصّله عن مظاهر التديّن في العصر الهلّنسيّ وما بعده ، لا يسعنا إلاّ أن نذكر منذ الآن بعض تلك الانحرافات ، من اعتقاد مطلق بالتنجيم والسحر ، واستحضار الأرواح ، والادّعاء باجتراح المعجزات ، عند أبطال هذا الشذوذ ، من أبولونيوس التياني (+ ٩٧ ب.م.) الفيثاغوري مدّعي النبوّة ، وفيلوسترات (+ ٣٤٩ ب.م.) كاتب سيرة هذا الأخير ومروّج أباطيله ، إلى فورفوريوس الأفلاطوني (+ ٣٠٤ ب.م.) مؤلّف " كهف عرائس المروج " ، وبروقلس (+ ٤٨٥ ب.م.) زعيم التيورجية في عصره ، وكانوا جميعاً يدّعون أنهم يُعلمون الفلسفة الحقّة (كذا) ممّا تسبب في إغلاق مدارس الفلسفة الوثنية في أثينة سنة ٥٢٩ ب.م. .

ولربّما كان أغرب مما اجترحه هؤلاء المنجرفون وأفظع من عمل مفسدي الفلسفة ما تنعق به حتى اليوم بعض الكتب المدرسية فتلقّن طلاّبها العُزّل من المعرفة أنّ الإمبراطور يوستنيانوس قام بعمل فريّ عندما أغلق مدارس الفلسفة (كذا) في أثينة دون الإشارة إلى ما انتهت إليه هذه المدارس من انحطاط وشعوذة . راجع ما جاء في التوطئة وراجع أيضاً . FESTUGIERE , Rev , Hermes Trismegiste. t . I , pp . 15 ss .

et FR . CUMONT , Relig ,Or , dans le Paganisme romain (Geuthner) 1963 ,

١٦ - راجع ملخّص أفكاره في رسالة أفلاطون السابقة .

١٧ - كان الذهاب إلى مصر من الممارسات المألوفة في الجولات الثقافية التي كان يقوم بها طلاّب العلم في العصر القديم . ويعتقد بُورْنه (BURNET , Aurore de la philosophie grecque , p . 96) أنّ أفلاطون لم يذهب إلى مصر بحجّة أن هيرودوت لم يذكر ذلك ، وهذا في عرفنا أمر لا يستقيم ، لأنه برهان سلبي يعتمد الإهمال دون النفي . أمّا جاك شوفاليه فيؤكّد الأمر .

JACQUES CHEVALIR , Histoire de la pensée , I , pp . 202 , 205 .

١٨ - Encycl . Pléiade , Philos ., I ., p . 464 .

١٩ - BURNET , op . cit ., p . 318 .

٢٠ - Idem , pp . 317 ss .

٢١ - FESTUGIERE , Études de philosophie grecque , Vrin , 1971 , p . 46 , note 9 .

٢٢ - بقي الأمر على هذا المنوال حتى عَهدَ يوليوس قيصر (+ ٤٤ ق.م.) إلى الفلكي اليوناني سوزيجين الذي أعاد النظر في التقويم ، فرأى أن يُضاف يوم واحد كل أربع سنوات ، وهذا ما يُعرف بالإصلاح اليولياني .

٢٣ - أثبت ذلك فرانك وأيّده فستوجيير في مقالة ممتعة عنوانها " أفلاطون والشرق " .

Études de philasophie grecque , pp . 49 , 50

٢٤ - PLATON , Lois , 7 , 822 a , 984 c^2 , 991 e , Rep ., 7,530 b .

٢٥ - Encycl .. Ueniversalis , II , p . 688 .

٢٦ - سرتون ، تاريخ العلم ، الجزء ٣ ، ص ١١١ .

٢٧ - من تيوفراست وأوديم الروديسي والمؤرّخ تيوبومب ، وجميعهم من معاصري أرسطو . والأرجح أنّ جلّهم ، إن لم يكن كلّهم ، عرفوا الثنائية عن أودكس الكنيدي الذي فصّلنا له بعض الشيء في المتن

CF . FASTUGIERE , Etudes de philosphie grecque , pp . 45 , 46

٢٨ - Epinomis .

٢٩ - نذكر من المعاصرين الشاكين : زِللير ، جيْغِر ، أميل بْرييه ، ليون رُوبَان ، ومن الموافقين : بُرْنِه ، تايلور ، دي بلاس ، وقد انضمّ إليهم فستوجيير بعد أن كان من المعارضين . راجع :

Rev . Hermès Trismégiste , t . II, p . 158 n . I et p . 196 n . I .

٣٠ - W . THEILER , in DES PLACES , Épinomis , Budé , introd ., pp . 106 , 107 .

FESTUGIERE , Rev . Hermès Trismégiste , t . II , p . 227

٣١ - حاولنا في فصل سابق أن نلمّ بأهمّ مراحل جهود المفكّرين الذين سبقوا سقراط وأفلاطون في هذا المضمار راجع الفصل الثالث من الباب الثاني .

٣٢ - DES PLACES , La religion grecque , Picard , 1969 , pp . 246 ss .

٣٣ - أفلاطون ، الشرائع ، الكتاب العاشر : ٨٨٥ وما بعدها في طبعة بوده .

٣٤ - FESTUGIERE , Études de philosophie grecque , p . 53 .

٣٥ - Rev , Hermès Trismégiste , t , II , pp . 99 , 100 .

٣٦ - DIOGENE DE LAËRCE , vol . I , p. 171 .

٣٧ - FESTUGIERE : Études de la religion grecque et hellénistique , Vrin , 1972 . p . 118 .

الفصل الثاني :

أرسطو وعبادة النجوم

أرسطو الضائع [١] :

من المفارقات بين أفلاطون وأرسطو ، ما خلا جوهر فلسفتهما ، أمرُ المؤلّفات التي وصلتنا لكل منهما . فاليوم بين أيدينا تعليم أفلاطون " العام " ونكاد نجهل تعليمه " الخاص " المدوَّن [٢] ، على خلاف أرسطو ، الذي لم يصلنا من مؤلفاته العامة التي اعتنى بنشرها إبّان مكوثه في الأكاديميّة أو بعدها بقليل سوى شذرات ، بينما نملك مجمل تعليمه " الخاص " ، أي تلك المسودّات التي كان يعتمدها زمنَ تدريسه في الليقيون ، والتي كانت حبيسةً على أخصِّ تلاميذه وعند بعض المدارس الفلسفيّة . فأرسطو الضائع ، على العموم ، هو أرسطو الأفلاطوني ، أمّا أرسطو الذي يُدرَّس اليوم فهو أرسطو صاحب المذهب الأُنف الخاص به والمعارض ، إلى مدى بعيد ، التعليم الذي كان يُتّبع في الأكاديميّة .

ولقد حَدَّت كوكبة من العلماء المعاصرين في البحث عن أرسطو الضائع ، وفي تتبع تلك الشذرات الباقية من مؤلّفات الستاجيري الفقيدة ، وكان ذلك عسيراً ومضنياً ، فنقّبت عن المؤلّفات التي ظهرت تباعاً بعده ، وعند الكتبة الذين وصفوها أو حاكوها أو استشهدوا ببعض مقاطعها ، فغدونا اليوم بفضل هذه الجهود نتبيّن أكثر فأكثر ملامح أرسطو الضائع ، ونطلّع على مواضيع تلك المؤلّفات ، ونتمثّل مضامينها ونقرأ بعض مختارات منها .

من المعروف أنّ أرسطو التحق بالأكاديميّة سنة ٣٦٧ ق.م. وهجرها سنة وفاة معلّمه أفلاطون (٣٤٧ ق.م.) . وإذا كان عمره عند دخوله الأكاديميّة سبع عشرة سنة ، فقد بلغ السابعة والثلاثين عند فراقها ، وكان قد تدرَّج في هذه السنين العشرين من طالب إلى أستاذ فمؤلّف صاحب سمعة مرموقة .

ولقد اخترنا من بين هذه المؤلّفات العديدة [٣] الضائعة ثلاثة كتب : الأوّلان وهما " أوديم " و " الحضّ على الفلسفة " ، نُشرا أيّان كان أرسطو نزيل الأكاديميّة ، والثالث وهو " في الفلسفة " أذاعه أرسطو على أكثر تقدير خلال السنتين اللتين تبعتا تركه الأكاديميّة [٤] . وإذا كنا أولينا هذه الكتب الثلاثة كبرى الأهميّة فلصِلاتها

الأكيدة المباشرة أو غير المباشرة بتطوّر أرسطو النفسي والعقلي ، ولعلاقة الكتاب الأخير منها بتأليه النجوم وعبادتها .

تشاؤم خطير :

في الكتاب الأوّل " أوديم " الذي ظهر سنة ٣٥٤ تناول أرسطو موضوع خلود النفس محاكياً محاورة أستاذه أفلاطون في " الفيدون " (٥) ، معلناً فيه تمسّكه بالمُثُل الأفلاطونيّة ، معرضاً عن كل محسوس ، ومعتبراً اتّحاد النفس بالجسد مرضاً لا شفاء له إلاّ بالنزوح إلى العالم الآخر .ووصف أرسطو السأم من الحياة ، فألمح إلى خرافة شهيرة في الميثولوجية اليونانية التي ورد فيها أنّ ميْداس ، ملك فريجيا ، ارتجى السعادة على الأرض فطلب إلى الإله " باخوس " نعمة تحويل كل ما يلمسه إلى ذهب ، وعندما همّ بلقمة طعام ووجد أنّها انقلبت ذهباً ندم على ما فرط منه .ثمّ ذكّر بمرارة تلك الحكمة التي لخّص فيها " سيلْين " قَدَر الإنسان في الحياة لمّا قال: " خير للإنسان ألاّ يكون قد ولد ، والأفضل له بعد ولادته أن يموت عاجلاً " .

وبعد سنتين نشر أرسطو الكتاب الثاني " الحضّ على الفلسفة " فكان نسيج المنوال الأوّل من حيث التأفّف من كروب الحياة ، لا بل غالى عند وصفه سحابة العمر فشبّهها وساواها بما بلغ به التِيْرانيّون القمّة في التعذيب ، إذ كانوا كمَا أُخبر عنهم ، يعمدون إلى شدّ وثاق أسيرهم وجهاً لوجه بجثة ميت بدأ يدبّ فيها الفساد ...

على أنّنا نلاحظ ، فيما خلا أمر التشاؤم هذا ، بوناً شاسعاً بين المؤلّفَيْن ، فكتاب " الحض " من حيث الشكل يغاير أسلوب المحاورة الأفلاطونيّة ، ولعلّ في هذا الحدث التافه الدليل على ما هو أهم ، لأنّه أوّل كتاب أهمل فيه أرسطو ذكر المُثُل الأفلاطونيّة ، كمَا أنّه انفصل في تضاعيفه عن رأي كان يُعْتَبر العماد الذي قامت عليه الأكاديميّة ، إذ جعل التأمّل وحدَه ــ دون الاهتمام بالسياسة أو السعي إلى ممارسة الحكم ــ الهدف الأسمى والوحيد اللائق بالحكمة ، فكان بذلك على نقيض أفكار الأكاديميّة .

كل ذلك يجعلنا نعتقد أنّ الضائقة النفسية التي كان يعانيها أرسطو آنذاك لا تمتّ بصلة إلى ما قد يعتور الشباب من أزمة ، خاصة وأنّ الستاجيري كان قد تخطّى الثلاثين ، وبعدت به سنوات رَهَق البلوغ ، فلا بدّ لنا إذاً أن نعزو أزمته إلى ما كان يعانيه عقله ، ويتمخّض به حدسه ويسعى إليه بكل جوارحه وراء منهجية علمية تجد

فيها راحته ، وهاهو الآن يبدأ بفصم العُرا التي تشدّه إلى أكاديمية أفلاطون ، فيهمل المُثل ويُشيح بوجهه عن أهداف الأكاديمية .

ولكتاب " الحضّ " فضلاً عن ذلك قيمة ذاتية كبرى ، فقد كان رفيق كل مفكّر طوال العصر الهلنستي (٦) : اقتبس منه شيشرون (٤٣ ق.م.) الكثير عند تأليفه كتابه " هُوْرتَنْسِيوس " ، كما أنّ يَمْلِيخُوس (٣٣٠ ق.م.) ـ الذي يمكننا أن نطلق عليه اسم جمّاع أكثر منه محللاً أو مؤرخاً ـ لم تفته أهميّة الكتاب عندما وضع مؤلّفه " الحضّ " بالعنوان ذاته ، وكان من حسن حظّنا أنّه أكثر نقل المقاطع عن كتاب أرسطو . وكان لكتاب الستاجيري أيضاً تأثير في يوليانس الجاحد (+ ٣٦٣ ب.م.) والقدّيس أغوسطينوس (+ ٤٣٠ ب.م.) وغيرهما . ويضيف سارتون : " لقد تأثّر بكتاب " الحض " الفلاسفة ورجال العلم واللاهوتيون في العصور القديمة والوسيطة ، وشَرَحَه جيلاً بعد جيل الوثنيون والنصارى والمسلمون " (٧) .

سنوات حاسمة :

وكانت سنة ٣٤٧ سنة حاسمة في حياة أرسطو ، ففيها مات أفلاطون معلّمه المحبوب فعظّمه في مرثاة كان أجمل ما قال فيها : " إنّه لا يحقّ للأشرار أن يمدحوه " ، وفيها خَلَفَ سيبُوزيْب ، ابن إحدى أخوات المعلّم ، أفلاطون في رئاسة الأكاديمية ، وفيها هجر أرسطو نهائياً الأكاديمية متّجهاً مع كسينوقراط إلى أسُّوْس حيث انصرف للتأليف والتعليم .

وبين سنة ٣٤٧ ـ ٣٤٥ ، وفي وقت واحد تقريباً ، أصدرت الأكاديمية كتاب " الإبينوميس " (٨) الذي مات عنه أفلاطون قبل أن ينشره ، وأذاع أرسطو من جهته كتابه " في الفلسفة " .

لقد سبق أن لخصنا ما فيه الكفاية في البحث السابق أهمّ ما ورد في " الإبينوميس " وعرضنا الملابسات التي رافقت تبنّي أفلاطون عبادة النجوم ،وعلينا الآن أن نتناول بشيء من التفصيل أهمّ ما جاء في كتاب " في الفلسفة " موردين ما هو مَدِيْن به لأفلاطون في هذا الموضوع ، ثمّ نوازن بين " طيماوس " لأفلاطون و " في الفلسفة " لأرسطو ، ذاكرين التأثير الحاسم الذي كان لهذين الكتابَيْن في العصر الهلنستي وما بعده .

وثيقة التحوّر :

يقع كتاب " في الفلسفة " لأرسطو في ثلاثة أجزاء ، ولقد نال اعتناء بالغاً عند أهل الفكر لاعتباره البرزخ الفاصل بين أرسطو الأفلاطوني وأرسطو الثاني صاحب المذهب الذي ننسبه اليوم إليه ، ويُعد الكتاب علاوةً على ذلك مرحلة مهمّة في تطوّر مفهوم الألوهية عند أرسطو ، لأنّ الستاجيري ألّه فيه النجوم وأشار إلى عبادتها ، قبل أن يستكين إلى المحرك الأول .

يحوي الجزء الأوّل من الكتاب – اعتماداً على ما وصلنا عبر شذرات الكتبة التابعين – عَرْضاً لمراحل التطوّر البشري ، معتمداً نظرية " العود الأبدي " ، وهو رأي أخذه أرسطو عن أفلاطون ، وكان السبّاق إليه على ما نعلم فيثاغور ، ومفاده أنّ كوارث عالمية تنتاب البشرية وتقضي على رقيها في مواعيد دورية معيّنة سببها الزلازل أو الحروب أو الفيضانات أو الأوبئة ، لا ينجو منها سوى قلّة من الرعاة القائمين في أعالي الجبال ، ويَعْمَد هؤلاء ، المرّة بعد المرة ، إلى تأمين العيش أوّلاً ثمّ إلى إنشاء حضارة جديدة يتدرّجون فيها من التزويق البسيط إلى الفن ، بعد أن يكونوا قد جنحوا إلى التجمّع والاستيطان ، وإذ ذاك يحاول بعضهم تفهّم الطبيعة ، وتتفرّغ قلّة منهم للعلوم والفلسفة : " فالآراء العلمية تُعاد في تاريخ البشرية ليس مرّة واحدة أو مرّتين أو بعض مرّات بل إلى ما لا نهاية له " (٩) . وأهم ما يستدعي الانتباه ولا شكّ في هذا الكتاب أنّ أرسطو بدأ – عند استعراض آراء الفلاسفة السابقين – على خلاف ما عهدناه – واثقاً بنفسه يدلي برأيه بلهجة تشير إلى مَنْ تبيّن مذهبه وعرف منهجيته وتسلّح بمقاييس ثَبُتت صحّتها عنده ، فيوازن بين آرائه ومذاهب الفلاسفة السَلَف .

لقد أصبحنا إذاً بعيدين كل البعد عن كتابي " أوديم " و " الحضّ " ، وعوضاً عن تلك النبرة المتشائمة اليائسة من العيش ، نرى أرسطو الآن معتدّاً بنفسه ، متطاولاً على مذاهب المفكّرين قبله ، ينعت بعضهم بالغباوة والحمق ،ويتطلّع بتفاؤل بالغ إلى مستقبل الفلسفة العتيد " التي ستتكامل بعد زمن قصير " (١٠) . ولوحظ فضلاً عن ذلك أنّ كتاب أرسطو هذا قد تميّز بلهجة قَوية واضحة أُربت في روحانيتها على ما جاء في " الإبينوميس " (١١) لأفلاطون ، فالتبدّل الجديد إذاً تخطّى عند أرسطو الفكر إلى التحرر النفسي الناجز ، وأصبح الأمر الوجيه والجدير باهتمامنا يحضّنا على معرفة بواعث هذا التغيُّر الجذري الأكيد .

تعثّر المُثُل الأفلاطونية :

يعرف أساتذة الفلسفة كم يتعثّر الطّلاب إلى اليوم في استساغة المُثُل الأفلاطونية ، نقول ذلك حتى عند الجامعيين الذين اعتادوا منذ سنوات التجريد في فروع العلوم العصرية والرياضيات . وإنّنا نعتقد ، مع تسليمنا بكل فوارق الزمان والمكان ، أنّ الأمر في معهد أفلاطون لم يكن بالغ البعد عمّا نشير إليه ، فقد وصلت إلينا في محاورة " بَرْمِيْنِيد " أصداء الجدل الذي كان يحتدم في الأكاديمية بين القائلين بالمُثُل والمعارضين إياها .

وهل من حاجة إلى القول إنّ اعتماد أفلاطون نظرية المُثُل لم يكن نتيجة نزوة أو هوى ، بل كان يقينه أنّه لا مناص من ذلك لقيام العلم على أسس ثابتة ، وأنّ وجود المُثُل محتّم عليه ، وأنّها ضمانة لمذهبه ، كمّا حاول تبرير ذلك في محاورة " كْرَاتِيْل " ؟ وباعتقادنا أنّ أفلاطون نفسه لم يكن راضياً كل الرضا على نظرية المُثُل ، وإلاّ فكيف نشرح دأبه ، حتى آخر أيّامه ، في تطوير وتنقيح ، وإن شئتَ فقل بتنميق نظريته ؟ فمن المُثُل التجأ إلى الصور المثالية (غير الهندسية) ، ثمّ حاول دعم هذه بالأعداد المثالية ، بالموناد والدياد (١٢) ، وقال أخيراً بنظرية المشاركة لشرح العلاقة بين المحسوس ، أي الصيرورة ، والمُثُل (١٣) .

وكان على أرسطو ان يبرّر فلسفياً فَصْمَ العرا التي تشدّه إلى الأفلاطونية ، وفي هذا الموضوع تُعتمد عادة النصوص التي وردت في الماورائيات في أجزاء (آ ، م ، ن) . ولوحظ منذ أمد بعيد أنّ نصوص أرسطو في جزء (آ) وردت بصيغة المتكلم ، ممّا قد يشير إلى أنّ هذا القسم عُولج ودُوِّن إبان أفلاطونية أرسطو وفي الأكاديمية . أمّا في جزأي (م) و (ن) ، فقد حلّت صيغة الغائب محلّها . وها نحن نثبت نقد أرسطو مُثُل أفلاطون ، كما تذكر عادة (١٤) ، وعلى شكل برهان ذي حدّين :

للمُثُل حالتان لا ثالثة لها ، فإمّا أن تكون هذه منفصلة عن المحسوس ، وإمّا أن تكون متّصلة به ،

ففي الحالة الأولى تُعتبر غير معروفة ،وفي الحالة الثانية تحوي وَهْنَ المحسوس ذاته .

إذاً ففي كلتا الحالتين لن تحقق المُثُل ما كان يُرتجى من وجودها ، وأصبح بالتالي القول بها نافلة وغير ذي موضوع .

ومن بين ما أشار إليه أرسطو عن إساءة المُثُل للعلم قوله : " إنّها تجعل كل بحث في الطبيعة مستحيلاً " ، فيغدو العلم هباءً وخرافة ، وممّا عرّض أرسطو بمعلّمه في موضوع

المُثُل قوله " إنّ أفلاطون حمل إلى العالم الآخر الوحدة والنظام ، وعالمنا والإنسان بحاجة إليهمَا على الأرض " .

ومعلومٌ أنّ الأكاديميّة أهملت بعد موت أفلاطون نظرية المُثُل ولجأت – منذ الرعيل الأوّل بعد المعلّم – إلى الأعداد المثالية .

أرسطو وعلم النجوم :

من المعروف أنّ علم الهندسة سجّل نموًّا مطّرداً من عهد طالِس (+ ٥٤٨) إلى عصر أوكليد (القرن الثالث ق.م.) ، وأنّ اليونانيين طبّقوا هذا العلم وعلم المثلّثات المسطحة والكروية على الرصد . ولجأ علماء الإغريق إلى نظريات حاذقة لشرح أرصادهم ، مثل نظرية الدوائر الوحيدة المركز التي قال بها كما ذكرنا أودكس الكنيدي (+ ٣٥٥ ق.م.) . ومرَّ بنا أنّ أفلاطون كاد أن يعرقل بمواقفه التقليدية المتصلّبة تقدّم الرصد ونمو العلم عند أودكس لو كان هذا أصغى إليه .

ولم يبقَ أرسطو في عزلة عن تلك النهضة الفلكية الرائعة التي عاصرها ، فألقى هو أيضاً بدلوه محاولاً أن يكون أكثر دقّة ممّن سبقوه . وإلى الستاجيري يرجع فضل تحويل الأسلوب الهندسي المتّبع إلى أسلوب ميكانيكي مع تبنّيه نظام الكرات المتّحدة المركز . وبينما اكتفى أفلاطون بثمانية أفلاك فقط جعلها أودكس ٢٧ فلكاً ، وأوصلها أرسطو إلى خمسة وخمسين فلكاً فغدا النظام كلّه أكثر تعقيداً (١٥) .

إنّ عبادة النجوم المعتمِدة علمَ الفلك ، قد تجلت كتابةً - في وقت واحد تقريباً - لدى كلٍ من الأكاديمية وأرسطو ، ولم تكن بِنتَ ساعتها بل نتيجة اختمار وجدَل ونقاش طويل تردّدت أصداؤه بين جدران الأكاديمية منذ سنين ، فإنّ معهد أفلاطون لم يكن مدرسة بالمعنى الحصري لها براجها المحدّدة واتجاهاتها المعيّنة ، بل كان أشبه بجامعة وندوة معاً ، تجري فيه المناقشات بحرّية تامة ، ويحتفظ كلٌ برأيه دون حرج إذا لم تتوافق وجهات النظر ، يؤكّد لنا ذلك ما حدث من مناقشات بعد نشر " طيمَاوس " وموقف أرسطو في مواضيع شتّى عارضت آراء مؤسّس الأكاديميّة ورئيسها الذي ما برح على قيد الحياة . أضف إلى ذلك ما ذكرناه عن قِدَم معالجة موضوع تأليه النجوم في مؤلّفات أفلاطون ، من " طيمَاوس " إلى " الشرائع " ، قبل إعلانه بوضوح في " الابينوميس " ، ووجود فلكي كلداني إلى قرب أفلاطون ، وتردّد العالم أوْدُكْس الكنيدي (+ ٣٥٥) إلى الأكاديمية ، حاملاً أفكار الفرس .

نقول ذلك لوصف الجوّ الذي عاش فيه أرسطو عندما كان نزيل الأكاديمية ، واسترعاء الانتباه للمؤثّرات التي قادته إلى وضع مؤلّفه الجديد " في الفلسفة " غبّ تركه أكاديمية أفلاطون .

" طيمَاوس " وأرسطو :

أخبر سِمْبليقيوس (القرن السادس ب.م.) أنّ أرسطو دوَّن لاستعماله الخاص موجزاً لمحاورة أفلاطون " طيمَاوس " ، فلا عجب إن كان الستاجيري قد ألمح إلى هذا المؤلّف في ملخّصاته التعليمية التي وصلت إلينا ، قرابة أربعين مرّة (١٦) ، تلك المحاورة التي كانت " ملحمة رائعة تحاكي ملاحم نشأة الكون " والتي اعتبر فيها أفلاطون " العالم أجمل ما صُنع وصانعَه أجمل صانع " (١٧) ، وأنّ الخيرَ والجمال متغلغلان في ثناياه ، وأنّ " النظام فيه يقود إلى الخير الأمثل (طيمَاوس ٦٨ ، هـ ٥) " ، " وأنّ صانعه ، وهو النفس العالمية ، يشاطر العدد والانسجام ، وهو أرقى ما أتى به الكائن الأفضل (طيمَاوس ٣٧ ، د) " ، ومن أجل ذلك كلّه " كان العالم تحفة فنيّة " (طيمَاوس ٣٣ ، د ، آ) .

وانتقل - ولا خلاف - قدر كبير من تفاؤل " طيمَاوس " إلى نفس أرسطو ، ولسوف يُعطي علمُ الفلك الستاجيريَ ثمارَه يوم يجد بوساطته الحل الأمثل لمعضلة " الكون والفساد " وعلاقتها بالملأ الأعلى التي استعصت عليه ، وكانت سبب تطليقه المُثل عندما ظهر له عجزها عن تقديم حل معقول لها .

من الكون إلى الآلهة :

يمكننا إذا أنعمنا النظر في الشذرات الباقية من كتاب أرسطو " في الفلسفة " أن نتصوّر الطريق التي انتهت بالستاجيري إلى عبادة النجوم (١٨) . فلقد حوَّر أرسطو وبسَّط قصة الكهف الشهيرة لأفلاطون فافترض - خلافاً لما ذكره صاحب الأكاديمية - أنّ جماعة من الناس عاشت طويلاً في بحبوحة وهناء في كهف تحت الأرض ، ثمّ تيسّر لها يوماً ما منفذ تسلّل أفرادها منه إلى البسيطة التي نقطنها ، فنعموا بنور الشمس ، ورأوا الأرض والبحر وقبّة السماء وسير الغيوم ، وخبروا قوّة الرياح ، وفي الليل شاهدوا السماء مرصّعة بالنجوم المتلألئة ، والقمر يسبح في الفضاء ،وعرفوا بزوغ الشمس

وغروبها ، وتغيّر وجه القمر وحركة الأجرام المنتظمة ، فقادهم ذلك إلى الاعتقاد بوجود آلهة صانعة هذه العجائب كلّها .

ولم يكن إعجاب أرسطو وخشوعه ، تجاه ما نعته " بالهيكل الكوني " أقلّ ممّا وصفه عند أهل الكهف الدالفين إلى الأرض ، وتساءل هو بدوره عن مبدأ يرجع إليه تلك الظاهرات فقال : إمّا أن يكون مبدأ واحد لكل هذه ، وإمّا أن يكون لها مبادئ متعدّدة ، فإن كان لها مبدأ واحد فقد وصلنا به إلى اليقين ، وإذا كان متعدداً فهو إمّا منظّم أو غير منظّم ، فإذا كان غير منظّم نتج منه عالم أقلّ نظاماً ، وهذا محال لأنه مخالِف لما نراه ، وإذا كان منظّماً فتنظيمه إمّا متأتٍّ عن مبدأ داخلي فيحوي بالتالي مبدأً داخلياً منظّماً له ، وإمّا أن يكون منظّماً بغيره فيكون مبدأ تنظيمه خارجاً عنه .

وتساءل أرسطو عن العنصر المقوّم لتلك النجوم المتحركة بذاتها (إذاً حية) بحركة دائرية [١٩] (أي منافية لطبيعة حركة العناصر الأربعة الأرضية) ، مطّردة (إذاً إرادية) ، قائمة منذ البدء (إذاً أزلية) ،والتي ستبقى إلى ما لا نهاية له (إذاً أبدية) ، فينتج بنظره من ذلك أنّه من الواجب أن يكون عنصر أفلاك السماء (أي المنطقة الخامسة) مختلفاً عن عناصر ما تحت القمر الأربعة ، واستنتج من ذلك أنّه عنصر جديد لا شبيه له ، فأطلق عليه اسم الأثير وهو العنصر الخامس الخاص بالمنطقة العليا السماوية .

ولا بدّ لنا من الملاحظة أنّ كل ما نُثبته لأرسطو فيما نحن بصدده منطقي تماماً ، وأنّ النتائج التي انتهى إليها الستاجيري حتمية لا يشوبها شك ، شرط التسليم بالمقدّمات المفترَضة القائمة عليها ، وهذه صحيحة إذا ما قيست على نور المعرفة والعلم القائم في ذلك العصر .

أرسطو والأثير :

لقد ورد ذكر الأثير [٢٠] لدى أناكساغور (+ ٤٢٨) وفيلولاوس (+ ٤٠٠ ؟) كمادة للنجوم ، ولربما تحسّس هذا الأخير فيه عنصراً خامساً ، وذكره أفلاطون في " الفيدون " (١٠٩ ب ، ٦) كهواء يتنشّقه سكان السماء فيعيشون طويلاً ولا يُصابون بمرض ، وفي " طيمَاوس " (٩٠ ، آ ، ب) حيث أوضح أنّه لمّا كانت النفس البشرية " نبتة غير أرضية " فلا بدّ من قرابةٍ بينها وبين النجوم ، وأنّ

النفس تكوّنت من فضلات العناصر التي صُنعت بها النفس العالمية ، وأنّ الصانع أسكن النفوس البشرية في النجوم ، كل نفس في نجم متجانس معها ، ثمّ أعلمها أنّ " الحتمية " قررت هبوطها إلى الأرض لإحياء الأجسام الإنسانية ، وستبتلى هنالك بأهواء البشر . وتُعتبر حياة الأنفس على الأرض اختباراً لها ، فإن تَبَنَّت الصلاح ترجع إلى نجمها ، وإذا اختارت الضلال تتقمص في امرأة أو حيوان إلى أن يتمّ تطورها فتعود إلى نجمها . وعلى النفس البشرية ، وهي " عالم صغير " ، أن تجعل كل جوارحها على انسجام مع " العالم الكبير " ليحصل التطابق بين حركاتها وحركات السماء ، يساعدها على ذلك العكوف على الموسيقى والرياضة . وفي " الابينوميس " لأفلاطون ذُكر الأثير [٢١] على أنّه أكثر نقاوة مما يتنشّقه البشر ، وضمّه أفلاطون إلى العناصر الأربعة ، إلاّ أنّه ورد الثاني في عَدِّه (الإبينوميس ٩٨٤ ، حـ) .

أمّا أرسطو فقد جعل فارقاً مطلقاً بين عناصر الأرض الأربعة والأثير ، ورأى فيه عنصراً عقلانياً مشتركاً بين النجوم والأرواح ، فهو المقوِّم لكل ما في السماء . والأثير عنصر لا ضدّ له ولا كيف ، فهو إذاً غير متغيّر ، والسماء بأفلاكها ونفوس البشر بعقولها خالدة لأنّها من الأثير . وإذا كانت الأجرام السماوية دائمة الحركة فلأنّ لفظة الأثير ، على زعم أرسطو ، تشير إلى حركتها الدائمة [٢٢]

وسادت نظرية أرسطو في العصور التابعة واعتُبر الأثير عنصراً خامساً سامياً ، ففي منحول أرسطو مثلاً ، " في العالم " ، وهو لمؤلّف مجهول من القرن الأوّل ب . م جاء : " نعطي اسم الأثير لجوهر السماء والنجوم ، ليس لأنّه ، كما يريد البعض ، ناري وملتهب ، بل لأنّه في حركة دائمة " .

براهين ألوهية النجوم :

هناك معضلة قائمة لا يُنكر وجودها تجابه العقل كلّما حاول فهم المحسوس المتغيّر ، لأنّ العقل والعلم يُؤْثِران الثوابت لفهم الموضوع ، وكان حلّ أفلاطون أنّه أقام هوّة بين عالَمي المحسوس والمعقول فقال بوجود المُثُل في الملأ الأعلى ، وخصّها بصفات مفارقة ، أمّا أرسطو فقد وجد حل المعضلة في مقدرة العقل على التجريد ، أو قل على امتصاص الصورة من المحسوس واعتبار هذه الرابطة المطابقة للمحسوس ، وهي موضوع فهم المعقول . فكأنّي بأرسطو قد أنزل المُثُل من عليائها ، وأبطل الصفات المفارقة فيها ،

واكتفى بجعلها مفهوماً مجرّداً ونتيجة عملية يحقّقها العقل البشري بصورة طبيعيّة عفوية.
وإذا افتخر الأرسطي على الأفلاطوني بأنّ أرسطو أصلح مذهب أفلاطون، صحّ عند الأفلاطوني الجواب أنّه لولا شطط أفلاطون بمُثُله لربما استحال على أرسطو أن يجد صحيح مفاهيمه.

وكان أهم ما أقنع أرسطو أنّه وحد مذهبه، ما توصّل إليه منطقياً من صفات الأثير، وأنّ ما سعى إليه أفلاطون من ثبات في المُثُل استعاض عنه أرسطو بالمفاهيم المجرّدة عن المحسوس. أمّا عن عالم الأفلاك فقد تأكّد الستاجيري في آخر المطاف أنّ حركاتها التي استعصى عليه فهمها بدت منتظمة وطيّعة للعقل، فاستنتج من كل ما سبق أنّ الأثير قِوام الأجرام السماوية، وهذه ذات نفس وعقل، وأنّ حركتها أزلية أبدية متّسعة دائرية، وإنّما تقوم بذلك بصورة حرة عفوية مطّردة.

وبعد كل هذا هل يُشك بألوهية النجوم؟

يقول أرسطو بهذا الصدد: " ما من موضوع يملأنا إجلالاً مثلما يقع لنا عندما يتعلّق الأمر بالآلهة ... وإذا كنّا ندخل الهياكل بخشوع ... فكم علينا أن نكون على حال أفضل عندما نتكلّم عن الكواكب والنجوم وطبيعة الآلهة لئلاّ نخطئ عن سهو أو عن عدم تبصّر ... ".

ولا يغربنّ عن البال أننا، زمنياً، حول سنتي ٣٤٧ و ٣٤٥، وأنّ ما نقوله الآن عن مفهوم الألوهية عند أرسطو ليس سوى مرحلة عابرة عن تطوّر فكره في هذا الموضوع الجلل، كما بينا فيما سبق (راجع الإلهيات عند أفلاطون وأرسطو) الفصل الرابع من الباب الثاني.

فوارق بين أفلاطون وأرسطو في عبادة النجوم:

إذاً هناك أرسطو الأوّل، أي أرسطو عبادة النجوم، أو أرسطو الضائع كمّا سمّيناه في أوّل بحثنا، وأرسطو هذا مجهول عند أكثر الدارسين حتى الذين يجيدون معرفة أرسطو الثاني، أرسطو الماورائيات

وحدث أنّ أرسطو الأوّل كان الأكثر انتشاراً وشيوعاً طوال العصر الهلّنستي وقليلاً بعده، بينمّا بقي أرسطو الثاني الحقيقي في حلّ مؤلّفاته الخاصة شبه محصور في المدارس الفلسفية القائمة آنذاك وعند من لفّ لفّها، وبقي الأمر على هذا المنوال الى أن قيّض

لأندرُونيكوس الرودسي أن يقوم بنشرة جديدة لمجموعة مؤلّفات أرسطو الثاني المتطوّر ، صاحب المؤلّفات التي بين أيدينا اليوم ، كما مر بنا في الفصل الثاني من الباب الثاني .

وإذا قارنّا بين عبادة النجوم كمّا مهّد لها أفلاطون في " طيماوس " وعزّز تنظيمها في " الإبينوميس " ، وما أحكم أرسطو حبكه وثبّت تركيزه في كتابه " في الفلسفة " في الموضوع نفسه ، بدت لنا فوارق كبيرة نُجمل أهمّها في النقاط التالية :

أولاً ، أزال أرسطو عن نصوص " طيماوس " ومفاهيمه تلك الأساطير والرموز ، وصاغ المبادئ صياغة منطقية واقعية .

ثانياً ، لم يَرُقْ لأرسطو الأسس الرياضية المعقّدة التي لجأ إليها أفلاطون في "طيماوس" و " الإبينوميس " عند شرحه التجانس بين النفوس والنجوم ، وأبطل تلك القرابة السرية بين كل نفس والنجم المعيّن لها ، مكتفياً بواقع التطابق بينها على أساس العنصر الجديد الذي أتى به .

ثالثاً ، كان الأثير العنصر الخامس الجديد الذي خصّه أرسطو بصفات فريدة سامية ، حجر الزاوية في تعليل القرابة بين كل ما هو إلهي في الكون ، وبه نفى كل إمكان في أن تحوي الأجرام السماوية أيّ عنصر من العناصر الأربعة الأرضية المعروفة .

وقصارى القول أنّ أرسطو بدد بشرحه المنطقي الواضح ، وبالأثير الذي جعله وحده عنصراً مقوّماً لعالم ما فوق القمر ، كل ما شوّش تعليم أفلاطون من ضبابية في التعبير ، وتعمية في الفهم ، ولغز في التفسير ، فاتّجه مفكّرو العصور التالية إلى مؤلّف أرسطو أكثر من اتجاههم إلى كتاب أفلاطون . ومن هذا القبيل صح القول " إنّ تأثير أرسطو بكتابه " في الفلسفة " كان أقوى من تأثير " طيماوس " أفلاطون ، في العصور الهلّنستية " (٢٣) .

الشرك والتوحيد عند اليونانيين (٢٤) :

عبد اليونانيون الطبيعة وقواها ، شأنهم في ذلك شأن الشعوب القديمة ، قبل أن يجسّدوا هذه القوى ويشخصوها ويضعوا لها أسماء خاصة بها . فعبادة السماء الحيّة المشرقة تقدّمت (٢٥) عبادة " السماء ـ زَفْس " ، وسبقت إقامة نَصْب أو نَحْت تمثال يُمثّل إله السماء وسيّد الأولمب .

وتبارى الشعراء وتفنّنوا في اختلاق السلالات لآلهتهم واستنباط الأساطير عن أعمالها ، وتنادوا بالعلاقات فيما بينها ، غير مراعين في أغلب الأحيان ضوابط الحياء

وحرمة الأخلاق . وقام مقابل ذلك مفكّرون يتلافون هذا الشطط محاولين أن يخصوا الآلهة بالحكمة والأمانة والعدل والاستقامة .وحاز كسينوفان (+ ٤٨٠) قصب السبق في تطهير الإلهيات ، وسعى بها في الترقّي إلى مستوى الأخلاق الرفيعة ، كمّا أجهد نفسه في مقاومة الخرافات والأساطير التي أُلصقت بالآلهة قائلاً : " إنّ كل ما نسبه هوميروس وهيزْيود إلى الآلهة ليس سوى قذف وتشنيع ، وجّهه البشر إلى الآلهة " . وركّز فيلسوفنا حملته على محاربة " التشبيه " على اختلاف أنواعه ، مقاوماً خلع أيّة صفة بشرية على الله ، وكل محاولة " تشبيهه " بالإنسان ، خوفاً كمّا يقال من محاكاة " الأحباش الذين جعلوا آلهتهم فطس الأنوف سود الجلود " ، وأضاف متهكماً " لوكان للجياد أيد واستطاعت أن تُصوّر مثل البشر ، لرسمت آلهتها أحصنة " (٢٦) .

لقد استحقّ كسينوفان ولا ريب كما مر بنا لقب " أوّل لاهوتي " عند اليونان الوثنيين ، وكان له أثره البالغ في أجيال المفكرين التابعين ، وبنوع أخص في أوربيد (+ ٤٠٥) وأفلاطون (+ ٣٤٧) ، إلاّ أنّه أضرّ ولا شك من حيث لا يدري بخلقه تياراً قوياً معادياً كل أشكال " الشبيه " ، والأرجح أنّه كان السبب الحاسم في نفور أفلاطون من " التشخيص " الذي ، لو كان أخذ به بروية واعتدال في مذهبه ، لكان أتى بلاهوت أشدّ تماسكاً وأثبت أسساً ممّا صنع .

تقلقل لاهوت أفلاطون :

لقد حاول أفلاطون طوال حياته أن يحيي الحس الديني الصافي لدى مواطنيه ، وحسناً فعل ، لكّنه أربك لاهوته بتعدد المفاهيم المفارقة التي أودعها فيه ، فهو لا ينفك عن ذكر " الكائن الأبدي " وكثيراً ما تحدّث عن " مثال الخير " ، وفي قرابة السبعين من عمره ، ألّف كتاب " طيماوس " الذي أتى فيه على ذكر " الديميورج " ، فكان من المحتّم على كل من أنعم النظر في محاورات أفلاطون أن يتساءل : كيف نسّق شيخُ الأكاديمية بين هذه المفاهيم ؟

يقول أفلاطون (٢٧) " إنّ مثال الخير " يعطي الموضوع ماهيته وكيانه (٢٨) ، وإنْ كان لا ماهية له ،على أنّه أسمى من الماهية قوّة ومقاماً " . ولوحظ (٢٩) بحق أنّ أفلاطون يضفي على " مثال الخير " صفات الآلهة ، لكنّه لا يطابق البتة بين المفهومين ،

لا بل ، كما يبدو من بعض النصوص ، اعتبر " مثال الخير " أسمى من الله وجعل هذا يتأمل " المثال " ويقتدي به في كل ما يعمل . أمّا " الديميورج " فصاحب الأكاديمية يضعه في قمّة ما هو إلهي دون أن يقول بالتطابق بينه وبين " مثال الخير " ، وعلاوة على ذلك يصعب جداً التوفيق بين " مثال الخير " المجرّد " و " الديميورج " المشخّص .

يتضّح من كل ما سبق أنّ أفلاطون وقف في منتصف الطريق متردّداً ، وقد صدّه حظر كسينوفان الذي نوهّنا به عن إكمال شوطه فدار حول الموضوع أكثر من مرّة وجرّب أكثر من حل دون أن ينجح .

التجريد في لاهوت أرسطو :

غالباً ما كان أرسطو أقلّ إطناباً في موضوع الإلهيات ، ولكنّه دون ريب أوفر دقّة وأكثر دسماً رغم كل ما يؤخذ عليه في هذا الصدد ، لأنّه غالباً ما استطاع بفضل جهوده أن يُرضي عقول الوثنيين ، لكنّه لم يبلّ غلّة النفوس بسبب تجريده ، على أنّه أتى بنفائس قلّ أن توصّل إليها غيره . فقوله : " في الله العاقلُ والمعقول والعقل واحد " محاولة فذّة لوصف البساطة المطلقة في الله ونفى كل تعددية فيه . وفي قوله " إنّ الله روح ، أو هو ما بعد الروح " تساؤل لجوج عن إمكان قيام حقيقة أكثر سموًّا من الروح عساها أن تكون أكثر لياقة في وصف الله . بل وتروقنا مفارقاته لما تحوي من غنى وبُعد غور ، كما جاء مثلاً في " أخلاق نيقوماخ " قوله : " إنّه لا يصح القول عن الله إنّه فاضل لأنّ الصفات عند الله ليست وسطاً بين إفراطين شأن ما هو حاصل عند البشر . ... "

ومعلوم أنّ أرسطو انتهى في إلهياته إلى الإغراق في التجريد فقال " بالمحرّك الأول " تاركاً الفكر حائراً في فهم كنهه .

وتخطّى النفور من كل أنواع " التشبيه والتشخيص " ، الذي سنّه كسينوفان ، إبانَ القرون الوثنية إلى عصور ما بعد الميلاد : فهذا أفلوطين (+ ٢٧٠ ب.م.) رمزُ " مجد الفكر الوثني " في الربوبيات يقوم بمحاولة أخيرة رائعة سالكاً الطريق نفسه ، وإنّنا دون أن نستبق ما سوف نفصّله عنه في حينه نقول : إنّه بزخم متفرّد توغّل في التجريد ليصل في توقه إلى ذروة " الواحد " .

أمّا النصرانية فلم تُبتل برهاب " التشبيه " و " التشخيص " ، وقد تأثرت ولا شكّ " بحدث تأنس الكلمة " ، فأطلقت على الله صفات " مشخّصة " لاعتقادها أنّ الإنسان

لن يجد بين مفاهيم البشر معنى أكمل وأسمى يستطيع بواسطته - لو أمكنه - أن يقلّص المسافة القائمة بين فقر تطلّعات الإنسانية وغنى ما يمكن أن يتصوّره العقل من كمال في الألوهية .

الخاتمة :

وإننا إذا حاولنا تلخيص موقف أفلاطون وأرسطو تجاه الشرك والتوحيد أمكننا القول مع بعض المقارنة بين العملاقين :

أوّلاً ، يبدو الشرك عند أفلاطون أكثر وضوحاً منه عند أرسطو بسبب تعدّد المفاهيم السامية دون ضابط عند صاحب الأكاديمية وإكثاره من الرموز والخرافات الميثولوجية .

ثانياً ، كان سعي أفلاطون إلى التوحيد مقروناً بمراعاة الشرك الشعبي أكثر من أرسطو ، فجاء لاهوته متقلقلاً حتى وصل به أحياناً حدَّ التناقض .

ثالثاً ، قد يكون التوحيد أكثر وضوحاً عند أرسطو ، إلاّ أنّه نزع أكثر فأكثر ، على توالي الأيّام ، إلى الإغراق في التجريد فغاص في الإبهام .

نقول هذا حصراً عن ركنَيْ الفلسفة اليونانية خلال عصرها الكلاسيكي ، أمّا إذا أردنا التعميم فبوسعنا أن نقول : هناك سببان أساسيان أعاقا الفكر الوثني اليوناني عن التخلّص من الشرك ، أوّلاً الاعتقاد باستحالة الإبداع (أي الخَلْق من العدم) ، وثانياً القول بأزلية المادة .

ولسنا نرى أفضل خلاصة تدلّل على تطوّر الفكر اليوناني خلال العصور ، وتلخّص الموضوع في نظرنا ممّا جاء في هاتين العبارتين الشاملتين : " شرك متّجه نوعاً ما إلى الإله الواحد الحق " (٣٠) ، و" واحد هو الله ، ولا وجود لغيره ، والله هو الكائن : هذا هو حجر الزاوية لكل الفلسفة المسيحية ، وليس أفلاطون ، حتى ولا أرسطو بل (موسى) الكليم هو الذي أكّد ذلك " (٣١) .

الحواشي :

١ - قال أرسطو بعبادة النجوم عندما كان لم يبرح بعد تحت تأثير معلمه أفلاطون ، وقبل أن يؤلف " الماورائيات " وبه توصل إلى القول " بالمحرك الأول " (راجع الفصل الثاني من الباب العاشر) ، وفي الفصل المذكور عرضنا أمر مؤلّفات أرسطو الخاصة والعامة (الضائعة) ، وذكرنا ماذا يجب أن نفهم من القول بجهلها قبل أن ينشرها أندرونيكوس الرودسي سنة ٦٠ ق.م. .

٢ – ذكر أرسطو لمعلمه أفلاطون ، ما عدا التعليمين الخاص والعام المدوّنين ، نصاً ثالثاً غير مكتوب يُعرف بالتعليم السرّي ، كان يتناول علاقة المُثل بالأعداد . وأفضل مَن شرح هذا التعليم ليون روبان الذي خلص إلى القول إنّ ذلك التعليم لم يكن سوى مرحلة ستؤدّي عند أتباع أفلاطون إلى المذهب المعروف بالأفلاطونية المستحدثة .

راجع : LÉON ROBIN , La théorie platonicienne des idées et des nombres d ' aprés Aristote

٣ – من مؤلّفات أرسطو الضائعة التي لم نذكرها في المتن " غريللوس " Grillos الذي نقد فيه أستاذ الخطابة الشهير إيزوقراط الذي كان يعلّم آنذاك في أثينة ، و " في السياسة " و " في العدل " . وأكثر هذه المؤلّفات كتبت في الأكاديمية على شكل محاورات حاكى فيها أرسطو أسلوب معلمه وأفكاره .

٤ – أسماء هذه المؤلفات هي بالتتابع : Eudéme Protréptique De la philosophie

٥ – Phédon اوفادن كما جاء لدى المؤلفين العرب ، وموضوع الحوار ، كما هو معروف ، خلود النفس وفيه سرد آخر حديث لسقراط قبل تجرعه الشوكران القتال ، راجع الفصل الرابع من الباب الثاني .

٦ – راجع : FESTUGIÈRE , R.H.T. , II , p . 168

٧ – تاريخ العلم ، III ، ص ١٨٩ .

٨ – Epinomis

٩ – أعاد أرسطو القول بالعود الأبدي في كتابه " الآثار العلوية " (١ ، ٣) . راجع :

FESTUGIÈRE , R.H.T., II, p . 99 , n I : DES PLACES , La religion grecque , p . 349 .

ومن الفلاسفة المحدثين الذين قالوا بالعود الأبدي الإيطالي فِيْكُو (+ ١٧٤٤) والألماني نيتشه (+ ١٩٠٠) .

١٠ – فستوجيير ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

١٢ – Monade et Dyade

١٣ – راجع : JACQUES CHEVALLER , Histoire de la pensée , I , pp, . 208 344 : P . AUBENQUE dans Encycl . Pléiade : Philos ., I , p . 631 ss .

١٤ – AUBENQUE , Ibid ., p. 634 .

١٥ - Encycl . Universalis , art . Astronomie , vol . II , p. 689 , col . 2 .

١٦ - فستوجيير ، المرجع المذكور ، ص ١٠٥ ، ٢٢٧ .

١٧ - Encycl . Pléiade : Philos ., I , p. 591 .

١٨ - جمع فستوجيير شذرات مؤلّفات أرسطو الضائعة فقمّشها وبوّبها فكانت لنا عوناً كبيراً .راجع كتابه المذكور ، ص ٢١٩ - ٢٥٩ .

١٩ - لربّما اعتقد أرسطو في هذه المقالة بأنّ الحركة الدائرية أبدية متحرّكة بذاتها . ولكّنه قال فيما بعد إنّ مثل هذه الحركة أيضاً تحتاج الى محرّك أوّل .

٢٠ - الكلمة يونانية هي αιθηρ .

٢١ - عن موضوع الأثير في الإبينوميس راجع :

CUMONT .Les religions orientales .., p. 142 et p . 280, n . 54 .

في هذا السفر يقول المؤلّف بتأثّر الإبينوميس بأفكار سامية ، بينما ينفي ذلك دي بلاس في ملاحظة عن الابينوميس . (éd . Budé , p . 114 , n . 3 .) .

٢٢ - إنّ اللفظة في زعم أرسطو تأتي من αει θειν

٢٣ - فستوجير ، المرجع المذكور ، II ، ص ٢٥٨ .

٢٤ - عن تطوّر فكرة الألوهية عند بعض الشعراء والمفكّرين والفلاسفة اليونانيين الذين سبقوا أرسطو راجع الفصل الثالث من الباب الثاني : الإلهيات عند أفلاطون وأرسطو .

٢٥ - من الطريف أن نسجّل توافقاً كبيراً لاحظه (دي بلاس) بين أوسابيوس المؤرّخ (من القرن الرابع ب.م.) و (كوك) صاحب أكمل دراسة عن الديانة القديمة ، وزَفْس في العصر الحاضر ، فكلاهما يرى أنّ عبادة الطبيعة الحية سبقت عهد التشبيه (تشبيه الآلهة بالبشر) والتجسيم (اللجوء الى الأنصاب والتماثيل) .

راجع : DES PLACES , La religion grecque , p. 23 , n . 2 , p. 258 .

٢٦ - LÉON ROBIN , La pensée grecque , 1928 , pp . 97 , 98 .

٢٧ - أفلاطون ، الجمهورية ، ٦ ، ٥٠٩ ب .

٢٨ - يلاحظ جان ويل بحقّ أنّ لفظة ουσια هنا عند أفلاطون تعني الماهية والوجود معاً . راجع : Encycl . Pléiade : Philos ., I , p . 498 .

٢٩ - لقد أخذنا بتفسير دي بلاس في هذا الموضوع الشائك ، لأنه في اعتقادنا أقرب إلى نصوص أفلاطون وأكثر حصراً لمعناها .

٣٠ - A . BREMOND , La piété grecque , p . 201 .

٣١ - ETIENNE GILSON , L' esprit de la philosophie médiévale , éd . 1944 , p . 51 .

ولنا تعليق على لفظة " الكائن " الواردة في المتن ، وهي ذات رنّة فلسفية ، نتيجة الترجمة السبعينية ، وسوف نفصّل ذلك في حينه في تضاعيف كلامنا عن الثقافة الإسكندرانية في العصر الهلّنستي .

الفصل الثالث :

الهرمسية وأثرها في العصر العباسي

الهرمسية :

إنّ الذين يرجعون في دراساتهم إلى كتاب ابن جُلْجُل (+ القرن ١٠) " طبقات الأطباء والحكماء " ، أو " فهرِسْت " ابن النديم (+ ١٠٠٠) ، أو إلى كتاب القفطي (+ ١٢٤٨) " إخبار العلماء بأخبار الحكماء " ، أو إلى ابن أبي أصيبعة (+ ١٢٦٩) في مؤلّفه " عيون الأنباء في طبقات الأطباء " ، يلاحظون - دون أن يُعيروا الأمر كبير اهتمامهم - أنّ هؤلاء جميعاً خصّصوا مقاطع أو صفحاتٍ لشخصية غريبة تُدعى هرمس (Hermès) ، ومنهم مَنْ عدّد أكثر من شخص واحد بهذا الاسم ، كابن جلجل الذي جعل الهرامسة ثلاثة ، مثلما سيفعل القفطي وابن أبي أصيبعة بعده ، ومنهم من اكتفى بواحد فقط كابن النديم (١) .

ولا حاجة إلى ذكر ما جاء لدى القفطي ، لأنّ ابن أبي أصيبعة الذي يدور حوله بحثنا ينقل الكثير عنه ، وفي بعض المقاطع بالحرف الواحد ، فيما يعود إلى الهرامسة وأصل الحكمة والعلوم والطب عند البشر .

فهرمس الأوّل ، " وهو المثلّث بالنعم ، كان قبل الطوفان ... إنّ الفرس يذكرون أنّ جدّه كيومرث وهو آدم ، ويذكر العبرانيون أنّه أخنوخ ، وهو بالعربية إدريس ، وهرمس هذا درس الكتب ونظر في العلوم ، وأنزل الله عليه ثلاثين صفحة ، وهو أوّل من خاط الثياب ولبسها " (٢) .

وهرمس الثاني ، " هو بعد الطوفان ، وكان بارعاً في علوم الطب والفلسفة وعارفاً بطبائع الأعداد ، وكان تلميذه فيثاغور الأرثماطيقي ، وهو الذي جدّد من هذه العلوم ما كان قد دثر بالطوفان ببابل " (٣) .

أمّا هرمس الثالث ، " فإنّه سكن مدينة مصر ... وكان طبيباً فيلسوفاً وعالماً بطبائع الأدوية القتّالة والحيوانات المؤذية ... له كلام حسن في صناعة الكيمياء ، نفيس ، يتعلّق (كذا) منه إلى (كذا) صناعات كثيرة ، كالزجاج والخرز والنضار وما أشبه ذلك . وكان له تلميذ يعرف بإسقلبيوس Esculape ، وكان مسكنه بأرض الشام " (٤) .

وهناك استشهادات كثيرة جاءت عند ابن أبي أصيبعة ، راجعة إلى الموضوع نفسه ، نُقلت عن أبي معشر البلخي ، لا نذكرها ، لأنّه من المعروف أنّ أبا معشر كان مولعاً بالغرائب ، على أنّ ما أتينا به يكفي لإظهار الخبط العشوائي الذي يمسح الأزمنة والأمكنة وسلالات البشر وحقبات تطوّر المعارف والعلوم . إنّما ، والحق يقال ، لا حريرة على المؤلفين العرب في ذلك ، لأنّ أكثر هذه الأساطير وصلت إليهم من العصر الهلّنستي ، وإن كان لدينا شواهد على أنّهم خلطوا بين هذه الخرافات ، لا بل حاولوا توفيقها مع غيرها من الأساطير التي وصلتهم عن طريق الفرس وغيرهم ، ونحن بدورنا وقفنا بحيرة أمام هذه المعميات ، وإن استطعنا تصحيح بعض الأغلاط الفادحة ، فلم نجعل مثلاً فيثاغور تلميذاً لهرمس الثاني بعد الطوفان ، و لم نقل إنّ آدم جد كيومرت ، إلخ ...وكان من حسن حظ المعرفة أنّ بعض العلماء الأعلام مثل روسكا ، وكراوس ، وكوربان ، ونوك ، وفستوجيير ، قد أكبّوا منذ أكثر من قرن ، على درس الهرمسيات فأحلوا أكثر غوامضها .

الجذور الميثولوجية :

ليس هرمس سوى أحد صغار آلهة الميثولوجية اليونانية المزدوجي الشخصية فهو ساعي آلهة الأولمب ، وحامل أوامر الآلهة ورسائلها ، وحامي التجّار ، ومرشد المسافرين إلى الطرق من جهة ، وقائد النفوس إلى المساكن السفلى بعد الموت من جهة ثانية .

وكان من نتائج الفتح الإسكندري اختلاط السكّان وتمازج المعتقدات والعبادات وظهور نزعة توفيقية جارفة في العصر الهلّنستي لا نعرف مثيلاً لها في التاريخ . فاليوناني مثلاً ، إذا سأل المصري عن شفاعات بعض آلهته ، عمد طبعاً إلى المقارنة بين إلهه والإله المصري ، فينزلق دون تعمّد إلى التوفيق بين الاثنين إن رأى ثمّة تشابهاً بينهما ، فحَدَد (Hadad) – الإله السوري – وُحِّد مع زَفْس (Zeus) اليوناني ، وجوبيتير (Jupiter) الروماني ، للتشابه في زعامة الآلهة ، وأتارغاتيس (Atargatis) ، ربّة موبوج (منبج) السورية امتزجت بأفروديت (Aphrodite) اليونانية وفينوس (Vénus) الرومانية ، للتماثل في الصفات والاختصاص . ومن الطريف حقّاً أن يتمّ الدمج بين إلهين بناءً على التشابه في مخرج الصوت ، بين اسم ولقب في لغتين مختلفتين ، كما حدث بين سابازيوس (Sabazios) ، أحد آلهة آسيا الصغرى ، وصباؤوت (Sabaoth) – ربّ الجنود – لقب يهوه إله العبرانيين (٥) .

وبديهي أن يحصل في الدمج تبادل وخلط في الوظائف بين إلهين ، مثلما حصل بالضبط بين هرمس اليوناني وتوت (Thoth) المصري . فتوت كان كاتب الآلهة عند المصريين ، من مهامّه الحضور مع الآلهة عملية وزن قلب الميت في العالم الأسفل عند المحاكمة ، وتسجيل حكم الآلهة وحفظه في السجلاّت . وانطلاقاً من هذه المهمّة ومن وظيفة هرمس الساعي وناقل أوامر الآلهة ورسائلها ، أصبح هرمس - توت (. Hermès Thoth) ، مخترع الكتابة وناشر العلوم والفنون والمؤتمن على التعاليم السرية المحفوظة في الهياكل ، مثل صيَغ التعاويذ والتعازيم والسحر والعلوم من طب وتنجيم وخيمياء . وعُدَّ هرمس ــ توت الملقّن الأكبر لأسرار التيوصوفية (Théosophie) وأساليب التيورجية (Théurgie) ، إلخ ، ونُسبت إليه ، علاوة على ذلك ، مجموعة الاثنين والأربعين كتاباً المحفوظة في هيكل هرمويوليس (أي مدينة هرمس) والحاوية مبادئ العلوم كلّها . واتّسعت المعارف الهرمسية وتبلورت حولها أساطير القرون الهلنستية والرومانية وخرافاتهما .

ونمت أسرة هرمس - توت وازدهرت عبر العصور ، وهل يمكن أن يحصل غير ذلك للآلهة المحسنين ؟ وعدَّ النسّابون الثقة أربعة أجيال لهرمس : هرمس - توت الأوّل الذي استنبط الكتابة وعلّمها البشر ، وعمد ــ حفاظاً على تعاليمه ــ إلى حفرها على الأنصاب ، مستعملاً الحروف المقدّسة ، أي الهيروغليفية ، وأغاتوديمون (Agathodémon) بن هرمس الأوّل ، وقد تبع خطّة أبيه تماماً فلم يُذكر عنه شيء ؛ وهرمس الثاني الذي كان بعد الطوفان ، وإذ أصبحت الكتابة المقدّسة صعبة الفهم فسَّر تعاليم جدّه ودوَّنها بالأحرف الهيراتيقية في كتب أودعها الهياكل المصرية ، وتات (Tat) بن هرمس الثاني ، وقد ورد ذكره مرّات في التعاليم الهرمسية ،وله تطبيقات علمية وعملية شتّى .

وإذا تساءلنا هل حاول ابن أبي أصيبعة استجلاء أمر الهرمسية نجيب : لا نظنّ . ولو افترضنا أنّه أراد ذلك لما استطاع ، وجُلّ ما يمكن أن نفترضه – وفي أحسن الاحتمالات – أنّ مؤلّفنا - وهو من القرن الثالث عشر ، عصرِ أشدّ البلايا والنكبات على العرب - أحسّ بالكارثة الكبرى الآتية من أواسط آسيا عندما يمّم هولاكو وجهه شطر غربي آسيا ليدخل بغداد سنة ١٢٥٨ ، أي قبل موت ابن أبي أصيبعة ، بإحدى عشرة سنة ، وكأنّي به قد وعى قرب أُفول شمس الحضارة العباسيّة فأراد أن يدوّن وثيقة

أمجادها لتبقى بعد الطوفان المغولي شاهداً على ما كان عليه العلم في أيّام تفتحها وازدهارها .

الهرمسية والحضارة العباسيّة :

كانت الحضارة العبّاسية أشبه ببحر تدفقت إليه أنهر العلوم وأساطير الأمم المختلفة من كل حدب وصوب . وكان الوسطاء كُثُراً ، فكلّ أمة وملة وكلّ حامل ثقافة من مختلف الأمم والنحل أتى ببضاعته إلى بغداد ، من نساطرة ويعاقبة وصابئة ومجوس وغيرهم ، ومن حَمَلة الغنوص (Gnose) الآرامي الهلّنستيّ الذي كان قد مثّله أحسن تمثيل ابن ديصان (Bardisane القرن ٢ب.م.) ، وهو " لا يقبل المساومة بالجبرية النجومية " (٦) ، وماني (+ ٢٧٧) صاحب التلفيق الديني الغريب الذي اضطهد المهدي أتباعه ناعتاً إياهم بالزندقة . ولا ننس إسهام الفرس الكبير ، ومنهم الزرادشتي وفيهم المسيحي ، وكانوا يعملون معاً بتشجيع الأكاسرة قبل الفتح . ولا نهمل الحرانيين عبدة القمر ، وبهم تمثّلت الحقبة الأخيرة للتنجيم الهلّنستيّ الوثني قبل أن يشتهر منهم الفلكي المسلم الكبير البتاني (+ ٩٢٩) نسبة لبلده بتان من مقاطعات حران .

كلّ هذه المعطيات العلمية والأسطورية كانت قد اختلطت وتفاعلت بعناصر شرقية سحيقة في القدم ، من تنجيم وسحر بابليّيْن ، وامتزجت بعناصر شامانية (Chamaneéns) آتية من أواسط آسيا ، وثنائية فارسيّة ، وتقنيات خيمائية (Alchimiques) مصرية رفدتها الأساطير اليونانية ، واضفى عليها العصر الهلنستيّ مسحة رقيقة من العقلانية اليونانية ، فنتج هذا المزيج الأُنف العجيب الذي ندعوه بالهرمسية الهلنستية (Hermétisme héllénistique) ، وقد اطلّعنا على بعض آثارها في الصفحات الأولى من " عيون الأنباء " .

افرد ابن أبي أصيبعة في كتابه سبع صفحات من الحجم الكبير (٧) لموضوع هرمسي تقليدي هو أصل المعرفة عامة والطب خاصة .وكان القفطي أكثر حكمة عندما عالج الموضوع نفسه باقتضاب كلّي ثمّ قال : " واعلم ، وفّقك الله ، أنّ الكلام عن أوّلية الطب ، ومَنْ أحدثه ، وفي أيّ زمن وُجِد ، عسر جداً " (٨) .

اتّبع ابن أبي أصيبعة تقسيم القفطي بخطوطه الكبرى ، لكنّه توسّع فيها كثيراً ، مورداً الشواهد والقصص . ويجمل ما ورد عنده في الموضوع أنّ قوماً يقولون بقِدَم صناعة الطب ، مثل خلق الإنسان ، وغيرهم يقولون بحدوثها ، وهؤلاء يرون أنّها تزامنت

وخلق الإنسان ، أو استنبطت بعدَ الخلق ، وأنّ الله ألهمها بواسطة الرؤى أو الأحلام أو إيحاء بعض التجارب الناجحة ، وبعضهم يقول : إن هرمس استخرج سائر الصنائع والفلسفة والطب (ص ١٢) . ويختتم مؤلّفنا بحثه قائلاً بتعبير متقلقل : " أمّا نحن فالأصوب عندنا والأولى أن نقول : إنّ الله تبارك وتعالى خلق صناعة الطب وألهمها الناس ، وذلك أنّه لا يمكن في مثل هذا العلم الجليل أن يُدركه عقلُ الإنسان ، لكنّ الله تبارك وتعالى هو الخالق الذي هو بالحقيقة فقط خلقه ، وذلك أنّا لا نجد الطب أحسنَ من الفلسفة التي يرون أنّ استخراجَها كان من عندِ الله تبارك وتعالى " (ص ١٣) . وهكذا يمكننا اعتبار ابن أبي أصيبعة هرمسياً روحاً ، وإن لم يكن حرفياً .

وعادة ما تُقسم اليومَ المجموعة الهرمسية التي وصلت إلينا ، رغم التشابك بين أجزائها ، إلى هرمسية علمية تتناول المواضيع الفلسفية ومواضيع الربوبية ، وهرمسية شعبية تبحث مبادئ الطب والتنجيم والخيمياء والسحر وما إلى ذلك . وهناك فروع عديدة تتشعّب عن كلّ قسم ، كالطب التنجيمي والنباتات التنجيمية والتيوصوفية والتيورجية ، وكلّ هذه المعارف تلفّها النزعة الغنوصية التي شملت العصر الهلنستي كلّه في الشرق والغرب معاً ، قبل أن تصل إلى العرب .

ومهما يكن من قيمة هذه المجموعة ، من حيث العلم الحقيقي ، لا يسعنا إلاّ أن نعتبر أنّه ليس مثل الهرمسية وسيلة تُطلع دارسيها على جذور المعتقدات والأساطير وخلفيّات الممارسات الدينية والدوافع العميقة لسلوك الأمم التي عاشت بدءًا من العصور الهلّنستية . وهل من حاجة إلى ذكر مدى تأثير الهرمسية في المذاهب الفلسفية والشيع والبدع الدينية ، في اليهودية والنصرانية والإسلام ومدارس التصوف والإشراق ، سواء في الشرق أو في الغرب ؟ ولن نتردّد في القول : إنّ الهرمسيّة رأس المواضيع الواجب الإحاطة بها عند دراسة العصر الهلّنستي لإجادة فهمه . فكيف نُقّوم محاولات الغنوصية دكّ العقائد المسيحية دون معرفة الهرمسية ، وكيف نجيد فهم صوفية جلال الدين الرومي ورسائل إخوان الصفا والبدع المغالية في النصرانية والإسلام دون الإطلاع الواسع على الهرمسية ؟ فإنّ الأديان الموحِّدة والفلسفة والعلوم والفنون والبدع أخذت عن العصر الهلّنستي الكثير من الصيغ والمصطلحات للتعبير عن ذاتيتها .

بواعث الهرمسية :

ورُبَّ سائلٍ عن بواعث هذا التيّار الهرمسي الطاغي العارم عقب تألّق الحضارة اليونانية . لا شكّ أنّ اليونانيين أدهشوا العالم وقد بلغت حضارتهم السِمْت قبل الميلاد ، في القرن الرابع مع أفلاطون (+ ٣٤٧ ق.م) وأرسطو (+ ٣٢٢ ق.م) ، والثالث مع هيروفيل (+ ٢٩٠ ق.م) وأوكليد (+ ٢٨٣ ق.م) وأرخميدس (+ ٢١٢ ق.م) ،وانتهى هذا التألّق بموت أراتوستين (+ ١٩٥ ق.م) . إلاّ أنّ مدارس الشكّاك ومذاهب الاحتمالية الفلسفية تمكّنت في آخر المطاف من زعزعة الفكر اليوناني ، فأفقدته الثقة بنفسه ، فجنح إلى الغيبيّات مع بولس الخيميائي (حول ٢٠٠ ق.م.) في مصر . ونهجت مدارس الفكر الفلسفي اليوناني أسلوب التوفيق بل التلفيق بين المذاهب ، فظهرت في القرن الأوّل قبل الميلاد الفيثاغورية الجديدة بضبابية معتقداتها ، فكانت كارثة على العقل البشري ، فغزت نواة الهرمسية القائمة (٩) .

وكان القرن الثاني الميلادي عصر الغنوص الذي حاول مزج الأساطير بالدين المسيحي ، وبرزت فيه بوادر الأفلاطونية المستحدثة . ولسنا نرى في القرن الثالث من غنى يذكر إذا استثنينا العلَمَيْن الكبيرين ، أوريجانوس المسيحي (+ ٢٥٤ ب.م.) ، وأفلوطين الوثني " رائد الوحدانية " (+ ٢٧٠ ب.م.) .

ولا يغربنّ عن فكرنا أنّ القرن الثالث هذا كان قرن الفوضى السياسية ،كثر فيه العصيان في الجيش الروماني ، وتتابع تنازع القوّاد على السلطة ، وفيه أيضاً بلغ تغلغل العبادات الوثنيّة الشرقيّة أشُدَّه في رومة ، بمساندة السلالة السيفيرية (١٩٣ – ٢٣٥ ب.م .)، نصف السورية ، بعد أن تمكّنت من اعتلاء عرش الإمبراطورية الرومانية (١٠) .

وإذا أردنا أن ندرك كنه المهابة التي اصطنعتها حضارة النيل في نفوس الإغريق ، على إثر التمازج الضخم الذي تبع الفتح الإسكندري ، وأن نفهم قدر ما وعاه اليونانيون بالمقارنة من فارق بين حداثة تاريخهم وحضارة الشرق السحيقة في القدم ، بعد أن بهرتهم الديانات الشرقية بشعائرها وطقوسها ، ورأوا البون الشاسع بين جفاف عباداتهم المعتمدة التجريد ، والعاطفة الجيّاشة التي رأوها تغلّف كل مظاهر تديّن المصريين ، قلنا كان يقينهم أنّ هذه العبادات والطقوس ما زالت تمارس منذ قرون عديدة ، هي هي ، على روعتها وجلالها . وإنّنا لنجد عند أفلاطون قولاً ممتعاً يشير بوضوح إلى ذلك ، وَرَدَ في محاورة " طيماوس " ، وجهّهَ أحد شيوخ كهّان هيكل سَائِيس في مصر إلى صولُوْن (+ ٥٥٦ ق.م.) مُشَرِّع أثينة الأكبر ، بعد أن سمع منه

حديثاً عن ماضي أمّة اليونان ، فقال : " صولـون ، صولـون ، أنتم اليونـانيين ستبقون أطفالاً ولن تشيخوا ، لأنّه ليس عندكم من آراء عَتّقَتْها الأيّام " (١١) .

نعم ، لقد كانت كلّ هذه الاعتبارات دوافع فعّالة روّجت لأساطير الهرمسية الشرقية وخرافاتها بعد أن تبيّن عجز العقل ، في مذاهب الفلسفة ، عن توفير اليقين للناس ، نتيجةً للتناقض بين أقوال مختلف مدارسها الفلسفية .

التنجيم البابلي :

عرف اليونانيون التنجيم على مدى واسع بعد الفتح الإسكندري ، وكان قد غمر الشرق كلّه ، ولعلّ أجمل وَصْف له " أنّه مزيج من تعليم فلسفي حذّاب ، وخرافات غير معقولة ، وأساليب علمية (حساب مواقع النجوم) ، تُستعمل في غير موضعها " .

ويعتمد التنجيم مبدأ وحدة الكون وارتباط أقسامه والتعاطف بين كل أجزائه ، ومعلوم أنّ التنجيم القديم لا يفرّق بين الأحياء والجوامد ، فكلّ الكائنات حيّة بحياة خفيّة تعمل باطّراد فيها ، كما أنّ هذه الكائنات على تفاعل دائم فيما بينها . وهناك علاقات وروابط خفيّة قائمة بين عالَمَيْ ما تحت القمر وما فوقه : فالعالم الأسفل يغذّي الملأ الأعلى بفَوْحاته المتصاعدة أبداً من الأرض ، بينما تؤثّر النجوم والكواكب في كلّ الكائنات السفلى .

وتَبنّى التنجيمُ البابلي نظرةَ فلاسفة الإغريق إلى العوالم ، وميّز بين العالم الكبير (الكون) والعالم الصغير (الإنسان) ، وتَفنّن في رَبْط تأثيرات كل جرم سماوي بعضو معيّن من أعضاء الإنسان : ففي التنجيم الهرمسي مثلاً يُعتقد أنّ المنزل الثالث من برج الجوزاء يُسبّب أوجاعاً عضلية ، والمنزل الأوّل من برج السرطان يُثير الأوجاع في الأوعية الدموية ، والثالث أمراض القلب ، والمنزل الأول من برج الأسد متسلّط على المعدة . أمّا التنجيم الكوكبي فيدّعي أنّه عند الحبل ، تتدفّق من الكواكب السبعة مجموعة معقّدة من الأشعة نحو كل جزء من الإنسان ، ويحدث الشيء نفسه ساعةَ الولادة بحسب مواقع أجرام المجموعة الكوكبية .

دور الفلاسفة السوريين :

لعب ثلاثة من الفلاسفة الوثنيين السوريين دوراً كبيراً في تطوّر الخرافات التنجيمية : الأوّل هو بوسيدونيوس (+ ٥٠ ق.م. POSSIDONIUS) ، وهو رواقي من أفامية

(قلعة المضيق اليوم) ، وعالِم كبير إلى جانب اعتقاده الراسخ بالتنجيم . وهو واضع النظرية الفلسفية في التعاطف التي سيكون لها شأن خطير جداً في التنجيم ، وسيُعطيها بروقلس (+ ٤٨٥ ب.م.) فيما بعد صيغتها النهائية التامة . ويُعتبر بوسيدونيوس المسؤول الأوّل عن ترويج هذا العلم بين الطبقات الرومانية العليا ، حتى انحرف فيه يوليوس قيصر ، وأوغسطوس ، وطيباريوس ، وغيرهم . ثمّ انتقل التنجيم من رومة إلى بيزنطية رغم مقاومة الكنيسة إياه (١٢) .

والثاني هو نومينيوس (Numénius) ، من القرن الثاني الميلادي وهو من أفامية كذلك . كان أفلاطونياً ، وطَوَّر تعليم بوسيدونيوس وقال : إنّ نفوس البشر عند هبوطها من عالم المُثل إلى الأرض تمرّ بأفلاك الكواكب السبعة ، فتأخذ منها الفضائل الفلكية ، إلاّ إذا كانت في حياتها قد قبلت تلقين الأسرار ، فترتقي إذ ذاك وتخلع عنها الرذائل لتدخل السماء الثامنة حيث السعادة .

واشتهر نومينيوس بخلطه بين حضارات الشعوب ، وكان ديدنه أن يُرجع كل ما أتى به الفكر اليوناني إلى التعاليم الشرقية القديمة ، معتمداً في تلفيقاته الفلسفية عناصر استمدّها من البراهمانية والمجوس ومصر الفرعونية ولا سيّما من العبرانيين . وهذه النزعة الأخيرة جعلته يعتقد أنّ ما أتى به أفلاطون عن الربوبية والموجودات مأخوذ من موسى العهد القديم ، واشتهر قوله بهذا الصدد : " ليس أفلاطون سوى موسى ثانٍ تكلّم اليونانية " (١٣) .

أمّا الثالث فهو يمليخوس القنسريني (+ ٣٣٠ ب.م. Jamblique) . الذي أسّس مدرسته الفلسفية في أفامية ، وهو من المسؤولين عن الانحطاط الذي أصاب الأفلاطونية المستحدثة ، وقد انصرف أتباعه وتلاميذه في الشرق عامة وفي أثينة خاصة عن التفكير الفلسفي الرصين إلى اصطناع الشعوذات وأعمال السحر ، مثل نشر الروائح الذكية في قاعة المريدين ، وإسماع أصوات شبيهة بقصف الرعد ، وإحداث هزّات أرضية محلّية ، فضلاً عن مناجاة الأرواح ، واستحضار الآلهة . وأُطلق على هذه الشعوذات اسم جديد فسُمّيت تيورجية ، على أنّها من صنع الآلهة ، إمعاناً في التمويه . ولمّا استفحل الأمر في أثينة أقدم الإمبراطور يوستنيانس على إغلاق تلك المدارس سنة ٥٢٩ . ولم يشمل هذا الحظر الإمبراطوري ، كما هو معروف ، مدارس الإسكندرية الفلسفية ، فدام فيها التعليم حتى الفتح العربي ، قبل انتقال بعض أساتذتها وتلامذتها إلى أنطاكية وحران ثمّ إلى بغداد [راجع ما ذكرناه سابقاً في (التوطئة)] .

الطب التنجيمي :

دفع رَبْط أعضاء الإنسان بتأثيرات الكواكب والنجوم إلى ظهور الطب التنجيمي ، ونجد عند ابن أبي أصيبعة نموذجاً لذلك . فقد جاء في حياة جبرائيل بن بختيشوع نقلاً عن ابن الداية " أنّه كان لأم جعفر بنتِ أبي الفضل ، في قصر عيسى بن علي الذي كانت تسكنه ، مجلسٌ لا يجلس فيه إلاّ الحُسَّاب (أي المنجمون) والمتطّببون ، وكانت لا تشتكي علّة إلى متطبّب حتّى يحضر جميع أهل الصناعتين ... ثم تشتكي ما تجد ، فيتناظر المتطببون فيما بينهم حتى يجتمعوا على العلّة والعلاج . فإن كان بينهم اختلاف دخل الحُسَّاب بينهم ، وقالوا بتصديق المصيب عندهم . ثم تسأل الحُسَّاب عن اختيار الوقت لذلك العلاج ... واختار الحُسّاب لها يوماً تحتجم فيه ... " (١٤) .

وفي الصفحة ٢٠٧ يقول ابن أبي أصيبعة : " ونقلتُ عن بعض الكتب أنّ بختيشوع (ابن جبرائيل) كان يأمر بالحقن ، والقمر متصل بالذنب ، فيحل القولنج من ساعته . ويأمر بشرب الدواء ، والقمر على مناظرة الزُهَرَة ، فيصلح العليل من يومه " .

وتبع رواج الطب التنجيمي اشتهار التعشيب التنجيمي ، فكان على العشّابين أن ينتظروا المواقيت وتوافق البروج ليقوموا بقطع الأعشاب والأزهار الطبية ، إذا ما أرادوا من هذه تحقيق ما يرتجى منها . فنبات القويضة (Sauge) مثلاً ، المتعاطف مع برج الحمل ، يُقطع ابتداءً من اليوم الخامس عشر قبل غرّة نيسان (١٥) .

وأنجع الطلاسم (والكلمة يونانية Τελ|σμα) هي التي يتمكن صانعها من الحبك بين البرج والنبات والحجر والقوت ، ليجمع التعاطف كلّه ويتّقي كل محظور . فقد جاء في رسالة هرمس إلى إسكلبيوس عن " كتابهم المقدّس " : ارسُم على قطعة حجر شكل البرج وصورته (الراجع إليه العضو المتألّم) ، وضع تحتها نبات البرج وشكله (الراجع إليه العضو) ، واحمل هذه التميمة كدواء فعّال يعطك السعادة . وهذا مثلٌ عن حبكٍ تام للطلسم ، وهو الراجع للمنزل الثالث من برج الحوت : فالنبات المتعاطف هو البابونج ، والحجر المتعاطف هو الصفير (Saphir) ، والقوت المتعاطف هو رأس العنزة ، والمحظور المتنافر هو الجلوس مباشرة على الأرض ... هذا ولا بدّ للعشّاب عند القطاف من مواصلة تلاوة الصلوات والابتهالات العائدة للشهر والساعات والصورة الملائمة للبرج الموافق للنبات .

التنجيم عند العرب :

وانتقل التنجيم المُتَستِّر بالعلم إلى العرب بعد الفتح ،ولم يكن ميل الناس ـ على الأقل في أوّل الأمر ـ إلى مظاهر الحضارة النظرية ، بل إلى الطب والتنجيم والخيمياء . ومن الأقوال المأثورة : العلوم ثلاثة ، الفقه للدين ، والطب للأجسام ، والنجوم للأزمنة .

يقول نيللينو : " ربّما كان أوّل كتاب نُقل عن اليونانية إلى العربية في العصر الأموي كتاب تنجيم واسمه " مفتاح النجوم " ، المنسوب إلى هرمس الحكيم ، وهذا المخطوط دخل مكتبة الأمبروزيانا سنة ١٩٠٩ ، وهو مؤرّخ بسنة ١٢٥ هجرية الموافقة لسنة ٧٤٢ ميلادية ، أي قبل ٧ سنوات من نهاية الخلافة الأموية " .

وذكر المسعودي (١٦) : " أنّ المنصور كان ميّالاً إلى التنجيم ، وهو أوّل خليفة قرّب المنجّمين وعمل بأحكام النجوم " . ولّما بنى الخليفة المذكور مدينة بغداد ، كان المنجّم أبو سهل بن نوبخت حاضراً ، مع ما شا ءالله ، المنجم الآخر . وذُكر اسم منجّمَيْن آخرين هما الفزاري والطبري (عمر بن الفاروخان ؟) (١٧) . ونذكر بين المنجمين الذين لازموا الخلفاء توما الرهاوي ، رئيس منجّمي المهدي ، وثابت بن قرّة ، عند المعتضد ، على ما جاء عند ابن أبي أصيبعة (ص ٢٩٥) .

يقول هنريش شيدر في كتاب " الشرق والتراث اليوناني " (١٨) : " لم يكن المسيحيون وحدَهم حفظة التراث اليوناني في البلاد المفتوحة ، ومن الملاحظ أنّ العناية بالفلك اليوناني وعلم النجوم (التنجيم) وعلم الصنعة (الخيمياء) اليونانيِّين ، كانت ضعيفة عند السريان ، بينما تجلت هذه العلوم نفسها بقوّة في الكتب العربية الإسلامية ... لأنه وجد في دولة آل ساسان بفارس تقاليد محكمة قويّة للعلم الهلّيني .. ونستطيع من الكتاباتِ العربية الأقدم عهداً أن نشهد بصورة واضحة المصطلح الفنّي الفارسي الأوّل للعلوم المذكورة ، والذي حلّ محلّه فيما بعد مصطلحات عربية " .

ولعبت أسرة آل نوبخت دوراً كبيراً في التنجيم لدى الخلفاء العبّاسيين الأوّلين : من نوبخت الفارسي الذي ذكر إبن أبي أصيبعة انّه كان ضديق المنصور (ص ٢١٩) ، إلى ابنه أبي سهل ، إلى حفيده إسماعيل ، وورد كذلك عند ابن أبي أصيبعة ، في ترجمة الحلاّج (ص ٢١٩) ، أنّ أبا سهل بن نوبخت كان يرافق المنصور في حجّته الأخيرة عندما وصل ميتاً إلى مكّة ، وأنّه دفن عند بئر ميمون . وتَرْجم كذلك أفراد أسرة نوبخت كتباً في علم الكواكب وأحكامها .

ولعب " كتاب الأربعة " (TETRABIBLION) الدور الحكَم في اتّخاذ العرب اتجاهاً يونانياً . والكتاب لبطليموس ، صاحب " المجسطي " في علم الفلك . وشكّ أبو معشر البلخي في أن يكون " كتاب الأربعة " لبطليموس ، فردّ عليه علي بن رضوان المصري مثبتاً ذلك . واليوم لا يشكّ أحد في أنّ " المجسطي " و " كتاب الأربعة " هما لمؤلّف واحد .

إذاً تأثر عامة العرب ببطليموس في علم النجوم ، وقسموه - كما فعل هو - إلى علمي الفلك والتنجيم ، بينما يفرق ابن سينا وأكثر الفلاسفة العرب بين علم النجوم والتنجيم ، معتبرين التنجيم قسماً من التاريخ الطبيعي (١٩) .

ويعتقد سارتون أنّ " كتاب الأربعة " هذا كان من أوائل الكتب اليونانية التي نقلت إلى العربية . نقله أوّلاً أبو يحيى البطريق ، ثم حنين بن إسحق ، وأخيراً إبراهيم بن الصلت ، وأصلحه ثابت بن قرّة (٢٠) . وكلّ ذلك يدلّ على أهمية الكتاب وسعة انتشاره في ذلك العصر .

وتألّق نجم بني قرّة الحرّانيين ، وقد ذكر ابن أبي أصيبعة الكثير في تضاعيف كتابه عن هذه الأسرة : فثابت كان من جملة المنجّمين عند المعتضد - كما ذكرنا - وهو صاحب كتاب " في طبائع الكواكب وتأثيرها " ، ومؤلّف رسالة في مذهب الصابئة وديانـاتهم ؛ وسنان بن ثابت كان في خدمة المقتدر والقاهر على ما جاء في " عيون الأنباء " (ص ٣٠٠) ، وهو الذي نقل إلى العربية نواميس هرمس والسُّور والصلوات التي تُصَلّي بها الصابئة ،وله رسالة في قسمة أيّام الأسبوع على الكواكب السبعة . فمن المؤكد ، والحال هذه ، أنّ الصابئة الحرانيين كانوا على اتّصال وثيق بالهرمسية المصرية وكانوا يدرسون كتبها .

الفلاسفة والفقهاء والتنجيم :

بين فلاسفة العرب كان الكندي أوّل من اعتبر التنجيم قسماً من الفلسفة ، على خلاف موقفه من الخيماء كما سنرى ، وكان أبو معشر البلخي معاصراً له ، وكانت بينهما عداوة متأجّجة ، ما لبثت أن همدت على ما يظهر ، وروّج الاثنان التنجيم ودافعا عنه . ولأبي معشر في هذا العلم تطبيقات خاصة وتنبّؤات سيأتي ذكرها . وبقي الأمر هكذا إلى القرن التاسع أي آخر القرن الثاني الهجري .

ولّما تعمّق العرب في فلسفة أرسطو وجدوا أن لا ذكر للتنجيم لديه . وانتبه الفقهاء إلى علاقة التنجيم بالعقيدة والقدرة الإلهية ، فبدأوا يحاربونه ، وأوّل من قام بذلك عيسى ابن علي بن عيسى ، على ما نعلم ، وإذا استثنينا الفارابي وإخوان الصفا ، أمكننا القول إنّ ابن سينا وابن رشد كانا من المقاومين .ولابن خلدون في مقدّمته ، الباب السادس ، الفصل ٣٢ ، سرد مطول تحت عنوان " في إبطال صناعة التنجيم " (٢١) . وطبعاً فمن مقاومي التنجيم ومعارضيه : ابن حزم (+ ١٠٦٤) والغزالي (+ ١١١١) وابن قيم الجوزية (+ ١٣٥٠) . أما فخر الدين الرازي (+ ١٢١٠) فيكاد أن يكون الوحيد ، بين الفقهاء الكبار ، من دافع عن التنجيم ، ولم يَذكر عنه ابن أبي أصيبعة سوى أنّه اشتغل لنفسه بالعلوم الحكمية (ص ٤٦٢) .

وكانت المذاهب الأربعة والشيعة قد انتظمت عند المسلمين عندما اشتد الصراع بين أكثر الفلاسفة والفقهاء من جهة، والمنجّمين من جهة أخرى ، فمُنع بيع كتب التنجيم وشراؤها ، على أنّه لم يتعدَّ الأمر الإجراء النظري ، إذ كانت المخالفة تأتي من علٍ ، فبلاط الخلفاء العباسيين ، وقصور الأمراء والوجهاء كانت تستقبل المنجّمين بعطف بالغ وتستشيرهم في الكبيرة والصغيرة (٢٢) . وقد أحصينا عدد المنجّمين عند القفطي فبلغ الخمسة والخمسين من أصل قرابة أربعمائة ترجمة ، ما عدا الغُفُل والمغمورين الذين لم يشتهروا ليُذكروا .

واستمرّت الحال على هذا المنوال حتى القرن التاسع عشر ، فكان " المنجّم باشي " في السلطنة العثمانية من الوظائف الرسمية المرموقة (٢٣) .

ومن ملاحظات سارتون الطريفة أنّ عدد المنجّمين اليوم في الولايات المتحدة يفوق عدد الفلكيين ، وبعضُهم يربح أكثر مما يربح علماء الفلك (٢٤) ودرجت العادة على أن بعض الجرائد والإذاعات تخصِص الآن يومياً حقلاً للطوالع . والإنسان ، لا سيّمَا في أيّام المحن والشدائد ، يتعلّق كما يقال بخيوط العنكبوت ، فكيف إذا كان يؤمن بالتنجيم ؟ ومما ذكره ابن أبي أصيبعة أنّه ، عندما نكب الخليفة الراضي ابن مُقْلة ، أرسل هذا واستشار منجّماً ليرى له طالعه، وكذلك فعل لمعبّرٍ يُعبِّر له مناماته (٢٥) .
ومن أقوال أبي معشر البلخي المنجّم أنّ خَلْق العالم تَمَّ عندما كانت الكواكب السبعة في قران عند الدرجة الأولى من برج الحمل ، وأنّ العالم سوف ينتهي عند قران هذه الكواكب في آخر درجة من برج الحوت ... (٢٦) .

تُوفّي أبو معشر البلخي ، كما هو معروف ، سنة ٨٨٦ م ، وكان قد تنبّأ بأنّ الخلافة العباسية ستزول في سنة ١٢١٣ . وحدث هذا فعلاً إذ بَدَأ زحف المغول إلى الشرق الأوسط حول هذا الزمن ، وسقطت بغداد سنة ١٢٥٨ . فهل نعجب بعد هذا إذا كان الفلكي العبقري الكبير كبلر (+ ١٦٣٠) عني بقراءة الطوالع ؟ (٢٧) .

الحواشي :

١ - لا بد للتعرف على الهرمسية عند العرب من البدء بدراسة الجَرْدة المقتضبة والمكثفة التي وردت كملحق ثالث للجزء الأول (من الطبعة الثانية) في كتاب فستوجيير ، والدراسة للمستشرق الكبير ماسينيون :

Révélation d' Hermès Trismégiste . 384 - 400 éd , Belles lettres , Paris 1981

I , P . 384 - 400 .

- أما الاختلاف في بعض التفاصيل وفي عدد الهرامسة فيرجع إلى أنّ ابن جلجل والقفطي وابن أبي أصيبعة يروون عن أبي معشر البلخي ، بينما يستند ابن النديم في فهرسته إلى أبي سهل بن نوبخت .

Cf • Encyclop .de l' Islam , 2 e éd . Tome III , p . 480

٢ - ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، منشورات دار الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٣١ ي .

٣ - المرجع نفسه : ص ٣١ ي .

٤ - المرجع نفسه : ص ٣١ ي .

٥ - FR .CUMONT , Les religions Orientales dans le paganisme romain , 1963 , p. 60 .

٦ - هانز هينريش شيدر: روح الحضارة العربية ، ترجمة عبد الرحمن البدوي ، ص ٩٣ . لم نجد مبرراً في كل ما ذكره المترجم في المقدّمة لتغيير العنوان الذي أراده المؤلّف وهو " الشرق والتراث اليوناني " .

٧ - ابن أبي أصيبعة : المرجع نفسه من ص ١١ إلى ١٧ .

٨ - القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، طبعة دار الآثار للطباعة والنشر ، بيروت ، دون ذكر سنة .

٩ - FESTUGIERE , La Révélation d' Hermès Trismegiste , I , p . 14 seq .

١٠ - CUMONT , op . cit ., p . II .

١١ - PLATON , Timée , 22 , a , et la collection Budé , p . 132 .

١٢ - E . DE PLACES , La religion grecque , Picard , 1969 , p . 282 .

١٣ - F . CUMONT , op. cit ., p . 288 .

١٤ - ابن أبي أصيبعة : المرجع نفسه ، ص ١٩٢ .

١٥ - FESTUGIERE , op . cit ., I , p . 137 seq .

١٦ - المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، دار الكتاب اللبناني ، ص ٣٦٤ .

١٧ - NALLINO , Raccolta di Scritti editi e inediti , V , p . 201 .

١٨ - شيدر : المرجع المذكور ، ص ٩١ .

١٩ - NALLINO , op . cit ., V , p . 106 .

٢٠ - سارتون :العلم القديم والمدنية الحديثة ، ترجمة صبره ، ص ١٤٤ .

٢١ - من المؤسف حقّاً أن نجد ابن خلدون ، هذا العقل الكبير ، يضع في الباب السادس المذكور الفصل ٣١ وعنوانه " في إبطال الفلسفة وفساد منتحليها " ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٧ .

٢٢ - NALLINO , op . cit ., V , p . 28 .

٢٣ - NALLINO , op . cit ., V , p . 39 .

٢٤ - سارتون : المرجع نفسه ، ص ١٢٧ .

٢٥ - الدكتور فؤاد أفرام البستاني : دائرة المعارف اللبنانية ، مجلّد ٤ ، ص ٧٠ .

٢٦ - Encycl . Universalis , II , p . 679 a .

٢٧ - سارتون :المرجع نفسه ، ص ١٢٧ .ومن المعلومات المنشورة مؤخّراً في مجلّة " ماتش " بتاريخ ٣٠ من كانون الأول عام ١٩٨٣ ، العدد ١٨٠٥ ، صفحة ٣٤ ، أنّ ثلاثين مليوناً من القرّاء من ستة بلدان مختلفة يقرأون أسبوعياً تنبّوات المنجّمة الفرنسية اليزابت تيسيه .

الفصل الرابع :

نظرة إلى الخيمياء عند العرب

الخيمياء [١] (Alchimie) :

يمكننا أن نلخّص التنجيم الذي مرَّ بحثه بتحديد وجيز فنقول : " إنّه تطبيق لا معقول لعلم النجوم " . والآن ، وبانتقالنا إلى الخيمياء نتساءَل هل في وسعنا أن نقول إنّ الخيمياء تطبيق لا معقول لعلم الكيمياء ؟ لا نظنّ ... وليُسمح لنا أن نرجئ الجواب إلى آخر عرضنا لنوضح السبب الذي يصدّنا اليوم عن قبول مثل هذا التحديد ، بعد أن كان الأمر بالأمس ممكناً .

على كلٍّ ، نستطيع موقّتاً أن نستعين بتحديد ابن النديم فنقول : " إنّ (الخيمياء) صنعة الذهب والفضة من غير معادنها " . ويتابع صاحب الفهرست : " إنّ أوّل من تكلّم عن علم الصنعة " هرمس " الحكيم البابلي ... وإنّ الصنعة صحت له ، وله في ذلك عدّة كتب " [٢] .

وتعدّدت النظريّات عن بدء وجود الخيمياء زماناً ومكاناً ، ولكن سبقتها مظاهر الكيمياء البدائية التي علّمتها الطبيعةُ الإنسان منذ أوّل عصور وعيه ما حوله ، مثل التذويب والتعفّن والتخمير . ولمّا أجاد الإنسان استعمال النار ، توصّل إلى اكتشاف المعادن وتذويبها ، فاستنبط القُلُزّ (البرونز) ، المعدن الجديد الذي فيه تمَّ ، جمع أكثر من صفة في معدن واحد .

ولمّا كان عسيراً تأريخ أوّل ظاهرة للخيمياء العلمية عند البشر ، قيل أنّ أوّل تمتمة لها كانت على الأرجح في مصر ، في القرن الثالث قبل الميلاد . واللفظة اليونانية Χυμιξια ، لم تكن تعني في أوّل الأمر علماً ، بل مادّة يُصار بواسطتها إلى تلوين المعادن ، فهي إذاً مرادفة للفظة يونانية أخرى هي " الإكسير " Ξηριον . وقيل أنّها صينيّة ، وأنّ التسمية مأخوذة من لفظة " كيم لا " (Kim la) أي عصير الذهب ، لاعتقاد الصينيّين أنّ هناك عصيراً يولد الذهب . وظهرت نظرية أكثر جدّة تقول إنّ الصنعة ظهرت في سورية حيث وُجدت رموز سحرية تشير إلى بعض الصيغ الخيميائية ، ومن سورية انتقلت ، إبّان القرن الثالث ق . م . شرقاً إلى الصين وغرباً إلى مصر [٣] .

ويعتقد فِستوجيير ، ومؤلّفه مرجع لكلّ الدروس الهرمسيّة ، أنّه في القرن الثاني ق.م. انفصلت الخيمياء عن الممارسات التقنية أو المهنية التي كانت تُمارَس في هياكل مصر ، على يد بولس المنديسي (Bolus de Mendès) ، قبل أن تتزلق إلى الخيمياء الأسطورية . وكان يمارَس في هياكل مصر (٤) التذهيب والتفضيض والصبغ بدءًا من الآنية المعدنية والأحجار إلى الأقمشة ، دون السعي إلى تحويل المعادن . ويُعتقد أنّ بولس المذكور هو الذي أوجد الخيمياء المصرية بإدخاله في تلك التقنيات الأبعاد الماورائية ، فأصبحت الخيمياء فرعاً من الهرمسية والغنوص (العرفان) .

الخيمياء عند العرب :

أمّا عن وصول الخيمياء إلى العرب فقد أظهر روسكا (Ruska) أنّ ذلك كان ، بادئ ذي بدء على يد الفرس ، بسعي البرامكة الوافدين من بَلْخ ، إذ كانت بلخ آنذاك أُمّ المدن ، حيث تشابكت وتفاعلت التأثيرات المتنوّعة ، من يونانية ونسطورية وزردشتية ومانوية . وأخذت خيمياء العرب شكل تعليم غنوصي خفيّ ، فأصبح لا يمكن أن يتوصّل إليه طالب الصنعة إلا بالتلقين السرّي . ولا مندوحة عن القول إنّ الخيمياء عند العرب بلغت من العمق ما لم تبلغه الخيمياء التلفيقية الإسكندرانية (٥)

لقد مرّ بنا في النبات التنجيمي كيف كان على القائم بعملية جني الأعشاب والزهور الطبيّة ألا ينفكّ عن التسبيح والابتهال . أمّا الخيمياء فقد غالت في الأبعاد الماورائية حتى إنّ الفلسفة العربية والتصوّف العربي لم يستطيعا الإفلات من تأثيرها .وإنّنا ، دون أن نتطرّق إلى التفاصيل ، نكتفي بذكر ما جاء عند ابن أبي أصيبعة ، أنّ للفارابي كتاباً عنوانه " في وجوب صناعة الكيمياء والردّ على مبطليها " ، وأنّ " ذا النون المصري " (+ ٨٦٠) كان من الخيميائيين . وتسمية ابن عربي (+ ١١٦٥) بعض فصول كتبه بالفصوص لا يخلو من رموز وإيماءات إلى الصنعة ، على قول أصحاب الاختصاص(٦) . وقد ذكر ابن النديم عن محمّد بن إسحق " أنّ الكتب المؤلّفة في هذا الشأن أكثر وأعظم من أن تُحصى لأن المؤلّفين لها ، تنحّلوها عنهم " (٧) .

واشتهر الخيميائيون بالتستّر في عملهم وبالمعميات في تعابير تآليفهم ، ولهم مصطلحات وتسميات لا يفهمها إلاّ من كان من جماعتهم . فالزئبق يسمّى الأم ، والكبريت يسمى أبا المعادن السبعة .وإذا كان الذهب والفضّة قد اتّزنت فيهما العناصر الأربعة على الشكل الأنقى وحسب النسب الموافقة ، فالأمر على غير ذلك في بقيّة

المعادن التي يمكن أن يُقال عنها أنّها ذهب وفضّة في حالة المرض . أمّا القصدير ففضّة برصاء ، والزئبق فضّة مصابة بالصَدَع [٨] (كذا) . وإنّ الأرض ، حسب تطبيق مبدأ التعاطف الهرمسي الذي عرفناه أساساً للتنجيم ، لتحوي قوى خفية تعالج المعادن الخسيسة لترقى بها إلى الشكل الأنقى ، حسب النسب الفضلى .

إذاً ليس عمل الخيميائي ، بشتّى أساليبه ، سوى تعجيل عمل قوى الأرض الخفيّة وإكمال عمل التقنية بسرعة ، إذ إنّ أهل الصنعة لم يكونوا يعتقدون أنّ المعادن أجسام بسيطة متميّزة في جوهرها ، بل خُيِّل إليهم أنّ المادة الأولى فيها كلها واحدة ، على ما فسّروا تعليم أرسطو ، وهذه المادة الأولى تتعدّد الصوَر فيها ، لأنّ الجنس واحد والأنواع مختلفة ، وهذه لا تتميّز فيمّا بينها إلاّ بالأعراض (كذا) .

خالدبن يزيد وجابر بن حيّان :

إنّ أوّل ما يواجه دارسَ الخيمياء عند العرب شخصيّتان لا بدّ من التوقّف عندهما ، وهما خالد بن يزيد بن معاوية وجابر بن حيّان . والحديث عنهما ذو شجون ، والأمر ليس بجديد ، وإنّنا نبدأ بالشخصية الثانية ونردفها بالأولى :

جاء في فهرست ابن النديم (+ ١٠٠٠) : " وقال جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين : إنّ هذا الرجل [أي جابراً] لا أصل له ولا حقيقة . وبعضهم قال إنّه ما صنّف ، وإن كان له حقيقة ، إلاّ كتاب الرحمة ، وإنّ هذه المصنّفات صنّفها الناس ونحلوه إيّاها . وأنا أقول [والكلام لابن النديم] : إنّ رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب ويصنّف كتاباً يحتوي على ألفَيْ ورقة يُتعب قريحته وفكره بإخراجه ، ويُتعب يده وجسمه بنسخه ، ثمّ ينحله لغيره ، إمّا موجوداً أو معدوماً ، ضرب من الجهل ، وإن ذلك لا يستمرّ على أحد ، ولا يدخل تحته مَنْ تحلّى ساعة واحدة بالعلم . وأيّ فائدة في هذا ، وأيّ عائدة ،والرجل له حقيقته ، وأمره أظهر وأشهر ، وتصنيفاته أعظم وأكثر ، ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة ، أوردُتها في مواطنها ، وكتب في معاني شتّى من العلوم قد ذكرتُها في مواضعها من الكتاب ، وقد قيل إنّ أصله من خراسان ، والرازي يقول في كتبه المؤلّفة في الصنعة قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيّان " [٩] .

ونحن بدورنا نقول : إنّ ابن النديم ، وقد عُرف بدقّته ، لا يُعطينا في موضوعنا هذا ما يشفي الغليل .أمّا ما يظنّه برهاناً لإبطال النحل ، فكلّنا يعرف أنّ أهل الخيمياء اشتهروا ودأبوا في هذا الأسلوب طلباً للإيهام في القِدَم ، وسعياً لدعم الصنعة وترويجها

وأنّه ، ما عدا الكتب التي نحلت هرمس ، قد وُضعت كتب في الصنعة ونُسبت إلى موسى وسليمان وزرادشت وأخنوح وإدريس وعلي بن أبي طالب ، إلخ ... وليت ابن النديم انتبه إلى ما سوف يذكره هو نفسه ، بعد صفحات في الفهرست (ص ٤٢٥) ، وقد سبقنا واستشهدنا نحن به ، ناقلاً قول محمّد بن إسحق : " إنّ هناك كتباً أعظم من أن تُحصى نحلها مؤلّفوها أهلَ الصنعة " .

هذا ، ودون الدخول في التفاصيل ، نُجمل في شبه لوحة آراء أهمّ العلماء الذين عالجوا قضية جابر بن حيّان وخالد بن يزيد :

برتيلو (M. Berthelot) : منذ أكثر من قرن أنكر وجود جابر بصورة اعتباطية لأنّ المستندات التي بين أيدينا اليوم لم تكن قد ظهرت بعد [١٠] .

الدو ميدلي (Aldo Mieli) : قال : إنّ المؤلّفات المنسوبة إلى المدعو جابر بن حيّان والمعتقد أنّها من القرن الثامن ليست سوى مؤلّفات غُفل لجماعة من المؤلّفين الاسماعيليين من القرنين التاسع والعاشر [١١] .

هولميارد (E. J. Holmyard) : جمع كميّة من البراهين مسانداً التقليد وقال : " لقد وُجد جابر في القرن الثامن وكان تلميذاً للإمام السادس جعفر الصادق ، وهو مؤلّف المجموعة الضخمة ، أي قرابة ٣٠٠٠ ما بين كتاب ورسالة " [١٢] .

روسكا (J. Ruska) : يعتقد أنّ كلّ ما جاء في التقليد عن خالد بن يزيد والإمام جعفر الصادق وعن اهتمامهما بالخيمياء لا يتعدّى الأسطورة ، وأنّ مؤلّفات جابر بن حيّان لا يمكن أن تكون قد دوّنت إلاّ في أواخر القرن التاسع ، وأنّ الرازي (أبا بكر) هو الشخصية التاريخية الوحيدة التي لا يمكن أن يعتورها أدنى شكّ [١٣] .

هنري كوربان وعثمان يحيى وحسن نصر : قالوا إنّ جابراً بن حيّان ليس بخرافة أو بأسطورة ولكنّه أكثر من شخصيّة تاريخيّة (ولم يوردوا بالنص ما يعنون بقولهم هذا) [١٤] .

كراوس (P. Kraus) : هو القائل بتعدّد المؤلّفين حول نواة أوّليّة ، والجازم بظهور هذه الكثرة من المؤلّفات التي نحلت جابراً في القرن التاسع لا الثامن ، كما جرت العادة في القول ، وهو الرأي الذي أخذَتْ به دائرة المعارف الكبرى " يونفرساليس " (Universalis) . ويُعتبر المرحوم كراوس أكبر مَنْ تخصّص في المعضلة الجابرية . ومن الملاحظ أنّ هذا الرأي الأخير يتوافق إلى حدٍّ بعيد مع رأي أدلى

به أحد الوراقين لابن النديم ، كما ذكرنا في نصّ سابق أورده ابن النديم نفسه في الفهرست .

كَشفت الرسالة المعروفة باسم " اللوحة الزُمُردية " (Tabula Smaragdina) عن علاقات كانت قائمة بين الأوساط الغنوصية اليونانية والخيميائيين العرب .والرسالة كناية عن تعليم سرّي خيميائي منسوب إلى هرمس . وكان ستيل (R . Steele) وجد نصّها في كتاب سرّ الأسرار ، منحول أرسطو ، ثمّ استطاع هولميارد أن يجد نصًّا أقدم من الأوّل في كتاب " الأسطقوس الثاني " المنسوب إلى جابر بن حيّان ، ووفّق روسكا أخيراً بالعثور على النص في كتاب " سرّ الخليقة " الذي زعم بالنياس فيه (وبالنياس هو Apollonios de Tyane) أنّه استخرجه من قبر هرمس . وأهميّة الرسالة تقوم على أنّها لا تدع مجالاً للشكّ في أنّ جابر بن حيّان ، أو قُلْ الأوساط الغنوصية العربية ، عَرَفت الرسالة وأفادت منها (١٦) .

وقبل أن نترك جابراً ، لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنّه اشتهر بنهج سمّاه " علم الميزان " ، وهو علم غنوصي (سرّي) يقوم على درس العلاقات الكامنة في الأجسام ، بين ظاهرها وباطنها ، وهو أسلوب يقوم على التأويل لما كان يُمارس في مذهب الإسماعيلية . ويُنسب إليه علمٌ آخر يُعرف "بميزان الحروف " ، وهو مأخوذ عن الفيثاغورية ، ويُقال إنّ جابراً كان يطبّقه على الخيمياء عند تحويل المعادن .

أبو بكر الرازي (+ ٩٣٢) :

هناك فارق كبير بين ضبابية أكثر كتب المجموعة الجابرية ورسائلها والطريقة التي اتّبعها الرازي في الخيمياء ، فقد طوّر الصنعة وجعلها تتّجه أكثر فأكثر إلى الاختبار الواقعي .

ويمكننا القول : إنّ الخيمياء كادت أن تصل في عهده إلى عتبة علم الكيمياء كما نعرفها اليوم ، ويتساءل روسكا عن الرازي ، وهل كان هذا التطوّر من عنديّاته أم حصل تحت تأثير بعض الأوساط الغنوصية المعاصرة له (١٧) ؟

لقد أفرد ابن أبي أصيبعة للرازي ترجمة حياة مسهبة لكنّه ذكر القليل من علم الصنعة الذي كان الرازي مواظباً عليه ، ففي عصره كان يُنظر شزراً إلى الخيمياء ، وكان أهل الصنعة يُخفون ما يقومون به متستّرين .

وكان الرازي بالغ الحماسة للخيمياء ، وهوالقائل : " أنا لا أسمّي فيلسوفاً إلاّ مَن كان قد عَلِمَ صنعة الكيمياء ، لأنّه قد استغنى عن التكسّب من أوساخ الناس وتنزَّهَ عمّا في أيديهم و لم يحتج إليهم " (أصيبعة ، ص ٤١٩) والسؤال هو هل استغنى حقاً أبو بكر عن التكسّب من أوساخ الناس ؟ لربّما كان الجواب في حادثتين أوردهما ابن أبي أصيبعة ، نذكرهما على علاّتهما :

الأولى : " كان الرازي قد باع قوماً من الروم سبائك ذهب ساروا بها إلى بلادهم ، ثمّ إنّهم بعد ذلك بسنين عدّة وجدوها وقد تغيّر لونها بعض التغيّر ، وتبيّن لهم زيفُها ، فجاءوا بها إليه ، وأُلزِم بردِّها ".

الثانية : " أكل الوزير [دون ذكر اسمه] عند الرازي أطعمة لذيذة لا يمكن أن يأكل أطيب منها ... ولّما أحضر الوزير الجارية وطبخت له ، لم يجد الطعام كما وجده عند الرازي ، فسألها عن ذلك فذكرت له أنّ الطبخ واحد والفارق أنّ القدور عند الرازي جميعها من ذهب . فاستحضر الوزير الرازي وسأله أن يُعرفه ما حصل له من معرفة الكيمياء ، فلمّا لم يذكر له الرازي شيئاً من ذلك وأنكر معرفته ، خنقه سرًّا بوتر"[١٨] .

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر ، فإنّ الطغرائي الأصفهاني (+ ١١٢٢) ، صاحب لامية العجم ، وكان من أهل الصنعة ، قُتِل متّهماً بالإلحاد .

وحدث أن عمي الرازي في أخريات أيام حياته بماء نزل في عينيه ، والأرجح أنّ الأبخرة المشبعة بسلفات الحديد والنحاس وحمض الكبريت وما شابه ، قد سبّبت له ذلك . ويذكر المسعودي أنّه غالباً ما يُصيب الخيميائيين ضعف البصر والسمع وصفار الوجه ، ومعلوم أنّ الرازي كان مدمناً ليل نهار على العمليات الكيميائية . ويخبرنا ابن أبي أصيبعة أنّه قيل للرازي بعد عماه لو قُدِحْتَ ؟ فقال لا ، قد نظرتُ من الدنيا حتى مللت (ص ٤٢٠) .

وإذا استعرضنا الفلاسفة نرى أنّ الكندي (+ ٨٣٣) الذي قال بالتنجيم ، كما ذكرنا ، حارب الخيمياء . وذكر ابن أبي أصيبعة بين مؤلّفات الرازي " كتاب الردّ على الكندي في إدخاله صناعة الكيمياء في الممتنع " (ص ٤٢٢) . أما الفارابي ، وهو من محبّذي الخيمياء ، فقد أورد ابن أبي أصيبعة عنوان رسالة له " في وجوب صناعة الكيمياء والردّ على مبطليها " (ص ٦٠٩) . وابن خلدون الذي شجب التنجيم وشجب الفلسفة ، كما مرَّ بنا ، شَنّع كثيراً بالخيمياء ، وله في الباب السادس من المقدّمة ، فصل عنوانه " في إنكار ثمرة الكيمياء "[١٩] .

الفارق بين التنجيم والخيمياء :

والآن ، بعد كلّ ما تقدّم ، لا بدّ من السـؤال :هـل نفـعَ التنجيـم والخيميـاء العلـم ؟ نجيب : نعم . ففي التنجيم كـانت الخرافـات الـتي اعتمدهـا المنجّمـون ، والأوهـام الـتي هدفوا إليها ، الحافز والمشجّع لهم ليقوموا بأرصاد شاقة طويلة . واعتقادنا أنّهم ما كانوا لِيُقدموا عليها لولا آمالهم الكاذبة . وتعرّى الرصـد مـع الزمـن مـن الخرافـات ، وقـادت الحسابات الدقيقة إلى طرح الأخباث واستبقاء الثابت من العلم الذي لا يمكن الاسـتغناء عنه ، فوصلنا إلى الاكتشافات الفلكية العصرية الرائعة .إنّ التنجيم قاد إلى علم النجوم ، وكان من علم النجوم أن قتل التنجيم علمياً .

أمّا في الخيمياء فلم يكن الأمر هكذا . فلقـد اعتمـدت الخيميـاء في أوّل عهدهـا مبـدأ التماثل ، وهو أبعد شيء عن العلم الذي يعتمد مبدأ الهويّة .ثـمّ اندسّـت الماورائيـات في الخيمياء ،ومن عادة الماورائيات أن تُعقّـد الأمـور إن لم تـزح الخيـال بعيـداً وتنطلـق مـن الواقع .

وتبـارت التصـوّرات الهرمسـية ، شـبه الصوفيـة ، بشـطحاتها ، في تغذيـة الخيميـاء ، فأعطتها أبعاداً وهمية ، مبتعدة أكثر فأكثر عن معطيات المادة ، وبقـي الأمـر علـى هـذا المنوال إلى أن أتى لافوازيه ، فأثبت أنّ المعادن أجسام بسيطة تختلف جوهرياً عن بعضها بعضاً ، فدكّ بذلك أُسس الخيمياء التقليدية .

وفي مطلع هذا القرن تقاسم علماء الغـرب العمـل للتعمّـق في دراسـة أسـاطير الصـين والهند وخرافاتهما ، فتبيّـن لهـم حـوالي أواسـط القـرن أنّ الأوهـام الخيميائيـة لم تُصِـب الشرق الأدنى وحده ، بل كانت ظاهرة غنوصية ومحاولات تقنية أوّليـة عالميـة ، أجهـد بها الإنسان نفسه ، في كل موطن له ، سواء في الشرق الأقصى ، والصـين خاصـة ، أو في الشرق الأوسـط .ولنـا في مجموعـة كتـب إلِيـاد مرشيا [٢٠] (Eliade Mircéa) حصيلة جامعة لتلك الجهود العالمية الجبّارة .

أمّا ما لم يكن في الحسبان فهو أنّ فيزيائيي الذرّة المعاصرين تمكّنوا من تحليل الأجسـام المعتَبرة بسـيطة ، وتوصّلـوا إلى تحويـل الزئبـق إلى ذهـب ، فصحّـت أحـلام الخيميـائيين الهرمسيين الأقدمين وخرافاتهم القائلة بوحدة المادّة الشاملة . وها هو العلاّمة جان بـيران (Jean Perrin) يعلن قائلاً : " لقد كان الخيميائيّون الأقدمون العباقرة السبّاقين لسَحَرة الذرّة المعاصرين " [٢١] .

الحصيلة :

لقد انطلقنا من الهرمسية عند ابن أبي أصيبعة وها نحن نشير إلى بعض الملاحظات :

أولاً : من الواضح أنّ ابن أبي أصيبعة ، شأنه شأن القفطي وابن النديم وابن جلجل ، تبع تقليداً موروثاً عن العصر الهلنستي ، فنسب إلى الهرامسة التنجيم والخيمياء وبقية المعارف والعلوم مع ما يلفّها من خرافات وأساطير . ومن الطريف في هذا الصدد ما ذكره السَرَخْسي الفيلسوف (+ ٨٩٩) ، أنّ أستاذه الكندي كان يعتبر هرمس من مؤسّسي ديانة الصابئة . ثمّ يضيف : " إنّ الكندي نظر في كتاب يُقِرُّ به هؤلاء القوم [أي الصابئة] ،وهو مقالات لهرمس في التوحيد ، كتبها [هرمس] لابنه ، على غاية من التقاية في التوحيد ، لا يجد الفيلسوف ، إذا أتعب نفسه ، مندوحة عنها والقول بها " (٢٢) .

ثانياً : نَسَبَ ابن أبي أصيبعة كتب تنجيم وخيمياء إلى أفلاطون وأرسطو ، وهذا أيضاً من مخلّفات العصر الهلنستي التي حجبت عن فلاسفتنا ومفكّرينا وجه أفلاطون ووجه أرسطو الحقيقيين ، وقد آن لنا أن نهتك هذه الحجب لنعرف ـ كما فعل الغرب ـ هذين العملاقين على حقيقتهما لا كما زيّفتهما لنا عصور التلفيق . ولا نرى مندوحة عن ذلك إلا التبحّر في دراسة العصر الهلنستي ، لنحسن فهم تراثنا ونتبيّن ما لنا وما علينا تجاهه ، وإذ ذاك نتمكّن من إرساء قواعد فلسفة عصرية تتجاوب مع ماضينا وتماشي طموحاتنا .

ثالثاً : يتّضح من تضاعيف " عيون الأنباء " أنّ ابن أبي أصيبعة ، كأكثر أطبّاء عصره ، ألَمَّ بعلم الفلك ، وأنّ له في التنجيم كتاباً بعنوان " إصابات المنجّمين " لم يصل إلينا . لكن رغم ذلك ـ لم يذكر في " عيون الأنباء " من أمور التنجيم والخيمياء إلاّ القليل ، ولربما كان سبب ذلك قِلّة وثوقه بأساليب التنجيم التي كانت تُتّبع في زمنه . فقد جاء في " عيون الأنباء " (ص ٤٨٢) قوله : " وقد نبّهتُ على ذلك في كتابي المؤلّف في إصلاح حركات الكواكب والتعريف بخطأ الراصدين " . أمّا عن قلّة ما ورد عنده من أمور الخيمياء فراجع إلى السرّية التي كانت تحيط بهذا العلم وملاحقة السلطات أصحابه . أما نحن ، فقد عمدنا إلى استغلال هذا القليل الذي وجدناه لديه من أمور التنجيم والخيمياء ، وحاولنا وضعه في أطره باقتضاب كلّي .

رابعاً : أسهب مؤلّفنا في القسم الأوّل من كتابه في ذكر النباتات والأعشاب ، وشفعه بنوادر عجيبة عن تطبيقاتها الطبيّة ، ولا عجب ، فابن أبي أصيبعة تلميذ لعبد

الله بن البيطار العشّاب الأشهر (+ ١٢٤٨) . وقد غالى في ذكر الشعراء وسرد القصائد الطوال ، في القسم الثاني من كتابه .ونحن إذ نأسف حقاً لذلك ، وبكل الأحوال نتمنّى لو كان ، بدل الأشعار ، أغنى معلوماتنا ولو بغيض من فيضه الذي يعرفه عن عصره في الطبّ والتنجيم والخيمياء ، ولا يسعنا إلاّ أن نُكبر إسهامه الفريد الذي جاء بعد القفطي وابن النديم وابن جلجل ، فجعل الحياة تدبّ في شخصيّات نعتزّ بها ونفتخر ، فلولا " عيون الأنباء " لجهلنا عدداً من رحالاتنا أو كنّا نذكر غالبيتهم كأشباح باهتة نستعرض أسماءَهم دون أن نعرفهم على حقيقتهم .

خامساً : لمّا كنّا نعتبر الحضارة العربية ، في بعض جوانبها ، امتداداً طبيعياً للعصر الهلّنستي ، فلا عجب أن نرى تغلغل عدد من المصطلحات والتعابير والصوَر الهرمسية في مؤلّفات تراثنا .وكثيراً ما يصادف المطالع بقايا هرمسية حيث لا يتوقّع وجودها ، وربما كان ذلك ، أحياناً ، على غير علم المؤلّف نفسه ، ونذكر على سبيل المثال ما جاء في النصوص الممتعة التي نشرها البحّاثة عبد الرحمن بدوي في كتابه " الإنسان الكامل في الإسلام " وعنوانها " المواقف الإلهية " لعبد القادر ، المعروف بقضيب البان الحموي ، المتوفى في حلب سنة ١٦٣٠ م ، حيث جاء في " موقف الإسراء " ما نصُّه : " ورأيت فارساً على فرسه طارداً ، لا يكلّ ولا يملّ ساعة واحدة . فسألت عنه فقيل هو المَلَك عُطارد كاتب الأخبار ، وكل مَنْ في تلك السماء كَتبةٌ ، ولصرير أقلامهم أصواتها ، يسمعها كلّ ذي روح ، وأخبارها تنفذ إلى الأمصار " (ص ١٣١) .

قلنا : من المعروف أنّ عطارد ليس في الميثولوجية الرومانية سوى هرمس الإغريق الذي اندمج في " توت " المصري إبّان العصر الهلّنستي ، وقد ذكرنا في المقال السابق تفصيلات وافية عن هرمس وتوت ، ومقامهما ، في الميثولوجية اليونانية والمصرية ، وعلاقتهما بالكتابة والعلوم والكتبة والرسائل ، وباستطاعة كلّ مستزيد في هذا الموضوع الرجوع مثلاً إلى " رسالة أصوات أجنحة الملائكة " للسُّهروردي ، وكتاب الأفلاطونية المحدثة عند العرب ، وهي نصوص حققها ، وقدم لها ولغيرها العالم المدقق عبد الرحمن بدوي .

سادساً : في الختام لا مناص من أن نلفت النظر إلى أمر جلل فنقول إنّ التنجيم والخيمياء اللذين استعرضنا بسرعة بعض حقباتهما يظهران لنا اليوم كأوهام قشعتها رياح الشمال ، ويخيّل إلينا أنّنا قد تحرّرنا من قيود الأوهام ، أمّا الحقيقة فهي أنّ البشر

كما عاشوا سيعيشون دوماً وتباعاً في الأوهام ، وقليل من الوهم ضروري ضرورة الملح في الطعام ، لأنّه يعطي مذاقاً للحياة ....

لقد تمنّى الإنسان أن يركب السحب فكان له بساط ريح دار به حول الأرض وهبط القمر وتجول بين الكواكب . واشتهى أن يحوّل المعادن إلى ذهب فحقّق أمنيته وفكّك الذرّة ،ولكن حذارِ ، لقد دقّ ناقوس الخطر وحانت ساعة الاختيار . لقد أصبحت الإنسانية اليوم تعيش تحت كابوس الهلع والفزع مما صنعت يدا الإنسان . وإذا كان المهمّ أن يبقى هذا الكائن الغريب سائراً قُدُماً في الاستنباط ، فقد أصبح الأهمّ الآن أن يَعقل ويُحسن الاختيار ....

الحواشي :

١ - لقد استعملنا لفظة كيمياء (chimie) للدلالة على العلم الحديث المعروف، واحتفظنا بلفظة خيمياء (alchimie) للإشارة إلى "صنعة الذهب والفضة من غير معادنهما "، ما لم نورد نصًّا قديماً حيث أبقينا كلمة كيمياء على ماهي عليه في الأصل .

Michel Serres et collab : Elements d' Histoire des sciences p 164 seq Bordas 1989 .

٢ - ابن النديم :الفهرست ، تحقيق رضا ـ تجدد ، ص ٤١٧ .

٣ - TATON , Histoire générale des sciences , I , P.U.F., Paris , p . 388 .

٤ - FESTUGIERE , La révélation d' Hermes Trismegiste , I , p . 222 .

٥ - Encycl . Universalis , I , pp . 593 ss .

٦ - Massignon , dans Festugiére , op . cit ., I , Ap . III , p . 387 .

٧ - ابن النديم : المرجع المذكور ، ص ٤٢٥ .

٨ - Encycl . de L' islam , II , p . 1070 .

٩ - ابن النديم :المرجع المذكور ، ص ٤٢٠ ، ٤٢١ .

١٠ - M . BERTHELOT , dans Histoire de la philosophie , Encycl . de la Pléiade , I , p . 1122 .

١١ - ALDO MIELI , La Science Arabe , 1938 , p . 128 .

١٢ - E . J . HOLMYARD , dans Encycl . de I' Islam , II , p . 1071 .

١٣ - J . RUSKA , dans Annales Guébhard - Séverines , 1931 , p . 166 .

صَعُبَ علينا أن نجد مقالة (روسكا) فلجأنا إلى صديقنا الأديب الكبير حضرة السيد أنور حاتم سفير سوريا لدى الفاتيكان سابقاً ،° وعميد كلية الأدب الفرنسية في جامعة فريبورغ (سويسرا) فتلطف وصور المقال وبعثه إلينا .

١٤ – H . CORBIN - O .YAHIA - S . H . NASR , dans Histoire de la philosophie , Encycl . de la pléiade , I , p . 1122 et H.Carbin : Histoire se lo philasaophie islamique P . 184.

١٥ – P . KRAUS ,dans Encycl . Univeralis ., I , pp . 589 ss .

١٦ – . Encycl . de l' islam , IV , p . 623 وعبد الرحمن بدوي : تاريخ الإلحاد في الإسلام ص ١٥٨ .

١٧ – P . RUSKA , op . cit ., p . 167 .

١٨ – ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ... ، ص ٤١٩ .

١٩ – ابن خلدون :المقدّمة ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٧ ، ص ١٠١٢ .

٢٠ – يصعبُ ذكر أهم كتب (مرشيا ايلياد) لأنها كلها مهمة ، إلا أننا نكتفي بذكر مؤلفه الأكبر أولا ، وقد توفي دون أن يتمه ، وبعض الدراسات التي لها علاقة بموضوع التنجيم والخيمياء :.

1) Histoire des croyances et des ideés religieuses 3 Vol (Payot) .

2) Forgerons et Alchimistes (Flammarion 1977)

3) Occultisme , sorcellerie (Gallimard 1986) .

4) Le M ythe de l' éternel retour (Gallimard 1989) .

وقد ألمحنا إلى موضوع هذا الكتاب الأخير (العَوْد الأبدي) عند أرسطو في الفصل الثاني من الباب الثاني ، عندما تكلمنا عن كتاب أرسطو " في الفلسفة "

٢١ – Encycl . Universalis , I , p . 589

٢٢ – ابن النديم : المرجع المذكور ، ص ٣٨٥ .

الفهـــرس

الباب الثالث: *تمازج العبادات بين الشرق والغرب*

" ... قوات إلى آسيا لا لحرب ، و لا لتحويل نصف الأرض إلى صحراء ، بل لأجعل الشعوب التي أخضعها لا تأسف لانتصاري ."

من أقوال الإسكندر المقدوني

" و إذا تخطينا القرون و نظرنا إلى شرقنا فلاحظ أن التأثير الإغريقي استمر في آسيا الصغرى ستة عشر قرنا ، و في سورية و مصر تسعة قرون ، قبل أن تبدأ الحضارة اليونانية جولة جديدة رائعة مع الفكر العربي ."